كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

وقفات وتأملات

إعداد
أ.د. فالح بن محمد بن فالح الصغير

مكتبة
التوبة

كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

وقفات وتأملات

ح مكتبة التوبة ، ١٤٣١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان ، ١١١٥ - ١٢٠٦ هـ

شرح كتاب التوحيد / ١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ، محمد بن عبد الوهاب

ابن سليمان ، فالح محمد الصغير . ـ الرياض ، ١٤٣١ هـ

٠٠ ص ؛ ٠٠ سم

ردمك : ٣ ـ ٧ ـ ٩٠١٧٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

١ - العقيدة الإسلامية ٢ - التوحيد أ ـ الصغير، فالح محمد (محقق)

ب ـ العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٣١ / ٨٩٥٢

رقم الإيداع : ٨٩٥٢ / ١٤٣١

ردمك : ٣ ـ ٧ ـ ٩٠١٧٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

المملكة العربية السعودية، الرياض

للاستفسار / ٠٥٠٦٤٣٠٤٥٧

مكتبة التوبة

الرياض – المملكة العربية السعودية – شارع جرير

هاتف: ٤٧٦٣٤٢١ فاكس: ٤٧٧٤٨٦٢ ص. ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥

كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

وقفات وتأملات

إعداد
أ.د. فالح بن محمد بن فالح الصغير

مكتبة
التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فلما كان التوحيد هو أصل الإسلام ، وهو الفقه الأكبر، ألّف فيه كثير من العلماء، فكان من أحسن ما سُبِك في بيانه ومن أشمل ما الف فيه، كتاب الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - **(كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد)** وقد تلقاه العلماء وطلبة العلم من بعده بالقبول، فكان مرتعاً خصباً لدارسته وشرحه وحفظه ، وقد يسّر الله لي أن قمت بشرحه والتعليق علمية في إذاعة القرآن الكريم من المملكة العربية السعودية، وذلك عام ١٤٢٥هـ على مدار سنة كاملة .

وقد رغب عدد من المستمعين تفريغه في كتاب تعم فيه الفائدة ، وقد ترددت في بداية الأمر، حيث إن شروح هذا الكتاب تعددت وتنوعت ما بين مختصر ومطول، ثم استخرت الله تعالى، ولبّيت الرغبة، إذ إنه بعد التأمل وجدت أن هذا الوقت ليس وقتاً للمطولات، فيحتاج كثير من طلاب العلم وطالباته إلى ما يجمع بعض المسائل والأفكار فيه، فعزمت على

إخراجه بعد إعادة ترتيبه وتهذيبه قدر الإمكان، ونهجت فيه منهجاً يجمع شتات مسائله، وذلك بجعل كل باب منه على وقفات ، كل وقفة تحتوي على مسألة من المسائل، أو قضية من القضايا، أو شرح نص، أو بيان غريب، ونحو ذلك مع الحرص على تخريج الأحاديث بعزوها إلى مصادرها، وبيان الحكم عليها دون إطالة تخالف قصد التأليف، مع المحاولة ألا يستشهد في هذا الكتاب إلا بما صح من الأحاديث، وكذا عزو الأقوال إلى أصحابها، وكل هذه التعليقات في الحاشية، أما المتن فلأصل الكتاب.

ومما يجدر التنبه إليه أنني رجعت إلى عدد من الكتب الشارحة للكتاب، وهي: فتح المجيد، وتيسير العزيز الحميد، والقول المفيد للشيخ محمد العثيمين رحمه الله وغيرها، وبناءً على ذلك لا أعزو لهذه المراجع في كل مرة رغبة في الإيجاز وعدم التطويل.

وقد قدمت لهذه التعليقات بتمهيد حاولت فيه تلخيص عناصر التوحيد، وبيان موضوع الكتاب ليسهل استجماعه في الذهن، ويكون أشبه بالخارطة الموضحة لمقاصد الكتاب، ومقاصد موضوعه وهو التوحيد، كما ذكرت نبذة يسيرة عن حياة المؤلف الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - .

وقد اعتمدت في أصل الكتاب على طبعة دار القبس، فشكر الله تعالى لهم جهدهم في المساعدة لإخراج الكتاب، وإذنهم ليكون متناً لهذا

الشرح.

ثم أشكر كل من بذل فيه جهداً من جمع وتفريغ وغير ذلك حتى وصل إلى ما وصل إليه، فجزاهم الله جميعاً خير الجزاء وأثابهم، وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الجهد، ويجعله من المدخر يوم نلقاه، إنه سميع قريب مجيب.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه

فالح بن محمد بن فالح الصغيّر

المشرف العام على موقع شبكة السنة النبوية وعلومها

www. alssunnah.com

٢٥/١٠/١٤٢٨هـ

التمهيد

وذكرت فيه العناصر الآتية:

- مفهوم الإيمان ، وأركانه .
- التوحيد وأنواعه ومقتضياته .
- ما ينافي الإيمان والتوحيد.
- من فضائل التوحيد وثمراته.
- الأسباب التي تنمي التوحيد وتقوي الإيمان.
- موضوع كتاب التوحيد ومنهجه.

أولاً: مفهوم الإيمان ، وأركانه:

الإيمان لغة: التصديق.

واصطلاحاً: التصديق بالقلب، والقول باللسان، والعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

والإيمان يحتوي على ستة أركان وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، قال سبحانه وتعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾ [(١)] وجاء في حديث جبريل عليه السلام حينما سأل النبي ﷺ ما الإيمان؟ قال: (**أن تؤمن بالله**

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨٥).

وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره) [١] .

وسوف نتناولها بشيء من التفصيل:

الر كن الأول: الإيمان بالله وهو:

توحيد الله تعالى بذاته و بربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وإفراده بهذا التوحيد، وعدم الإشراك به بأي نوع من أنواعه. وهذا الركن هو أصل هذه الأركان. وبيان هذا الركن كما يلي:

أ - توحيد الربوبية:

وهو توحيد الله تعالى بأفعال الرب سبحانه فيقر العبد بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق المتصرف، المحيي المميت ، الذي بيده ملكوت كل شيء، يقول للشيء كن فيكون، يعز من يشاء، ويذل من يشاء، قال سبحانه : ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [٢] وقال سبحانه أيضاً: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ**﴾ [٣] .

ب - وتوحيد الألوهية:

وهو أن يوحد العبد ربه بأفعال العبد نفسه؛ فلا يعبد إلا الله، ولا يدعوإلا الله، ولا يستغيث إلا بالله، ولا ينحر إلا لله، ولا يصلي إلا لله، ولا يزكي

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان ، برقم (٨).

(٢) سورة الفاتحة، الآيات (١-٣).

(٣) سورة يونس، الآية (٣١).

إلا لله، ولا يرجو إلا الله وهكذا ، فيفرده عز وجل بجميع أنواع العبادة، الظاهرة والباطنة، قولاً وعملاً، يؤمن بأنه سبحانه المستحق لهذه العبادة، كما قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾(١) وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾(٢) **ولهذا فقد أبطل الله تبارك وتعالى اتخاذ المشركين الآلهة من دونه ببراهين عقلية منها:**

١ - **أن أي آلهة دون الله لا تَخلُق**، ولا تجلب نفعاً، ولا تدفع ضراً، ولا تملك حياة ولا موتاً، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً﴾ (٣).

٢ - **أن المشركين لما كانوا يقرون بأن الله تبارك وتعالى هو الرب** الخالق الذي بيده كل شيء، فإن هذا يستلزم منهم أن يوحدوا العبادة له سبحانه كما وحدوه في الخلق ولهذا قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الحج، الآية (٦٢).

(٢) سورة النساء ، الآية (٣٦) .

(٣) سورة الفرقان، الآية (٣).

(٤) سورة يونس، الآيتان (٣١-٣٢).

ج - توحيد الأسماء والصفات:

وهو الإيمان بما سمى الله به نفسه في كتابه، أو سماه به رسوله ﷺ، وبما وصف به نفسه، وما وصفه به رسوله ﷺ .

وإثبات ذلك من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل.

وذلك أن نثبتها لله تبارك وتعالى إثباتاً يليق بجلاله، لا يشابهه أحد من خلقه .

فلا نحرف أسماء الله وصفاته عن معانيها، ولا نعطلها؛ وذلك بأن ننفي المعاني الصحيحة لأسماء الله وصفاته الحسنى ، ولا نكيف صفات الله تبارك وتعالى؛ فلا نعيّن كيفيتها ولا هيئتها التي تكون عليه؛ لأن هذا مما استأثر الله بعلمه، وكذلك لا نمثل الصفات فنشبه صفات الخالق سبحانه بأحد سواه .

ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ قال : "الاستواء معلوم، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة" ، وهكذا يقال في سائر الصفات ، قال تعالى : ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾(١) .

وقال سبحانه : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾(٢) .

وقد لخص العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - في كتابه (القواعد المثلى) جملة قواعد في أسماء الله وصفاته رأيت أن أذكرها

---

(١) سورة الأعراف، الآية (١٨٠)

(٢) سورة الشورى ، الآية (١١).

لعظم فائدتها وهي ما يلي:

١ - **أن أسماء الله كلها حسنى** ومتضمنة للكمال الذي لا نقص فيه.

٢ - **أسماء الله تعالى توقيفية** من القرآن الكريم والأحاديث النبوية ولا مجال للعقل فيها، فلا يزاد اسم لم يرد في النصوص الشرعية ولا ينقص ما صحت به النصوص النبوية؛ لأن العقل لا يمكن إدراك ما يستحقه الله سبحانه من الأسماء، وهذا كمال الأدب مع الله سبحانه، وقد قال سبحانه في محكم التنزيل: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ (١) .

٣ - **أن أسماء الله سبحانه وتعالى غير محصورة بعدد معين .**

ودليل هذا ما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وغيره أن النبي ﷺ كان يدعو بقوله: (**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك...**) (٢) .

كما أن هناك جملة قواعد في صفات الله تبارك وتعالى ينبغي لطالب العلم معرفتها ومنها:

١ - **أن صفات الله تبارك وتعالى توقيفية** من الكتاب والسنة ، ولا مجال للعقل فيها.

---

(١) سورة الأعراف ، الآية (٣٣).

(٢) سيأتي تخريجه إن شاء الله في الباب (٣٩).

٢ - **أن صفات الله سبحانه كلها صفات كمال** لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ولهذا قال سبحانه: ﴿**لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (١).

٣ - **أن صفات الله سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين: ثبوتية وسلبية**

فأما الثبوتية: فهي ما أثبته الله سبحانه لنفسه أو أثبته على لسان رسوله ﷺ؛ كالعلم والقدرة والاستواء على العرش والوجه واليدين، فيجب إثباتها على الوجه اللائق به تبارك وتعالى، وهذا النوع من الصفات صفات مدح وكمال.

وأما الصفات السلبية: فهي ما نفاه الله سبحانه عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، كنفي الموت والجهل والنسيان والتعب، فمثل هذه الصفات تُنفى عن الله تبارك وتعالى مع إثبات ضدها، وذلك لأن ما نفاه الله عن نفسه هو لأجل إثبات كمال ضده لا مجرد النفي، ولأن النفي بذاته ليس كمالاً، كما لو قيل: إن الجدار لا يظلم.

٤ - **الصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين ذاتية وفعلية:**

الذاتية: هي التي لم يزل ولا يزال الله سبحانه وتعالى متصفاً بها، ولا تنفك عنه، كصفة العلم والقدرة والسمع والعلو.

وأما الفعلية: فهي التي تتعلق بالمشيئة، فإن شاء الله سبحانه وتعالى فعلها وإن شاء لم يفعلها كالنزول إلى السماء الدنيا.

---

(١) سورة النحل، الآية (٦٠).

٥- أنه يلزم مع إثبات الصفات ترك التمثيل والتكييف:

لأن الله سبحانه وتعالى يقول:﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[١].

وكذلك قال تبارك وتعالى : ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾[٢] ، وقال: ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**﴾[٣] ولأنه لما عُلم أن هناك تبايناً بين الخالق والمخلوق في الذات فهذا يستلزم أن يكون هناك تبايناً واختلافاً في الصفات، لأن صفة كل موصوف تليق به كما هو ظاهر في صفات المخلوقات، ولذلك فقوة البعير تختلف عن قوة النملة وهما حيوانان، فعليه فلا يجوز بعد ذلك تشبيه صفة الخالق تبارك وتعالى بصفة أحد من المخلوقين، وكذلك يجب ألا نكيّف صفات الله على هيئة معينة؛ لأننا لم نرَ هذه الصفات فوجب الوقوف على ما جاء به الشرع .

الركن الثاني : الإيمان بالملائكة وهو:

التصديق بوجودهم، وأنهم خُلقوا من نور، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، وكذلك نؤمن بما علمنا من أسمائهم على التفصيل؛ كجبريل الموكل بالوحي، وميكائيل الموكل بالمطر والنبات ، وإسرافيل الموكل بالنفخ في الصور وغيرهم، وكذلك نؤمن بصفاتهم التي وردت في النصوص الشرعية، كصفة جبريل حينما رآه النبي ﷺ ، وقد سد الأفق وله ستمائة جناح، وقد قال تبارك وتعالى عن الملائكة : ﴿**بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ**

---

(١) سورة الشورى ، الآية (١١).

(٢) سورة الإخلاص، الآية (٤).

(٣) سورة طه، الآية (١١٠).

بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[١] .وقال تبارك وتعالى أيضاً : ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾[٢] .

والخلاصة : أن نؤمن بهم وفق ما جاءنا في القرآن الكريم والسنة المطهرة .

الركن الثالث: الإيمان بالكتب:

وهو التصديق بما أنزل الله سبحانه على رسله من الكتب؛ فنؤمن بما ذُكر في القرآن والسنة تفصيلاً وبسائر الكتب إجمالاً؛ وأنها من كلامه سبحانه، وكذلك الإيمان بما علمنا من اسمه كالقرآن الكريم، والتوراة التي أنزلت على موسى، والإنجيل الذي أنزل على عيسى، والزبور الذي أنزل على داود وصحف إبراهيم وموسى، عليهم السلام أجمعين، وكذلك نؤمن بما لم يسم الله منها ولا نعلمه، وقد قال تعالى في ذلك:﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[٣] .

وإن أفضلها وخاتمها القرآن الكريم، ولا يجوز العمل بعد نزوله إلا به، وهو ناسخ لما قبله من الكتب، وأنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا يجوز نسخه ، ولا تركه، ولا العمل ببعضه دون بعضه، ولا مساواته مع غيره، وأن الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة مترتب على الإيمان به.

الركن الرابع: الإيمان بالرسل :

وهو الإيمان بمن أرسلهم الله إلى خلقه لتبليغ دينه، لأنهم صادقون

---

(١) سورة الأنبياء، الآية (٢٧).

(٢) سورة الأعراف ، الآية (٢٠٦).

(٣) سورة الحديد ، الآية (٢٥).

فيما أخبروا به، وأنهم كرام أتقياء وأمناء ، ولا نفرق بين أحد منهم، بل نؤمن بهم جميعاً من سماهم الله ومن لم نعلم اسمه ممن تقدم على خاتم النبيين ﷺ.

وقد أثنى الله سبحانه على نبيه ﷺ بالإيمان بما ذكرناه فقال تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [١] .

وإن أفضلهم وخاتمهم هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب الهاشمي القرشي الذي لا نبي بعده، وأن الرسل أرسلوا إلى أقوامهم خاصة، وأن محمداً عليه الصلاة والسلام أُرسل إلى الثقلين (الجن والإنس) كافة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وأنه لا يجوز العمل إلا برسالته ، وأن الفلاح في الدنيا والآخرة لمن آمن به .

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر:

ويتكون بالتصديق الجازم بأن القيامة الكبرى آتية لا محالة، وأن الله سبحانه سيخرج الموتى من قبورهم أحياء حين ينفخ في الصور؛ كما قال سبحانه : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [٢] .

ويبدأ اليوم الآخر: من موت الإنسان وما يتعرض له في القبر وما بعده من الحشر والنشر إلى استقرار الإنسان في الجنة أو النار.. وما يذكر في ذلك : الإيمان بالجزاء والحساب، فيحاسب كل إنسان بما عمل من خير وشر، ولذلك قال سبحانه : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨٥).

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان (١٥-١٦) .

وَيَقُولُـونَ يَـا وَيْلَتَنَـا مَـالِ هَـذَا الْكِتَـابِ لا يُغَـادِرُ صَـغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْـصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾(١) .

ومـن الإيمـان بـاليوم الآخـر الإيمـان بالجنة والنـار، وأنهمـا مخلوقتـان خالدتان، فالجنة للمؤمنين والنار هي دار عذابٍ للكفار ولمن شاء الله دخوله من عصاة المسلمين، ولكن العاصي من المسلمين لا يخلد فيها، وقد قال سبحانه إثباتاً لهما: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ* وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾(٢) .

ومن أنكر البعث فقد كفر، ولهذا قال سبحانه : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾(٣) .

ومـن الإيمـان بـاليوم الآخـر الإيمـان بعـذاب القبـر ونعيمـه؛ ولهـذا قـال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : (إن العبد إذا وُضع في قبره ... أتاه ملَكان فيُقعِدانه فيقولان: ما كنتَ تقول في هذا الرجل أي النبي ﷺ ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبدالله ورسوله ، فيقال له : انظر لمقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً ، وأما المنافق أو الكافر فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دَريتَ ولا تَليتَ ، ويُضرب بمطارق

(١) سورة الكهف، الآية (٤٩).

(٢) سورة البقرة ، الآيتان (٢٤-٢٥).

(٣) سورة التغابن، الآية (٧).

من حديد ضربةً فيصيح صيحةً يسمعها من يليه غير الثقلين)[(١)] .

وخلاصة الأمر في الإيمان باليوم الآخر أن يؤمن الإنسان بكل ما أخبر به الله تعالى وأخبر به رسول الله ﷺ مما يكون بعد الموت .

الركن السادس: الإيمان بالقدر:

ويكون بالتصديق الجازم بأن الله سبحانه علم مقادير الأشياء وأحوالها قبل وجودها ، ثم كتبها في اللوح المحفوظ، ثم شاءها سبحانه وأوجدها بقدرته وحكمته ، وعلى هذا **يشمل الإيمان بالقدر أربع مراتب:**

المرتبة الأولى: الإيمان بأن الله عالم بكل شيء جملة وتفصيلاً ، وأن علمه سبق خلق الخلق كلهم وعلمهم .

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله كتب ما قدره في اللوح المحفوظ ، ودليل هاتين المرتبتين قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾[(٢)] .

المرتبة الثالثة: الإيمان أن جميع الأمور والمخلوقات لا تكون إلا بقدرته ومشيئته سبحانه وتعالى، سواء أكان ذلك مما يتعلق بفعله أو فعل العباد ودليل هذه المرتبة قوله سبحانه: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾[(٣)] وقوله : ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ**﴾[(٤)] .

---

(١) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال، برقم (١٢٧٣).

(٢) سورة الحج، الآية (٧٠).

(٣) سورة الإنسان، الآية (٣٠).

(٤) سورة القصص، الآية (٨٦).

المرتبة الرابعة: الإيمان بأن الله هو خالق كل شيء وموجده، فلا خالق غيره، ولا رب سواه، ودليل هذه المرتبة قوله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[١].

ومما يشار إليه في الإيمان بالقدر أنه - أي الإيمان بالقدر - لا يعارض أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية وأن له قدرة عليها، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً﴾[٢]، وقال سبحانه أيضاً ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٣].

فالإيمان بالقدر لا يمنع الإنسان من العمل، ولا يصح الاتكال عليه، وقد قال النبي ﷺ: (**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**)[٤]، ثم إن المشاهد أن لكل إنسان قدرةً ومشيئة في بعض الأفعال، فله القدرة على أكل الطعام، وكذلك له القدرة على الصلاة والصوم، ولكن بعض الأشياء ليس له قدرة عليها كحركة القلب والمعدة، فما كان له من القدرة عليه فهو مؤاخذ به، ولكن هذه القدرة والمشيئة واقعة بعد مشيئة الله وإرادته.

هذه أركان الإيمان ذكرتها موجزة مع بيان بعض المهمات، التي بنى عليها أهل السنة والجماعة أصولهم عليها، **ومما يذكر في هذه الأصول:**

---

(١) سورة الزمر، الآية (٦٢).

(٢) سورة النبأ، الآية (٣٩).

(٣) سورة التكوير، الآيتان (٢٨-٢٩).

(٤) رواه مسلم في كتاب: القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، برقم (٢٦٦٤).

أن الإيمان اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالجوارح كما سبق في التعريف، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾ (١) . أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، فسمى الصلاة كلها إيماناً وهي تجمع عمل القلب واللسان والجوارح .

ولذا لا يكتفى بمجرد التصديق القلبي، أو العمل دون نطق مع القدرة عليه - ودون تصديق في القلب كما قالت بذلك بعض الطوائف الضالة .

ومن الأصول أيضاً أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية؛ كما قال تبارك وتعالى: ﴿**وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً**﴾ (٢) .

ومن أصولهم أيضاً أنهم لا يكفّرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، فمن ادعى الإسلام وعمل إحدى الكبائر فهو مسلم عاصٍ لله ناقص الإيمان، مالم يتب بفعل أحد المكفرات ، ودليل ذلك قوله سبحانه وتعالى فيمن قتل آخر عمداً فصار عليه القصاص : ﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ (٣) فقد سمى الله سبحانه القاتل أخاً للمقتول مع أنه ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب .

ولكن هذا الذنب يستحق العقاب، وعقابه أو العفو عنه راجع إلى مشيئة الله تعالى إن شاء غفر له برحمته ، وإن شاء عذبه على قدر معصيته بعدله سبحانه ثم يخرجه من النار .

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٤٣).

(٢) سورة المدثر ، الآية (٣١).

(٣) سورة البقرة، الآية (١٧٨).

ومن أصول أهل السنة والجماعة محبة آل النبي صلى الله عليه وسلم أصحاب النبي ﷺ وسلامة قلوبنا وألسنتنا لهم، ونشر فضائلهم، والكف عن مساويهم وما شجر بينهم، والترضي عنهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾(١).

وقال ﷺ في الحديث الصحيح: (لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أُحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفَه) (٢) فعُلم منه تحريم سب الصحابة رضوان الله عليهم، فهم خير القرون وهم مجتهدون فيما فعلوا وليس بمعصومين من الخطأ، فمن اجتهد وأخطأ منهم فله أجر اجتهاده، ومثل هذا القول يقال في زوجات رسول الله ﷺ وأهل بيته، فقد أثنى عليهم الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (٣).

---

(١) سورة الفتح، الآية (٢٩).

(٢) رواه البخاري في كتاب: فضائل الصحابة، باب: قوله ﷺ: (لو كنت متخذاً خليلاً) برقم (٣٤٧٠)، ورواه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم برقم (٢٥٤٠).

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٣٣).

ثانياً: من مقتضيات التوحيد والإيمان:

أن من آمن بالله سبحانه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، يلزمه أن يصوغ حياته كلها وفق هذا الإيمان، ومن ذلك :

١ - **أن يقوم بعبادته الظاهرة** من صلاة وزكاة وصيام وحج وغيرها لله سبحانه وتعالى، ويحذر من أن يتوجه بها إلى غيره سبحانه .

وكذا العبادات القلبية كالخوف والرجاء والتوكل والاستعانة وغيرها يتوجه بها إلى الله سبحانه وتعالى ويحذر من أن يصرفها لغيره .

٢ - **أن يقوم بأعماله في اليوم والليلة من معاملات** كالبيع والشراء والإجارة، والعمل، وكذا معاملاته المنزلية، وفق شرع الله تعالى، فيحذر أن يخالف تشريع الله سبحانه وتعالى في أموره المالية فيقع في الربا أو أكل أموال الناس بالباطل ، أو الغش والتدليس والحلف الكاذب وغيرها، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [(١)] .

٣ - **أن تكون أخلاقه وفق هدى الله سبحانه وتعالى** متخذاً النبي ﷺ قدوةً له في كل شيء، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ**﴾ [(٢)] ، وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [(٣)] ، وقال تعالى : ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [(٤)].

٤ - **الخضوع لحكم الله تعالى** والرضا بشرعه والتسليم به، وعدم

---

(١) سورة الأنعام ، الآية (١٦٢).

(٢) سورة الأحزاب ، الآية (٢١).

(٣) سورة القلم، الآية (٤).

(٤) سورة آل عمران، آية (١٥٩).

التحاكم إلى غير حكمه، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(١) ، وقال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾(٢) .

٥ - أن يصوغ حياته الأسرية في تعامله في بيته ومع أهله ووالديه وأولاده وفق شرع الله سبحانه، قال تعالى في شأن الوالدين: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾(٣) ، وقال سبحانه في شأن الأهل: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾(٤) وقال النبي ﷺ في معاملته لأهله: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي) وقال سبحانه في شأن الأسرة جميعاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾(٥) .

---

(١) سورة النساء، الآية (٥٩).

(٢) سورة النساء، الآية (٦٥).

(٣) سورة الإسراء، الآية (٢٣).

(٤) سورة النساء، الآية (١٩).

(٥) سورة التحريم ، الآية (٦).

ثانياً: مما ينافي الإيمان والتوحيد:

قد وردت عدد من نصوص القرآن والسنة في بيان ما ينافي الإيمان أو يناقضه أو ينافي كماله، ومن هذه النواقض التي دلت عليها تلك النصوص:

١ - **الشرك**، وهو أن يجعل مع الله شريكاً في ربوبية وألوهية فيصرف العبادة أو نوعاً منها لغير الله تعالى كالدعاء والذبح والنذر وغيرها، أو في أسمائه وصفاته. وهذا الشرك أعظم مبطلات الإيمان، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ [١] وقال تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ**﴾ [٢].

وقد بين أهل العلم أن الشرك قسمان: أكبر مُخرِج عن الملة، وهو ما ذُكر، **وأصغر**، وهو ما يكون وسيلة إلى الشرك الأكبر كالرياء وانحراف مقصد العبادة، قال عليه الصلاة والسلام: (**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا: وما هو؟ قال ﷺ: الرياء**) [٣].

٢ - **الكفر**، وهو الجحود، والمراد به جحد الإيمان بالله ورسله أو مما جاءوا به، وهو أنواع كما بين العلماء ذلك؛ كفر أكبر مخرج عن الإيمان، وأصغر وهو الكفر العملي، وهي سائر الذنوب والمعاصي مع وجود أصل الإيمان.

٣ - **النفاق وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر**، قال تعالى عن

---

(١) سورة النساء، الآية (٤٨).

(٢) سورة المائدة، الآية (٧٢).

(٣) يأتي تخريجه إن شاء الله في الباب (٣).

المنافقين:﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (١) وهذا يسمى النفاق الاعتقادي، أما النفاق الآخر فيسمى النفاق العملي فهو لا يُخرج عن الملة كما جاء في الحديث: (آية المنافق: إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا وعد أخلف)(٢).

٤ - **السحر والكهانة والعرافة** ؛ويجمعها ادعاء علم الغيب والاستعانة بالشياطين في ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ﴾ (٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام : (**من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد**) (٤) .

٥ - **الاستهزاء بالله تعالى أو برسوله ﷺ أو بشرعه وحرماته** ، قال تعالى:﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ* لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ (٥) .

٦- **الحكم بغير ما أنزل الله**، وكذا التحاكم إلى غير شرع الله تعالى قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي

---

(١) سورة البقرة، آية (١٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب: الشهادات ، باب: من أمر بإنجاز الوعد، برقم (٢٤٨٥).

(٣) سورة البقرة، الآية (١٠٢).

(٤) سيأتي تخريجه إن شاء الله في الباب (٢٥) .

(٥) سورة التوبة ، الآيتان (٦٥-٦٦).

أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [١] .

وقال سبحانه : **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾** [٢] فالحكم بما أنزل الله أمر واجب ، **والحكم بغير ما أنزل الله ثلاث حالات:**

الحالة الأولى: أن يستباح الحكم بغير ما أنزل الله، فهذا كفر مُخرِج من الإسلام.

الحالة الثانية: ألا يستباح لهذا الأمر ويُرى أنه محرم، وإنما فُعل لشهوة في نفس أو هوى أو بتأويل، فذلك لا يكفر صاحبه، بل هو صاحب كبيرة مثل السارق والزاني اللذين لا يستبيحان فعلهما ويعلمان بتحريمه ولكنهما يفعلان ذلك لشهوة عندهما .

الحالة الثالثة: أن يحكم بغير ما أنزل الله باجتهاد ولكنه لم يصب الحق، فهذا مأجور على نيته لقوله ﷺ : **(إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر)** [٣] .

٧ - مما ينافي التوحيد أو كماله عامة الذنوب والمعاصي التي نهى الله

---

(١) سورة النساء ، الآية (٦٥).

(٢) سورة المائدة، الآية (٤٤).

(٣) رواه البخاري في كتاب الاعتصام ، باب: أجر الحاكم إذا اجتهد، برقم (٦٨٠٥). وينظر ما كتبه فضيلة الشيخ صالح الفوزان في كتابه (التوحيد وبيان ما يضاده)، وكذلك كتابه: (وجوب التحاكم إلى ما أنزل الله وتحريم التحاكم إلى غيره).

سبحانه وتعالى عنها، سواء كانت من الكبائر أو أصر على الصغائر، كما جاء في الحديث الصحيح : (**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل، والمنان، والمنفق سلعتَه بالحلف الكاذب**) [١] .

وما جاء في الحديث الآخر : (**اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات**) [٢] .

أو ما ذكر الله تعالى فيه وعيداً كالزنا وشرب الخمر والسرقة ، وأكل أموال الناس بالباطل، والتعامل بالربا وعقوق الوالدين ، وقطيعة الأرحام، وغيرها ، فهذه لا شك أنها تقدح إما في أصل التوحيد، وذلك إذا اعتقد حل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله، وإما في كماله وذلك إذا قصّر في الواجبات أو عمل المحرمات مع إقراره بالحكم الشرعي بها .

فعلى العبد أن يحذر تمام الحذر الوقوع في هذه المناقضات والمنافيات لأصل التوحيد أو كماله ، سلمنا الله تعالى وإياكم من الوقوع في المهالك .

---

(١) رواه مسلم في كتاب: الإيمان ، باب: بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالأعطية ، برقم (١٥٤).

(٢) يأتي تخريجه إن شاء الله في الباب (٢٣) .

ثالثاً: من فضائل التوحيد وثمراته:

لا شك أن الخير كله في الدنيا والآخرة مبني على تحقيق الإيمان في القلب، وتعميق التوحيد، فمحقق التوحيد جمع خيري الدنيا والآخرة، ومن ذلك الخير:

١ - **محقق التوحيد يحقق الغاية التي من أجلها خلق الله تعالى الخلق،** وأوجد الثقلين، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ**﴾[١] .

٢ - **محقق التوحيد يحقق الغاية التي من أجلها أرسل الله تعالى الرسل،** وأنزل الكتب ، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[٢] ، وقال سبحانه : ﴿**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ**﴾[٣] .

٣ - **محقق التوحيد يستحق له دخول الجنة والنجاة من النار،** فقد جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: (**فإن الله قد حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**)[٤].

٤ - **أن قبول الأعمال متوقف على صحة التوحيد،** ووجود الإيمان في القلب، فمتى كان العبد موحداً قُبِل عمله، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ**

---

(١) سورة الذاريات ، الآية (٥٦).

(٢) سورة النحل، الآية (٣٦).

(٣) سورة هود، الآيتان (١-٢) .

(٤) يأتي تخريجه إن شاء الله في الباب الأول.

الْمُتَّقِينَ﴾ [١] وقال سبحانه : **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [٢] .

٥ - أن الحياة الطيبة، والعيش السعيد مبني على هذا الإيمان، قال تعالى: **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [٣] وقال تعالى: **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾**[٤] .

فهل يعي أصحاب القلق والاكتئاب ، والاضطراب ، وسائر الأمراض النفسية هذا المعنى العظيم!؟

٦ - أن تنفيس الكربات ، وحل الأزمات، وتفريج الهموم والأحزان مبني على هذا الإيمان، والتوحيد، قال تعالى: **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾** [٥] .

٧ - أن التوحيد من أسباب سعة الرزق، ورغد العيش، قال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾** [٦] .

وقال تعالى : **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا**

---

(١) سورة المائدة، الآية (٢٧).

(٢) سورة النحل ، الآية (٩٧).

(٣) سورة النحل ، الآية (٩٧).

(٤) سورة الرعد، الآية (٢٨).

(٥) سورة الطلاق، الآيتان (٢-٣).

(٦) سورة الأعراف، الآية (٩٦).

يَحْتَسِبُ ﴾[1] .

وغير ذلك من الآثار العظيمة في الدنيا والآخرة ، فحري بالمسلم أن يجدد توحيده لله سبحانه، وأن يتعاهده ألا يخلق ويصدأ .

رابعاً: الأسباب التي تنمي التوحيد وتقوي الإيمان:

لا شك أن كل طاعة لله تعالى تنمي التوحيد وتزيده في القلب سواء كانت فريضة أو نافلة، وسواء كانت عملاً قلبياً أو لسانياً، أو عملاً بالجوارح، ومما يخص بالذكر ما يلي:

١ - **استشعار عظمة الخالق سبحانه وتعالى وقدرته العظيمة**، حيث يقول للشيء كن فيكون، بيده مقاليد الأمور كلها، فإذا استشعر العبد ذلك عظّمه في نفسه، فأدّى أوامره، واجتنب نواهيه ، ووقف عند حدوده ، يرجو رحمته ، ويخشى عقابه ، ولذلك كثرت الآيات في كتاب الله جل وعلا التي تبين عظمة الله تعالى وقوته، وجبروته، وسعة علمه، وإحاطته بكل شيء.

٢ - **القيام بالفرائض من الطاعات**، فهي من أعظم ما يحبه الله جل وعلا من الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الواجبات، كما جاء في الحديث القدسي : (**وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه...**)[2] الحديث ، ولذا فمن فعل ما يحبه الله تعالى أحبه الله تعالى ، ومن أحبه الله كان من أولياء الله تعالى .

٣ - **العمل بالنوافل**، سواء كانت نوافل الصلاة أو الزكاة أو الصيام أو

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان (٢-٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب: الرقاق ، باب: التواضع برقم (٦٠٢١).

الحج أو العمرة أو غيرها، فكلما زاد العبد من هذه النوافل زاد ت محبة الله تعالى له ، وكان من أوليائه المقربين كما جاء في الحديث القدسي السابق: (**وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...**) .

٤ - **ترك الذنوب والمعاصي** التي تكون نقطاً سوداء في قلب المؤمن، فيضعف إيمانه، وقد حذر الله سبحانه من الوقوع فيها، وتوعد أصحابها بأشد الوعيد.

٥ - **العلم الشرعي الذي أعلا الله تعالى مكانته** ، ورفع شأن أهله وجعلهم أهل خشيته، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ (١) فالعلم يدل على الله تعالى، ويوصل إلى معرفته فيقوي إيمان صاحبه.

٦ - **التفكر في مخلوقات الله تعالى الدالة على عظمته وقدرته**، ولا شك أن من يتدبر خلق الله جل وعلا يدرك عظمته فيعلو إيمانه، ويتعمق توحيده لله سبحانه، ومن تدبر قدرته سبحانه على خلق السموات وما فيهن، والأرضين وما فيهن وما بينهما، علم أنه الإله المعبود بحق فيعبده حق عبادته.

---

(١) سورة فاطر ، الآية (٢٨).

خامساً: موضوع كتاب التوحيد، ومنهج المؤلف فيه:

كتاب (التوحيد الذي هو حق الله على العبيد) كتاب واضح من عنوانه في موضوعه الذي هو بيان التوحيد، الواجب على جميع العباد حقاً لله سبحانه وتعالى، قسّمه مؤلفه - رحمه الله - إلى أربعة وستين باباً، كل باب يحتوي على مسألة من مسائل التوحيد.

وقبل بيان منهجه التفصيلي، يحسن بنا أن نشير إلى ما سبق بيانه من أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: **الأول توحيد الربوبية** والذي يعني بتوحيد العبد لربه بأفعال الرب سبحانه وتعالى، وذلك بأن يقر بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المتصرف الذي بيده ملكوت كل شيء، يقول للشيء كن فيكون، مالك الملك، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وقد تكاثرت الأدلة على بيان هذا التوحيد.

والثاني: توحيد الألوهية أو توحيد العبادة، وهو توحيد العبد لربه بأفعال العبد نفسه فيتجه في جميع أنواع العبادة كلها لله تعالى، فلا يدعو إلا الله، ولا يستغيث إلا بالله، ولا يصلي إلا لله، ولا يتكل إلا على الله، ولا يزكي إلا لله، ولا يلجأ في السراء والضراء إلا إلى الله.. وهكذا متمثلاً قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**[1].

---

(١) سورة الأنعام، الآية (١٦٢).

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات، فالله تعالى سمى نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات، وهكذا أيضاً رسوله ﷺ سمّى ربه ووصفه بأسماء وصفات.

فيوحد العبد ربه بالإقرار بهذه الأسماء والصفات بأنها لله تعالى، ويثبتها كما أثبتها لنفسه تعالى وكما أثبتها له رسوله ﷺ كما يليق بجلاله وعظمته، مع بيان معانيها دون الدخول بكيفيتها، ومن غير تشبيه له بخلقه أو تمثيل له، ومن غير تعطيل لمعانيها أو إنكارها، على حد قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ (١).

فالمصنف رحمه الله نظر إلى هذه الأقسام فوجد أن أكثر الخلق يقرون بتوحيد الربوبية حتى كثير من الكفار كما كان من كفار الجاهلية الأولى. بينما وقع الإشكال كلياً أو جزئياً في التوحيد الثاني الذي هو المقصود من خلق الخلق وإرسال الرسل وإنزال الكتب، ثم وقع الإشكال في قسم التوحيد الثالث الذي وقعت فيه كثير من الفرق والطوائف.

فالمؤلف رحمه الله ركز في هذا الكتاب على قسم التوحيد الثاني للحاجة الماسة إلى بيانه وتوضيحه بالدليل، فجاء بنحو مفصّل مبسط.

والكتاب – بعد النظر والتأمل – نجد أنه في الجملة على تقسيمات ثلاث:

١ – **تقرير التوحيد في بيانه وتفسيره الشهادتين** وفضلهما وآثارهما وهذا أخذ جملة أبواب.

٢ – **في بيان شيء من مقتضيات هذا التوحيد على التفصيل**

---

(١) سورة الشورى، الآية (١١).

كالاستعانة والاستغاثة والخوف والرجاء والمحبة والشكر والصبر وما يتعلق بها . وقد أفاض في بيان هذه المقتضيات بعدة أبواب .

٣ — **في بيان شيء من نواقض التوحيد**، كالسحر والكهانة والعرافة والتطير والاستهزاء بالله تعالى أو برسوله أو شرعه والحكم بغير ما أنزل الله ، وتقديم طاعة المخلوقين على طاعة الله، واتخاذ القبور مساجد، والإلحاد في أسماء الله تعالى، والحلف بغير الله ونحو ذلك، وقد اشتملت هذه القضايا على عدة أبواب.

فجاء كتاباً فريداً متميزاً في بابه .

أما منهجه في الباب الواحد، فهو يذكر رحمه الله عنواناً لكل باب بما يدل على الباب نفسه كأن يقول : باب فضل التوحيد، أو يذكر آية تدل على موضوع الباب كأن يقول باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿**يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا**﴾ [1] ونحو ذلك.

ثم يذكر ما يتيسر تحت الباب الواحد من الآيات أو الأحاديث الدالة على معناه، ومن النادر جداً أن يذكر شيئاً من كلامه، فيكاد الكتاب أن يكون كله مجموعة من الآيات والأحاديث .

ومن هنا يزداد عجبك عندما تسمع من يقدح فيه وهو بهذه الكيفية فكأن القادح يقدح في القرآن أو السنة .

أما ما يذكر من مسائل الباب بعد كل باب وفيها تلخيص للمسائل المستنبطة من الباب، فاختلف أهل العلم هل هي من صنعه أم من صنع من

(١) سورة النحل، الآية (٨٣).

بعده من العلماء؟ وسواء قلنا بهذا الرأي أو ذاك، فهي تلخيص لمسائل كل باب.

ومن هنا فقد امتاز هذا الكتاب العظيم بجملة ميزات عظمى من أهمها:

١ - تركيزه على موضوعه وحسن بيانه فيه.

٢ - تفصيله فيه .

٣ - وضوحه .

٤- سهولته وعدم تعقيده، وعدم دخوله في علم الكلام ومسائله التي أذهبت نقاوة التوحيد وعكرت صفاءه .

ولعل هذه الميزات بعد توفيق الله تعالى جعلت لـه القبول منذ تأليفه ، وتوالى أهل العلم على شرحه وبيانه ونشره حتى يومنا الحاضر.

❖ ❖ ❖

التعريف بالمؤلف

اسمه ونسبه ومولده:

هو شيخ الإسلام في زمانه محمد بن عبدالوهاب بن سليمان بن علي ابن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن مشرف بن الوهب من قبيلة تميم .

وقد وُلِدِ الشيخ محمد - رحمه الله - في سنة ١١١٥هـ في بلدة العيينة، وهي من قرى نجد، ونشأ وترعرع فيها .

طلبه للعلم:

كان الشيخ محمد بن عبدالوهاب من أسرة عُرِفت بالعلم، فقد كان أبوه قاضياً في العيينة وحريملاء، وجده سليمان كان من علماء نجد المعروفين وتولى قضاء العيينة أيضاً ، وكذا أعمامه إبراهيم وأحمد، وخاله الشيخ سيف ابن محمد بن عزاز.

وقد ساعدت هذه البيئة في ارتباط الشيخ محمد بالعلم والعلماء، فقد حفظ القرآن وهو في العاشرة من عمره، وأخذ مبادئ الفقه الحنبلي من والده. وسافر الشيخ - رحمه الله - لطلب العلم إلى مكة والمدينة والتقى بعلمائهما وأخذ منهم؛ كالمحدث عبدالله بن سالم البصري والشيخ محمد حياة السندي والشيخ عبدالله بن إبراهيم بن سيف .

كما رحل الشيخ إلى العراق وبالتحديد إلى البصرة، ولازم عدداً من علمائها، ومنهم الشيخ محمد المجموعي البصري ، كما ذهب الشيخ إلى

الأحساء والتقى بالشيخ عبدالله بن محمد بن عبداللطيف الأحسائي.

وقد أخذ الشيخ في رحلاته هذه علوماً عديدة منها: التفسير والحديث وعلوم اللغة العربية، كما استفاد من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى، التي تعتمد على الدليل الصحيح، وهذا ما زاده علماً وبصيرة وفهماً .

وقد كانت منطقة نجد في زمن الشيخ تعج بكثير من البدع والشركيات، من تعظيم القبور والغلو في الصالحين والنذر لغير الله والاعتقاد في بعض المسميات ، وكان غالب العلماء فيها يشتغلون بالمسائل الفقهية، وكان لجهود الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله الأثر البالغ في إزالة البدع والشركيات واهتمام طلبة العلم بالفقه الأكبر .

وكان لاطلاعه رحمه الله على البدع والشركيات في أثناء تنقله لطلب العلم الأثر الكبير في اتجاه الشيخ إلى الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى وإفراده بالعبادة وأن لا يعبد الله إلا بما شرع .

ميزات دعوة الشيخ :

لقد امتازت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - بعدة ميزات كانت سبباً بعد توفيق الله سبحانه لقبول دعوته من عامة الناس، ومن هذه الميزات:

١ - **الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وإفراده بالربوبية والألوهية وأسمائه وصفاته** ، وهذا الأصل الذي ابتدأ به رسول الله ﷺ دعوته بمكة، وأن الإله واحد ويجب إفراد العبادة له، ولهذا لما أرسل ﷺ معاذاً إلى أهل اليمن أمره

أن يـدعوهم إلـى شـهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمـداً رسـول الله ، وإذا صـح التوحيد وكمل صحت سائر فروع الدين، وهذا الأصل ظاهر في مؤلفات الشيخ محمد وفي رسائله ومخاطباته .

٢ - **أنه اعتمد في دعوته وتأليفه على الوحيين**: الكتاب والسنة، فتجد كتبه مليئة بالاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدعو للتوحيد، وقد تجد الكتاب كاملاً يشتمل على الآيات والأحاديث ككتاب التوحيد، وفيه شيء من حسن الاستنباط والاقتباس والاستدلال لهذه الأبواب التي يعرف المطلع فقه الشيخ وضلعه في العلم.

٣ - **كما امتازت دعوة الشيخ - رحمه الله - على الوضوح واليُسر**، فهي بعيدة كل البعد عن التعقيد والغموض والتكلف، وأن المطلوب هو توحيد الله، وهذه هي دعوة الرسول ﷺ يفهمها عامة الناس.

٤ - **كما امتازت دعوة الشيخ رحمه الله بالحكمة وحسن العرض** وعدم المصادمة مع الناس، فعرض دعوته على بعض الأفراد حتى وجد المناخ المناسب ليستقر فيه، وما استُخِدمت الحكمة في الدعوة إلى الله عز وجل إلا ويكون لها القبول بإذن الله.

تلاميذه:

لقد تتلمذ على الشيخ نخبة من العلماء ، كان لهم جهود واضحة في الدعوة إلى التوحيد منهم: أبناء الشيخ عبدالله وحسين وعلي وإبراهيم، وحفيده عبدالرحمن بن حسن، والشيخ حمد بن ناصر بن معمر، والشيخ حسين بن غنام، والشيخ عبدالعزيز الحصين، والشيخ عبدالعزيز بن سويلم،

والشيخ حسن بن عيدان، وغيرهم كثير .

مؤلفاته:

قد حرص الشيخ - رحمه الله - على التأليف وكذا التهذيب لكتب العلماء، فألف وصنف عدداً منها كان لها القبول بين العلماء ، وقد كان حريصاً على الاختصار والتركيز ، لتقطف ثمارها بأن يسهل حفظها وفهمها، ويترك ما لا ثمرة منه، ومن هذه المؤلفات:

١- كتاب التوحيد، وهذا أشهر كتبه وأنفعها، وهو ما نحن بصدد شرحه .

٢- كشف الشبهات.

٣- ثلاثة الأصول.

٤- مسائل الجاهلية .

٥- أحاديث الفتن.

٦- الكبائر .

٧- مختصر السيرة النبوية .

٨- مختصر زاد المعاد.

٩- مختصر الإنصاف والشرح الكبير.

١٠- آداب المشي إلى الصلاة .

١١- أصول الإيمان .

وقد حرص العديد من العلماء على شرح هذه الكتب ، واستفاد منها كثير من طلبة العلم، وقد جمعت مؤلفات الشيخ ورسائله في عدة مجلدات،

أشرف على جمعها وطباعتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

وفاته:

توفي الشيخ - رحمه الله - سنة ١٢٠٦هـ بعد مرض ألمّ به لم يمهله طويلاً، وقد رثاه كثير من الشعراء ، فرحم الله الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأسكنه فسيح جناته، وجمعنا الله وإياه في الفردوس الأعلى، إنه سميع قريب مجيب (١) .

---

(١) ينظر: علماء نجد خلال ستة قرون، للشيخ عبدالله البسام (١/٢٥).

كتاب التوحيد
الذي هو حق الله على العبيد
[الشرح والتعليق]

كتاب التوحيد

وقول اللهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣- ٢٤] الآية. وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ الآية [النساء: ٣٦].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ الآيات [الأنعام: ١٥١ -١٥٣].

قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «**مَنْ أَرادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتي**

عَلَيْها خَاتمُهُ فَلْيَقْرأ قَوْلَهُ تَعَالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ **إلى قوله تعالى:** ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾[١] الآية [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

وعن معاذِ بنِ جبلٍ - رضي الله عنه - قال: كُنْتُ رَديفَ النَّبيّ ﷺ على حمارٍ، فَقَالَ لِي: «**يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟**» قُلتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوه ولا يُشركُوا بِهِ شَيْئاً، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لا يُعَذّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلاَ أُبَشِّرُ النَّاسَ ؟ قَالَ: «**لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**» أخرجاهُ في الصحيحين[٢].

الوقفة الأولى:

لم يذكر المصنف اسماً لهذا الباب، وإنما جعله باسم الكتاب نفسه (كتاب التوحيد)، ثم ذكر مجموعة من الآيات الدالة على تقرير التوحيد على الناس، افتتحها بقوله تعالى:﴿**وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون**﴾.

وأراد -رحمه الله- من هذا الباب أن يقرر التوحيد بذكر هذه المجموعة من الآيات مع حديث معاذ رضي الله عنه .

فهذه النصوص وغيرها تفيد أن أول واجب على العبد المكلف هو **توحيد الله تعالى**، فيجب على المكلف أن يؤمن بهذا التوحيد إيماناً عميقاً فهو أول وأهم الواجبات التي تبنى عليها سائر أمور الحياة.

---

(١) تفرد به الترمذي (رقم ٣٠٧٠) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٢٨) ومسلم (رقم ٣٢).

وإذا اعتقد المسلم هذا الاعتقاد وسار عليه فلا شك أن لهذا الاعتقاد آثاراً عليه في الدنيا والآخرة، فمن آثاره في الدنيا: الحياة المطمئنة وفي الآخرة: الوصول إلى الجنة، وإلى رضوان الله سبحانه وتعالى .

ومن مات وكان آخر كلامه ﴿**لا إله إلا الله**﴾ - كما صح في الحديث - دخل الجنة وفي رواية: (**حرم وجهه على النار**)[1] .

الوقفة الثانية : قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾.

﴿وما خلقت﴾: **الخلق**: هو الإيجاد .

﴿الجن﴾: من الجنة وهي الاستتار، فالجن خلق مستورون لا يراهم الناس، وهم يرون الناس، ولكنهم أيضاً مكلفون .

﴿**الإنس**﴾: من الاستئناس فيأنس بعضهم ببعض، ولذلك سموا بهذا الاسم .

والطائفة من الناس سواء في زمان أو في مكان يسمون : إنساً.

﴿**الطاغوت**﴾: في الأصل هو الشيطان ويُعَرِّفُهُ ابن القيم –رحمه **الله**– بقوله: (ما جاوز العبد حده من متبوع أو معبود أو مطاع).

(قضى): أوجب وفرض.

(تعالوا): هلموا وأقبلوا .

(أتل): أقرأ وأقص .

---

(١) يأتي تخريجه في الباب الأول.

الوقفة الثالثة :

عرَّف شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- العبادة بأنها: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)(١) .

فهي تعم كل شيء مما يحبُّهُ الله جل وعلا سواء كان أمراً كبيراً كالتوحيد أو ما هو أقل من ذلك، وهذا يشير إلى أمور:

الأول: شمولية العبادة لأفعال الإنسان وأقواله، وهذا يفترق فيه ديننا الإسلامي الحنيف عن غيره، فالإسلام لا يفصل بين علاقة الإنسان بالله جل وعلا وبين سلوكياته الأخرى فهي كلها من عبادة الله جل وعلا .

الثاني: يبين لنا المفهوم الخاطئ الذي يظنه بعض الناس من الفصل بين علاقة الإنسان بربه تعالى وبين أمور الحياة كلها ويظن أن الدين والعبادة مقتصرة على أركان الإسلام، أما الباقي فليس من شأن العبادة، وهذا مفهوم خاطئ، فالصحيح كما ذكر في الأمر الأول أن العبادة شاملة لحياة الإنسان، سواء كانت هذه الحياة حياة فردية بمعنى سلوك الإنسان الفردي أو السلوك الجماعي الذي هو سلوك لنظام حياة الناس بعضهم مع بعض، ومنها: الحياة المالية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية كلها داخلة في العبادة في دين الله عز وجل .

وجاء توضيح هذا المعنى في نصوص كثيرة منها أن الرسول ﷺ يحدث الصحابة عن هذا المعنى فقال عليه الصلاة والسلام: (**وفي بضع أحدكم صدقة**) فقالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟

---

(١) كتاب العبودية (١).

قال: (**أرأيتم إن وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**)[١].

فالمقصود أن المسلم بهذا المفهوم يحتسب الأجر من الله تعالى في كل عمل يقوم فيه في هذه الحياة، وهذا من فضل الله عز وجل وهذه هي العبادة.

والفرق بين العبادة وتوحيد العبادة أن توحيد العبادة هو توجيه هذه العبادة لله عز وجل والخضوع له سبحانه وتعالى، فإذا أرادها لله وغيره أخلّ بهذا التوحيد، أما العبادة فهي الفعل نفسه.

الوقفة الرابعة :

قوله تعالى: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه**﴾ .

(قضى) هنا بمعنى أوجب وألزم وفرض .

والقضاء بالنسبة لله تعالى يأتي بمعنيين:

الأول: القضاء الشرعي بمعنى شرع هذا الأمر .

الثاني: الكوني القدري .

والفرق بينهما: أن القضاء الكوني القدري متحقق الوقوع لا محالة، مثل قضاء الله سبحانه وتعالى بأن السموات سبع، وبأن الشمس ساطعة تطلع شرقاً وتغيب غرباً .

وأما القضاء الشرعي فقد يقع وقد لا يقع، مثل حكم الله سبحانه

---

(١) رواه مسلم في كتاب: الزكاة باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف برقم "١٠٠٦".

وتعالى بأن الربا حرام، ومع ذلك نجد بعض الناس يتعامل به مع أنه محرم . فهو راجع إلى استجابة العبد.

الوقفة الخامسة :

قوله تعالى: ﴿**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم**﴾ .

هذه الآية يسميها بعض أهل العلم بآية الوصايا؛ لأنها اشتملت والآية التي بعدها على عشر وصايا .

قال الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم**﴾، يقول للرسول الله ﷺ : قل يا محمد للناس: أقبلوا لكي أقرأ عليكم ما حرمه ربكم جل وعلا لأجل أن تجتنبوه .

وأشد هذه المحرمات الشرك بالله جل وعلا، وهذا موضع الشاهد . وهو هنا يعم الشرك الأكبر المخرج عن الملة والشرك الأصغر ولو كان يسيراً .

فهذا أعظم المحرمات، وأشد المنهيات، وأهم ما يجب على الإنسان الحذر منه.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى مجموعة وصايا في هذه الآية التي تشمل الإحسان إلى الوالدين، وعدم قتل الأولاد، والابتعاد عن الفواحش، وكذلك تحريم قتل النفس التي حَرَّمها الله إلا بالحق، وعدم قرب مال اليتيم الذي مات أبوه وخلف له شيئاً من المال، ووجوب إيفاء الكيل والميزان، والبعد عن بخس الناس حقوقهم، والعدل في القول، والوفاء بالعهد، وخَتَمَ الله هذه الوصايا بالسير على الطريق المستقيم، بأن يجب على المسلم أن يسير على

المنهج الذي أراده الله تعالى وبعث به محمداً ﷺ .

والشاهد من هذه الآية:

بيان الله سبحانه وتعالى أن أعظم المحرمات هو الشرك بالله سبحانه وتعالى؛ فمن لازم تحقيق العبودية لله تعالى الحذر من هذا الشرك.

الوقفة السادسة :

الشرك نوعان:

الأول: شرك مخرج عن الملة وهو الشرك الأكبر، وهو أنواع مثل: صرف العبادة لغير الله، أو التوسل بغير الله تعالى قاصداً هذه العبادة بهذا التوسل . وكعبادة القبور والأشجار والأصنام وغيرها.

الثاني: شرك أصغر، وذلك مثل يسير الرياء، وسمي أصغر بالنسبة للأكبر، وإلا فهو من أكبر الكبائر، والضابط في هذا الشرك أنه وسيلة إلى الشرك الأكبر مثل: يسير الرياء، والفرق بينهما أن الأكبر يخرج صاحبه من الملة، وهو خالد مخلد في النار، ويعامل في الدنيا معاملة الكافر، أما الأصغر فليس مخرجاً من الملة وتحت مشيئة الله تعالى إن شاء غفر له أو عذبه بقدر معصيته، ويعامل في الدنيا معاملة المسلمين.

الوقفة السادسة :

ذكر المصنف - رحمه الله - حديث معاذ ﷺ .

ومعاذ بن جبل ﷺ من فقهاء الصحابة، أرسله النبي ﷺ إلى أهل اليمن ليعلمهم ويرشدهم ويدعوهم إلى هذا الدين .

- يقول معاذ: (كنت رديف النبي ﷺ على حمار) وهذا فيه دلالة على

تواضع النبي ﷺ حيث يركب هذه الدابة ويردف معه شخصاً آخر من الصحابة .

- فقال لي : (**يا معاذ: أتدري ما حق الله على العباد وحق ما العباد على الله ؟**) هذا فيه إشارة إلى استغلال الفرص في التربية ، فالرسول ﷺ يستغل هذه الفرصة مع معاذ رضي الله عنه ليوصل له أعظم المهمات في هذه الدنيا، فيوجه له هذا السؤال : "أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله"؟ .

يقول: قلت: الله ورسوله أعلم، فمعاذ هنا نسب العلم إلى الله وإلى رسوله ﷺ تواضعاً منه وطلباً للفائدة؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يسأله هذا السؤال إلا ليوصل له فائدة مهمة كبيرة، فقال: (**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً**) .

قال هنا: (حق) والحق يطلق على الواجب والمتأكد على المسلم أن يقوم به، فحق الله يعني ما يجب لله جل وعلا على عباده وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً فيتوجهوا بأقوالهم وأفعالهم الظاهرة والباطنة له سبحانه وتعالى، وأن يمشوا على المنهاج الذي أراده الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾(١) .

- قال: (**وحق العباد على الله**) هنا سؤال، هل للعباد حق على الله ؟

لا ليس للعباد حق على الله، إنما هذا من باب التفضل والإكرام

---

(١) سورة المائدة ، الآية(٣)

والمنة والنعمة من الله سبحانه وتعالى أن من يقوم بعبادة الله وعدم الإشراك به يستحق أن يمنح بأن لا يعذبه الله في الآخرة، فلا يعذب من لا يشرك به شيئاً، وهذه منحة من الله سبحانه وتعالى وجائزة عظيمة بل أعظم جائزة يستحقها المسلم بهذه العبادة .

فوجه الشاهد من هذا الحديث: هو التأكيد على حق الله جل وعلا، وهذا الحق هو عبادة الله وعدم الإشراك به .

- قال معاذ: "أفلا أبشر الناس؟" يستأذن من النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ لا تبشرهم فيتكلوا عن العمل، ولكن معاذاً رضي الله عنه أخبر بهذا الحديث عند موته تأثماً بعدما خشي من الإثم بعدم البلاغ وعدم إيصال هذا العلم إلى الناس .

الوقفة السابعة :

خلاصة ما ورد في هذا الباب من تقرير التوحيد هو:

أولاً: أن الحكمة من خلق الإنسان والجن هي عبادة الله سبحانه وتعالى.

ثانياً: أن هذه هي الحكمة من إرسال الرسل أيضاً.

الثالث: أن هذه الحكمة التي من أجلها خلق الناس وأرسل الرسل هي أعظم الواجبات على الإنسان في هذه الدنيا .

رابعاً: التلازم بين عبادة الله جل وعلا وترك عبادة غيره، فَمِن لازِمِها: اجتناب الطاغوت بمعنى عدم الشرك بالله تعالى وعدم صرف النية في هذه الأعمال لغير الله جل وعلا .

خامساً: معرفة أن لله سبحانه وتعالى حقاً على الناس، هذا الحق يتمثل في عبوديته الله جل وعلا وعدم الشرك به سبحانه وتعالى .

سادساً: أن من قام بحق الله سبحانه وتعالى فله النجاة يوم القيامة، وهذا تفضل من الله سبحانه وتعالى .

بهذه النقاط الست جمع ما أراده المصنف -رحمه الله- من تقرير هذا الموضوع الذي افتتح به هذا الكتاب .

***   ***   ***

١ـ باب
فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

وقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢]

عن عبادةَ بنِ الصامِتِ - رضي اللهُ عنه - قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ. وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»**(١) أخرجاه. ولهما في حديث عِتْبانَ: **«فإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، يَبْتَغِي بِذلِكَ وجْه اللهِ»**(٢).

وَعَنْ أَبِي سعيدٍ الخُدريِّ – رضي اللهُ عنه -: عن رسول الله ﷺ قالَ: **«قالَ مُوسى: يَا رَبِّ عَلِّمْني شَيْئاً أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ. قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لا إِلَه إِلاَّ اللهُ، قال: يَا رَبِّ كُلُّ عِبادِكَ يَقُولُونَ هَذَا، قَالَ: يَا مُوسَى لَوْ أَنَّ السَّمواتِ السَّبْعَ وَعامِرَهُنَّ غَيْري، والأَرَضينَ السَّبْعَ في كفَّةٍ، وَلا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ في كِفَّةٍ، مَالتْ بِهِنَّ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ»**(٣) رواه ابنُ حِبَّانَ والحاكِمُ وصَحَّحه. وللترمذيّ وحسَّنه عَنْ أنسٍ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٣٥) ومسلم (رقم ٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٥) ومسلم (رقم ٢٦٣/٣٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٣) أخرجه أبو يعلى (رقم ١٣٩٣) والحاكم (٥٢٨/١-٥٢٩) وأبو نعيم في الحلية (٣٢٧/٨-٣٢٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة (رقم ٨٣٤) . وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٠٨/١١): أخرج النسائي بسند صحيح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ : «قال موسى: يا رب... » وذكر الحديث.

- رضي اللهُ عنه - سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**قَالَ اللهُ تَعالى: يا ابن آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَني بِقُرابِ الأَرْضِ خَطايَا ثُمَّ لَقِيتَني لا تُشْرِكُ بي شَيْئاً لأَتَيْتُكَ بِقُرابِها مَغْفِرَةً**»(١).

الوقفة الأولى:

في بيان الغريب من الألفاظ التي وردت في نصوص الباب.

(ولم يلبسوا): ولم يخلطوا.

(ألقاها إلى مريم): أي وجهها إلى مريم .

(وروح منه): أي صار جسده عليه السلام بالكلمة فنفخت فيه هذه الروح وهي من الله .

(أدخله الله الجنة): دخول الجنة إما دخول لا يسبقه عذاب، أو دخول يسبقه عذاب في النار لمن أنقص العمل الصالح وأكثر من السيئات.

(مالت): رجحت.

(عامرهن): ساكنهن.

(بقراب الأرض): أي ما يقاربها .

(خطايا): جمع خطيئة وهي الذنب.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٤٠) والدارمي (رقم ٢٧٩١) وأحمد (١٧٢/٥) وحسنه الألباني في صحيح الجامع وفي السلسلة الصحيحة (رقم ١٢٧). وأخرج مسلم بلفظ: «يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر. ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً. ومن أتاني يمشي أتيته هرولة. ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة» أخرجه مسلم (رقم ٢٦٨٧).

الوقفة الثانية :

ذكر المصنف هذا الباب بعد ذكر التوحيد وأهميته ووجوبه على الخلق ليبين عظم فضل هذا الواجب الذي من قام به استحق الجنة، وأنقذ من النار فلا يدخلها أولا يخلد فيها.

بدأ بقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [**الأنعام:٨٢**].

لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الصحابة فقالوا: أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبي ﷺ إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿**يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان:١٣] إنما هو الشرك. **فالظلم ثلاثة أنواع:**

١ - **أظلم الظلم** أن يشرك الإنسان مع الله غيره في العبادة؛ كأن يدعو مع الله أو يدعو غير الله؛ فيطلب من صاحب قبر أن يرزقه أو يحل مصيبته وغير ذلك مما هو من الشرك . هو المراد من الآية .

٢ - **ظلم الإنسان نفسه** بأن يصوم فلا يفطر أو يقوم فلا ينام، ويدخل في هذا أن يظلم نفسه بالذنوب والمعاصي . وهذا مراد الصحابة.

٣ - **ظلم الإنسان لغيره** بالاعتداء عليه بالقتل أو أخذ المال بغير وجه حق.

والمقصود في الآية هو النوع الأول، ويشمل النوع الثاني

بالتبعية، وعليه فيجب أن يتنبه المسلم للابتعاد عن هذا الظلم العظيم.

الوقفة الثالثة : "لا إله إلا الله" معناها وفضلها وشروطها.

معنى لا إله إلا الله، لا معبود بحق إلا الله، فالإله هو المعبود المطاع كما قاله ابن تيمية رحمه الله، ولابد من تقييد المعبود بكلمة (حق)؛ لأن المعبودات سوى الله كثيرة، لكن المعبود بحق هو الله سبحانه.

ويظهر في هذا خطأ من قال: معنى الإله الخالق، فيجعل معنى لا إله إلا الله أي لا خالق إلا الله، وهذا في الحقيقة جزءٌ من معنى لا إله إلا الله، بل لو كان هذا المراد منها لكان كفار و مشركو مكة مؤمنين؛ لأنهم يعترفون أن الله هو الخالق، ولكن المعنى الصحيح هو ما سبق ذكره .

وقد جاء في فضلها نصوص كثيرة ذكر المصنف رحمه الله بعضاً منها، وأورد هنا بعض ما ورد في فضلها، فمنها قول النبي ﷺ : (فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله).

ومنها حديث صاحب البطاقة حيث رجحت كفة الميزان التي فيها البطاقة ، وهي الشهادتان ، بالكفة التي فيها تسع وتسعون سجلاً من السيئات[١] ، وفي حديث الشفاعة ، أن الله يأمر أن يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال دينار من إيمان [٢] .

---

(١) رواه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، برقم (٢٥٦٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٣٥).

(٢) رواه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، برقم (٦٨٨٦).

وأما شروطها فأولها: العلم بمعناها، واليقين بها، وأن يخلص لله بها، والصدق في قولها، والمحبة لها، والانقياد لما تقتضيه، والقبول بأن يتقبل كل ما جاء من أمر الله ويعمل به.

الوقفة الرابعة :

حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال النبي ﷺ: قال موسى : "**يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به**" الحديث.

قول موسى : "**يا رب كل عبادك يقولون هذا**" المراد من قوله أنه أراد من الله أن يعلمه ذكراً يخصه به، كما جاء في بعض روايات الحديث، وليس المراد أنها كلمة هينة. وكيف تكون كذلك، وهو النبي المرسل، بل من أولي العزم من الرسل.

وهذا الحديث يدل دلالة عظيمة على فضل هذه الكلمة؛ لأن الله سبحانه وتعالى أجاب موسى عليه السلام بهذه الإجابة القوية المتضمنة أن (لا إله إلا الله) ترجح بالسموات السبع والأرضين السبع.

الوقفة الخامسة:

دل حديث أنس ﷺ على عدة أمور مهمة منها:

١- أن من مقتضى: لا إله إلا الله. عدم الشرك بالله عز وجل لأنه قال: ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً.

٢- أن من أسباب معفرة الله تعالى لذنوب العبد قول: لا إله إلا الله، بشروطها ومنها: عدم الشرك بالله عز وجل. ولو كانت هذه الذنوب ملء الأرض.

٣- سعة فضل الله تعالى ورحمته بعباده أن جعل التوحيد سبباً لمغفرة الذنوب ولو كانت كثيرة.

٢ ـ بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠]. وقال: " ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون: ٥٩].

عن حُصينِ بنِ عبدِ الرحمنِ قال: كنتُ عندَ سعيدِ بنِ جُبيرٍ فقالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أنا ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ في صَلاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ: فَما صَنَعْتَ؟ قُلتُ: ارْتَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ. قَالَ: وَما حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنا عَنْ بُرَيْدَةَ بنِ الحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: «لاَ رُقْيَةَ إلاَّ مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»[1]. قالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَن انْتَهَى إلى ما سَمِعَ وَلَكِنْ حَدَّثَنا ابنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**عُرِضَتْ عَليَّ الأُمَمُ، فَرَأَيتُ النَّبيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، والنَّبي وَمَعَهُ الرَّجُلُ والرَّجُلانِ، والنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ. إِذْ رُفِعَ لي سَوَادٌ عَظيمٌ،فَظَنَنْتُ أَنهُمْ أُمَّتِي، فَقيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وقَوْمُهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبعُونَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الجَنةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلا عَذَابٍ**». ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ في أُولَئِكَ، فَقَالَ

(١) أخرجه مسلم بهذا اللفظ عن بريدة موقوفاً (رقم٢٢٠) وابن ماجه (رقم ٣٥١٣). وأخرجه أبو داود عن عمران (رقم ٣٨٨٤) والترمذي (رقم ٢٠٥٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٤٩٦). وأخرجه البخاري موقوفًا على عمران (رقم ٥٧٠٥).
قال ابن الأثير رحمه الله في النهاية (١/٤٤٦): (الحُمة بالتخفيف: السُّمُّ وقد يشدد، وأنكره الأزهري، ويطلق على إبرة العقرب للمجاورة، لأن السَّم منها يخرج، وأصلها حُمَوٌ أو حُمَيٌ بوزن صُرَد، والهاء فيها عِوَض من الواو المحذوفة أو الياء.)

بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ الله ﷺ ، وَقَالَ بَعْضُهُم: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا في الإِسْلامِ، فَلَمْ يُشْرِكُوا باللهِ شيئاً، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عليهم رَسُولُ اللهِ ﷺ فأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «**هُمُ الَّذينَ لا يَسْترقُونَ، وَلا يَكْتَوُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يتوكلون**». فَقَامَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: «**ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُم**». فقالَ: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**» ثُمَّ قامَ رَجُلٌ آخَرُ فقَالَ: ادْعُ اللهَ أن يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ.فقَالَ: «**سَبَقَكَ بها عُكَّاشَةُ**»[1].

الوقفة الأولى:

في بيان الألفاظ التي جاءت في هذا الباب :

(أمة): إماماً.

(القنوت): دوام الطاعة.

(حنيف): أي مائل عن الشرك.

(إلا من عين): وتسمى بالنفس أو الحسد، وهي نظرة من حاسد تؤثر على المصاب.

(حُمة): بضم الحاء وفتح الميم وهي كل ذات سم، أي لدغته إحدى ذوات السموم.

(الرهط): من الثلاثة إلى التسعة.

(سبعون ألفاً): قد يكون العدد مراداً فلا يدخل الجنة بلا حساب ولا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٠٥) ومسلم (رقم ٢٢٠).

عذاب إلا سبعون ألفاً، وقد يكون غير مراد ويكون المقصود المبالغة في الكثرة، ولعله الأرجح.

(لا يسترقون): أي لا يطلبون الرقية من أحد.

(لا يتطيرون): مأخوذة من الطير، والمراد أنهم لا يتشاومون بالطير أو بغيرها .

الوقفة الثانية:

أورد المؤلف هذا الباب مكملاً للباب السابق، فهو لماّ ذكر فضل التوحيد وأنه يكفّر السيئات بيّن في هذا الباب أن من حقّق التوحيد دخل الجنة بغير حساب.

الوقفة الثالثة:

أورد المؤلف آيتين تدلان على تحقيق التوحيد فالآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [النحل:١٢٠].

عدّد الله فيها صفات إبراهيم نبيه وخليله عليه السلام بأنه قانت مداوم للعبادة والطاعة، وحنيف: مائل عن الشرك وأكد ذلك بقوله: (ولم يك من المشركين) أي لم يكن مشركاً لا في القول ولا في الفعل .

والآية الثانية : ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ**﴾ [المؤمنون:٥٩] .

ذكر فيها شيئاً من صفات المؤمنين ومنها أنهم يجتنبون الشرك بجميع أنواعه الأصغر منه والأكبر، ولا يعني هذا أنهم لا يقعون في المعاصي، ولكن إذا عصوا تابوا إلى الله وأنابوا ورجعوا عن ذنوبهم .

الوقفة الرابعة: مع حديث الباب ودلالته على تحقيق التوحيد :

رأى النبي ﷺ رؤيا في المنام - ورؤيا الأنبياء وحيٌ - فيمن يدخلون الجنة حتى رُفع له سواد عظيم فظن أنهم أمته فقيل له: هذا موسى وقومه، ثم رأى سواداً عظيماً فقيل له: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم دخل منزله، فخاض الناس في معرفة من هم هؤلاء؟ فلما خرج عليهم أخبرهم بأنهم هم: الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون؛ فلا يطلبون من أحد أن يرقيهم أو يكويهم، ولا يتشاءمون بالطير أو بغيرها، ونالوا هذا الفضل وهو دخول الجنة بغير حساب؛ لأنهم - اعتمدوا على الله حق الاعتماد وتوكلوا عليه حق التوكل، وهذا هو تحقيق التوحيد .

الوقفة الخامسة :

أخبر النبي ﷺ في حديث الباب أن السبعين ألفاً (لا يسترقون) أي لا يطلبون من أحد أن يرقيهم، فهم كاملو التوكل بخلاف من يذهب ويطلب الرقية عند الرقاة ويطلب الدواء عندهم، فلو صدق في توكله على الله لكانت رقيته لنفسه تكفيه عن سؤال الناس أن يرقوه، ولا يفهم من هذا أن الإنسان يمنع الناس أن يرقوه ولكن لا يطلبها منهم، فالنبي ﷺ كان يرقي نفسه، ورقته عائشة رضي الله عنها، ورقاه جبريل عليه السلام، ولكن لم يسألهم ذلك.

الوقفة السادسة:

المتأمل في هذا الحديث يجد فيه صبراً ومواساة للدعاة في سبيل الله؛ إذ إن الله يبعث الأنبياء إلى أقوامهم ويوحي إليهم، ومع هذا قد يستجيب لدعوته رجل أو رجلان، بل قد لا يستجيب له أحد، فعلى الداعية ألا يكسل ولا يترك عمله في الدعوة إلى الله إذا رأى إعراض الناس عنه وعن دعوته، ثم عليه أن يفتش نفسه إن كانت مقصرة في حق الله فليقمها على طاعته، ثم ينظر إلى طريقته في الدعوة هل هي مناسبة للناس أو لا، وعليه أيضاً أن يعمل الأسباب الأخرى التي تعينه على عمله في هذه الدعوة، فإن أعرض الناس بعد ذلك ولم يستجيبوا فليفوض الأمر إلى الله، وليعلم أن هناك من هو خير منه ولم يُستجب لدعوته . ويؤكد هنا على عدم الغرور من الداعية وذلك بعدم مراجعته نفسه ولا طريقته، بل يراجع نفسه ويحاسبها، ويستشير غيره ممن هو أعلا منه علماً وخبرة وتجربة، والله من وراء القصد.

الوقفة السابعة:

هذا الحديث يدل دلالة واضحة على بعث المنافسة بين المؤمنين لكي يصلوا إلى هذه المرتبة العظيمة بأن يدخلوا الجنة بغير حساب ولا عذاب، فعلى المسلم الحق أن ينظر في العوامل التي ذكرها النبي ﷺ من أجل الحصول على هذه الميزة العظيمة فيجتهد في العمل بها ، والقرآن والسنة مليئان بالنصوص التي تدل على أهمية هذه المنافسة، وأن العبد يجب

أن يخوض غمارها ولا يغتر بعمله القليل، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [١] ، وقال : ﴿وَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ [٢] ، وقال سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [٣] وغيرها كثير.

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٣٣).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٤٨).

(٣) سورة الواقعة ، الآية (١٠) .

٣ - بابُ الخوفِ مِنَ الشِّرْكِ

وقولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. وقالَ الخليلُ عليه السلامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾" [إبراهيم: ٣٥].

وفي الحديثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّركُ الأَصْغرُ» فَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ: «الرِّيَاءُ»(١). وَعَنِ ابنِ مسعودٍ - رضي اللهُ عنه -: أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو من دون الله نِدًّا دَخَلَ النَّارَ»(٢) «رواهُ البخاريُّ». ولمسلمٍ عَنْ جابرٍ رَضي اللهُ عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ النَّارَ»(٣).

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(الأصنام): جمع صنم وهو ما يكون منحوتاً على هيئة إنسان أو حيوان ونحوهما وعُبد من دون الله، وأما التمثال: فهو ما يصنع مشابهاً لخلق

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/٤٢٨، ٤٢٩) والطبراني في معجمه الكبير (٢/٢٥٣ رقم ٤٣٠١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٩٧) ولفظه عن عبد الله قال النبي ﷺ كلمة، وقلت أخرى، قال النبي ﷺ: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار» وقلت أنا: من مات وهو لا يدعو لله ندًّا دخل الجنة.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٩٣/١٥٢).

الله من ذوات الأرواح وإن لم يُعبد، وأما الوثن: فهو ما عُبد من دون الله تعالى سواء كان صنماً أو غيره، ويدل عليه قوله ﷺ: (**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد**)[1].

(الرياء): مأخوذ من الرؤية أي المشاهدة، وهو أن يعمل الإنسان شيئاً من العبادات التي شرعها الله سبحانه لغيره تبارك وتعالى، ومن أجل أن يراه أحد الأشخاص.

والفرق بين الرياء والنفاق أن الرياء إظهار للطاعة مع إبطان المعصية ولا يلزم كونه مشركاً خارجاً عن الملة، أما النفاق فهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر والعياذ بالله.

(الند): الشبيه والمثيل.

الوقفة الثانية:

أورد المؤلف رحمه الله هذا الباب في التحذير من الشرك بعد أن أورد في الأبواب السابقة أهمية توحيد الله وفضله؛ لأن المسلم إذا لم يعرف الشر فقد يقع فيه، ولهذا كان حذيفة بن اليمان يسأل النبي ﷺ عن الشر مخافة الوقوع فيه.

الوقفة الثالثة:

لقد ذكر العلماء أن الشرك نوعان: شرك أكبر، وشرك أصغر.

النوع الأول: الشرك الأكبر هو أن يجعل لله شريكاً في العبادة أو أن يعبد غيره سبحانه كأن يدعو مع الله غيره أو يحب أحداً كحب الله أو يصرف

(١) يأتي تخريجه في الباب العشرين.

شيئاً من العبادة لغيره سبحانه، وهذا النوع مُخرِج من الإسلام محبط للعمل، ولا يُغفَر لصاحب هذا الشرك إذا مات من غير توبة إلى الله سبحانه، ودليل ذلك الآية الأولى التي ذكرها المؤلف، وهي قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] ، وكذلك حديث ابن مسعود الذي ذكره، أما سائر المعاصي غير الشرك فهي تحت مشيئة الله إن شاء غفر للمذنب فيها وإن شاء عذبه.

النوع الثاني: الشرك الأصغر فهو كما جاء في حديث الباب أنه الرياء والمقصود يسيره، فإن صرف كامل العبادة لأحد الخلق فهذا مشرك شركاً أكبر، وهذا مثال، أما ضابطه فهو ما كان وسيلة إلى الشرك الأكبر، والشرك الأصغر لا يخرج من الملة .

وقد اختلف العلماء رحمهم الله هل يغفر لصاحبه إذا مات ولم يتب منه أم أنه لا يغفر له بل يعذب عليه، ولكن صاحبه غير مخلد في النار؛ لأنه لا يخرج من الملة على قولين لأهل العلم، والصواب – والله أعلم – أنه تحت مشيئة الله إن شاء غفر له بمنه وكرمه وإن شاء عذبه بقدر معصيته.

وهذا النوع من أخطر الأنواع على الصالحين لسهولة الوقوع فيه، أما المسرف على نفسه بالمعاصي فلا يؤتى من هذا الجانب غالباً لبعده عن الأعمال الصالحة، ولهذا كان النبي ﷺ يخاف على أصحابه رضي الله عنهم ثم على أمته من هذا النوع.

الوقفة الرابعة:

لا شك أن الشرك بالله هو أعظم الذنوب وأقبحها، ولهذا لما سئل النبي

ﷺ عن أعظم الذنوب قال: (**أن تجعل لله ندا وهو خلقك**)[١].

وإنما صار كذلك لعدة أمور منها:

١) **أنه أظلم الظلم** ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[٢] وقال سبحانه أيضاً: ﴿**ثُمَّ الذينَ كَفَروا بِربِّهم يَعدِلونَ**﴾[٣] ووجه ذلك: أنه تنقيص لرب العالمين تعالى وتقدس، وصرف أمر خالص له سبحانه لغيره.

٢) **أنه مخالفة لأمره سبحانه في مقصود خلق الناس وهو العبادة**، كما قال تبارك وتعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ**﴾[٤] وفيه استكبار عن طاعته والذل له والانقياد لأوامره وترك ما نهى عنه سبحانه.

٣) **أن الشرك تشبيه للخالق بالمخلوق تعالى وتقدس سبحانه.**

فالله هو الذي له مطلق النفع والضر، وهو الرزاق ذو القوة، ويمنع من يشاء بحكمته، ومصرف الأمور كيف يشاء، فهو الذي يجب أن تتعلق به النفوس فيكون الدعاء والخوف الرجاء والتوكل وسائر العبادات له سبحانه. ومن صرف شيئاً من ذلك لأحد غير الله فقد صيره نداً وشريكاً لله، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً[٥].

ولهذا كان الصالحون يخافون على أنفسهم من الوقوع في الشرك

---

(١) رواه البخاري في كتاب : التفسير، باب: قوله تعالى (فلا تجعلوا لله أندادا) ، برقم (٤٤٧٧).

(٢) سورة لقمان، الآية (١٣).

(٣) سورة الأنعام، الآية (١).

(٤) سورة الذاريات، الآية (٥٦).

(٥) انظر: تيسير العزيز الحميد (٨٨).

لعلمهم بخطره كما قال إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿**واجنُبني وبَنيّ أن نعبُد الأصنَامَ**﴾[١] وبين الخليل سبب ذلك بقوله: ﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ**﴾[٢].

الوقفة الخامسة:

إذا وقع الرياء من مسلم فهل يحبط كل عمله أم ينقص جُزءاً من أجره؟

وجواب ذلك : إن العمل إذا خالطه شيء من الرياء فلا يخلو من حالتين:

الحالة الأولى: أن يكون الرياء في أصل العبادة، بمعنى أن الباعث والسبب في عمله الرياء ولم يعمل هذه القربة إلا لأجل أن يراه أحد من الخلق، فهذا النوع يبطل العبادة ولا تقبل منه، ودليله قول النبي ﷺ : (**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**)[٣] .

الحالة الثانية: أن يطرأ الرياء على العبادة، بمعنى أن يكون باعثاً هذه القربة لله عز وجل ابتغاء مرضاته دون سواه، ثم يطرأ عليها الرياء وهذا لا يخلو من أمرين:

إما أن يدافعه ما استطاع، فهذا لا يضر عبادته بشيء، والشيطان حريص على الوسوسة للمسلم، ولو قيل بفساد العبادة بمجرد خاطر الرياء الذي يدافعه المسلم ما استطاع فإن ذلك يوقع حرجاً عليه.

أما إذا لم يقم المسلم بمدافعة الرياء واسترسل معه وركن إليه

---

(١) سورة إبراهيم، الآية (٣٥).

(٢) سوزة إبراهيم، الآية (٣٦).

(٣) سبق تخريجه .

واستسلم له فهذا على قسمين:

القسم الأول: أن يكون آخر العبادة مبنياً على أولها بحيث لا يصح أولها مع فساد آخرها مثل من قام يصلي العصر، وأثناء صلاته طرأ عليه الرياء واسترسل معه ولم يدافعه، ففي هذه الحالة تبطل كامل العبادة.

القسم الثاني: أن يكون آخر العبادة منفصلاً عن أولها بحيث يصح أولها وإن فسد آخرها، مثل قراءة القرآن فيصح ما كان خالصاً لله ويبطل ما خالطه الرياء [1].

نسأل الله تعالى السلامة والعافية من كل سوء.

(١) ينظر: القول المفيد على كتاب التوحيد (١/١١٧).

٤- بابُ الدُّعَاءِ إلى شَهَادَةِ لاَ إلهَ إلاّ اللّه

وقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

عَنِ ابنِ عَباسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ رسولَ الله ﷺ لمَّا بَعَثَ معاذاً إلى اليمنِ قَالَ: «إِنَّكَ تَأْتي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لا إِله إلاَّ الله» وفي رواية: «إلى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ. فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَواتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. فَإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ. فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»(١). أخرجاه.

ولهُمَا عَنْ سهلِ بنِ سعدٍ رضي الله عنه: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ يومَ خيبرَ: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَه ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ» فَباتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا؟ فَلَمَّا أَصْبَحوا غَدَوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ ؟» فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قال: فَأَرْسلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُم إِلى الإِسْلامِ. وأَخْبِرْهُمْ بِما يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِيهِ،

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٩٥) ومسلم (رقم١٩).

فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»(١).

يَدُوكُونَ أي: يَخُوضُونَ.

الوقفة الأولى:

شرح مفردات هذا الباب:

(سبيلي): أي طريقي ودعوتي، والمشار إليه هو النبي ﷺ .

(بصيرة): أي على علم بها أدعو إليه.

(كرائم الأموال): أحسن المال وأنفعه وأكثره ثمناً.

(الراية): العَلَم الذي يُتخذ علامة للجيش.

(يدوكون): أي يخوضون ويتحدثون.

(أنفذ على رسلك): أي اذهب على مهلك من غير عجلة.

(حمر النعم): هي الإبل ذات اللون الأحمر، وهي أثمن الإبل عند العرب في ذلك الوقت.

الوقفة الثانية:

أورد المصنف - رحمه الله - هذا الباب بعد أن بدأ بذكر التوحيد وفضله وما يوجب الخوف من ضده، فناسب هنا أن يذكر الدعوة إليه، فمن عرف ذلك فلا بد من دعوة الناس إلى هذا الأمر الهام، ولهذا قال سبحانه وتعالى في سورة العصر: ﴿**وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟**

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٤٢) ومسلم (رقم ٢٤٠٦).

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾[(١)].

الوقفة الثالثة:

في الآية الأولى التي أوردها المصنف إشارة إلى أهمية الدعوة إلى التوحيد، فيقول سبحانه لنبيه ﷺ : قل يا محمد! للناس عامة: إن طريقتي وسنتي وهي التي أدعو بها إلى شهادة أن لا إله إلا الله وإفراده بالعبادة هي دعوةٌ على علم وبصيرة ويقين بصحتها، وهذه طريقتي وطريقة من اتبعني، وأننا ننزه الله سبحانه من أن يكون له شريك في العبادة، كما ننزهه من كل ما ينافي التوحيد.

ومن هذه الآية يمكن استخلاص عدة فوائد منها:

١) أن تكون دعوة المسلم لغيره خالصة لله عز وجل، فإن كانت لحظ دنيوي فلا تقبل؛ لأن من شرط صحة العمل الإخلاص لله سبحانه وتعالى، وأن تكون وفق ما جاء به الشرع، فلا يدعى إلى بدعة أو أمر لم يأتِ به الشرع.

٢) أن الدعوة إلى التوحيد لا تكون إلا بعلم وفهم من الداعية، فلو بدأ بالدعوة قبل العلم فسيوقع غيره بالجهل، لهذا قال ابن تيمية - رحمه الله - : (ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يكون فقيهاً فيما يأمر به وفيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به وفيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به وفيما ينهى عنه)[(٢)].

٣) فضل الدعوة إلى توحيد الله سبحانه والإخلاص له فيها فهي طريقة

---

(١) سورة العصر.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (٩٨/٨)

النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم ومن اتبعهم من الصالحين.

الوقفة الرابعة:

لقد أرسل النبي ﷺ معاذ بن جبل ﷺ إلى اليمن سنة ١٠هـ، ومكث فيها والياً وقاضياً حتى قدم في خلافة أبي بكرﷺ، وذهب إلى الشام ومات هناك. وأوصاه ﷺ بعدة وصايا في هذا الحديث العظيم الجامع، الذي استند عليه كثير من العلماء في تقرير مسائل عقدية وفقهية، ومن تلك الفوائد التي اشتمل عليها هذا الحديث :

١) **أن شهادة أن لا إله إلا الله وتوحيده سبحانه هي أوجب الواجبات وأولها** والمدخل إلى الإسلام، ولا يبدأ إلا بها كما في دعوة الأنبياء كافة، قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(١) فمن لم يوحد الله وأشرك معه فهو كافر فلا تقبل منه العبادات، قال ابن تيمية - رحمه الله - : وقد عُلِم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت الأمة أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وبذلك يصير الكافر مسلماً، وإذا لم يتكلم مع القدرة فهو كافر(٢).

٢) **أن الداعية ينبغي أن يكون على علم بحال المدعو**، فدعوة من عنده علم ليس كدعوة الجاهل، فالأول من يجادل بالأدلة فيحتاج لمقارعة ذلك بالحجة والبرهان بالتي هي أحسن، ويعرف قبل ذلك الشبهة التي يطرحونها ليجيب عليها.

---

(١) سورة النحل، الآية (٣٦).

(٢) ينظر: درء تعارض العقل والنقل (٨/٤)

٣) **البدأ بالدعوة بالأهم فالأهم**، فلا تأمر الكافر بالصلاة حتى يدخل في الإسلام، وكذلك لا تأمر شخصاً أن يعفي لحيته وهو لا يصلي، بل يبدأ الداعي بالتدرج مقدماً الأهم على المهم.

٤) **أنه لا بد لدخول الإسلام من النطق بالشهادتين.**

٥) **أن من امتنع من أداء الزكاة جاز لولي الأمر أن يخرجها منه جبراً عنه**، ولا تعطى إلا للمحتاج.

٦) **أنه لا يجوز للإمام أو نائبه الذي يجبي الزكاة أن يأخذ أنفس الأموال** من المزكي ليعطيه للفقير، بل يأخذ من الوسط، إلا إذا طابت بذلك نفس المزكي وأراد زيادة الخير.

٧) **تحريم الظلم بجميع صوره في الإسلام**، وعظم خطر دعوة المظلوم على الظالم، فدعوته مستجابة ولو كان المظلوم فاسقاً أو كافراً[1].

الوقفة الخامسة:

المستقرئ للنصوص الشرعية في الدعوة إلى الله يجد أنها كثيراً ما تشير إلى التزام الداعي بالخلق وحسن العرض في الدعوة، ومن هذه النصوص قول الحق سبحانه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[2]، وكذلك قوله ﷺ لمعاذ وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما لما بعثهما إلى اليمن: (**يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا**

---

(١) ينظر ما كتبته حول هذا الحديث مفصلاً في كتاب: حديث بعث معاذ إلى اليمن، نشر دار ابن الأثير.

(٢) سورة النحل، الآية (١٢٥).

تنفرا)[١] .

ولما بال الأعرابي في المسجد ونهره الناس وأغلظوا عليه قال ﷺ : **(إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين)**[٢] .

ثم إن الناظر في الواقع الحالي يجد أن حسن التعامل ولطف المعشر له أثر كبير في قبول الدعوة، ولذا نجد أن كثيراً من البلدان الإسلامية دخل أهلها في الإسلام دون حرب بل بحسن الخلق والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولعل بعض من يكون فظاً غليظاً في الدعوة لا يجد قبولاً، ولكن الداعي حينما يستشعر أهمية الدعوة سيوطن نفسه على الحلم وتحمل الأذى والصبر وكظم الغيظ.

الوقفة السادسة:

إن الداعي إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة والناهي عن البدع والشركيات، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر قد يعتريه بعض الفتور والملل، لا سيما إن لم تظهر الثمرات العاجلة لعمله، ولعل ورود بعض النصوص الشرعية التي تثني على الداعي وتبين أجره، يسليه ويزيد من همته وعمله **ومن هذه الفضائل:**

---

(١) رواه البخاري في كتاب: الجهاد واليسر. باب: ما يكره من التنازع و الاختلاف في الحرب، برقم (٢٨١١)، ورواه مسلم في كتاب: الجهاد ، باب: في الأمر بالتيسير، برقم: (٣٢٦٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: صب الماء على البول في المسجد برقم: (٢١٣).

١) **دعاء النبي ﷺ للداعي** فقد جاء في الحديث المتواتر: (**نضّر الله امرءاً سمع مقالتي فبلّغها، فربّ حامل فقه غير فقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه**)(١) ومعنى (نضر الله): أي دعاء له بالنعمة والنضارة والنور.

٢) **الثواب الكبير لمن اهتدى على يده شخص** كما في حديث علي رضي الله عنه الذي ذكره المصنف.

٣) **استمرار أجر الداعي حتى بعد موته** سواء أكانت دعوته بنشر علم أو بتعليم الناس، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**)(٢) .

٤) روى أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر يصلون على معلم الناس الخير**)(٣).

الوقفة السابعة:

ذكر المصنف - رحمه الله – حديث سهل بن سعد رضي الله عنه عام خيبر سنة ٧هـ، حيث كان هناك عهد بين النبي ﷺ وبين اليهود على ترك القتال، ولكن

---

(١) رواه ابن ماجه في مقدمة سننه ، باب: من بلغ علما برقم: (٢٢٦). وروى نحوه أحمد في مسند جبير بن مطعم برقم (١٦١٥٣)، ورواه الحاكم في المستدرك برقم (٢٦٩) وقال :هو على شرط الشيخين،وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٢٣٠) .

(٢) رواه مسلم في كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته برقم: (٣٠٨٤).

(٣) رواه الترمذي في كتاب: العلم، باب: فضل الفقه على العبادة، برقم: (٢٦٠٩).

اليهود نقضوا هذا العهد حينما حضر كفار قريش لغزوة الأحزاب، ثم لما كانوا كذلك لم يكن لهم صلح، فغزا النبي ﷺ خيبراً - المدينة التي كان يسكنها اليهود -، فلما نزل قريباً منهم قال النبي ﷺ هذا الحديث: (**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه**).

وفي هذا الحديث جملة من الفوائد منها:

١) **إثبات صفة المحبة لله عز وجل** إثباتاً يليق بالله عز وجل لا يشابهه أحد من الخلق، ونثبت هذه الصفة من غير تعطيل لها ولا تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه على حد قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١).

٢) **فضيلة علي بن أبي طالب** رضي الله عنه، وأنه تام الاتباع ومحب لله ورسوله ﷺ وأن الله ورسوله ﷺ يحبانه، وهذا الحديث جاء في فضيلة علي رضي الله عنه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية.

٣) **حرص النبي ﷺ على تبليغ الدعوة**، والنصح لأمته وأن يبدأ الداعي بالأهم فالأهم كما سبق.

٤) **حرص الصحابة رضوان الله عليهم على الخير**، فقد باتوا وهم يتحدثون من سيعطى راية الحرب، وأيهم سيأخذها رغم المسؤولية الكبيرة على حاملها والخطر الذي قد يواجهه أكثر من غيره، ولذا جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في هذا الموطن: (ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ) رغبة في أخذ هذا الفضل وهو محبة لله ورسوله ﷺ له.

٥) **أن النبي ﷺ أخبرهم بفتح خيبر** وهذا علَم من أعلام النبوة، أطلعه الله سبحانه وتعالى على هذا الأمر الغيبي، كما أن شفاء **علي** بن أبي طالب

---

(١) سورة الشورى، الآية (١١).

ﷺ على يد النبي ﷺ بأمر الله عز وجل من الآيات الدالة على صدق رسول الله ﷺ في رسالته.

٦) **رفق النبي ﷺ وحسن خلقه**، وذلك بتفقد أصحابه وعدم المشقة عليهم في السير المتواصل السريع الذي يرهقهم.

٧) **مشروعية الدعوة إلى الله عز وجل قبل القتال**، فهدف المسلم والداعية إيصال الحق للناس عامة وأن يدخلوا الإسلام، لا الطمع الدنيوي وأخذ الأموال والغنائم. ومن هذا يتبين أن القتال ليس مقصوداً لذاته.

٥- بابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أنْ لا إلهَ إلا اللّهُ

وقولِ اللهِ تَعَالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقول الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨].

وقولِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية [التوبة: ٣١].

وقولِهِ تَعَالَى:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ ﴾ [البقرة:١٦٥].

وفي الصحيحِ عَنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: (مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ، وكَفرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ عزَّ وَجَلَّ)[1].

الوقفة الأولى :

شرح مفردات هذا الباب:

(يدعون): يعبدون.

(يبتغون) : يطلبون.

(الوسيلة): التوصل إلى الشيء برغبة .

---

(١) أخرجه مسلم (رقم٢٣).

(براء): متبرئ مما يعبدون من الأصنام والأوثان .

(فطرني): خلقني وهو الله تعالى.

(يهدين): يبصرني طريق الحق فأسلكه .

(الأنداد) : الأمثال والنظراء والأشباه .

الوقفة الثانية:

هذا الباب هو نتيجة للأبواب السابقة التي ذكرها المصنف، حيث ذكر في الأبواب السابقة وجوب التوحيد وبيان حقيقته وأنه الحق الأعظم على جميع العبيد، وفضل هذا التوحيد، وآثاره العظيمة والحميدة، وأن : الموحد مآله إلى الجنة، كما ذكر الخوف من ضد التوحيد، ثم ذكر أهمية الدعوة إلى توحيد الله عز وجل، ثم ذكر في هذا الباب تفسير التوحيد، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله، فهذا الباب هو عبارة عن نقلة للأبواب الأخرى القادمة، حيث سيفسر التوحيد تفسيراً دقيقاً، ثم سيذكر في الأبواب الأخرى التي بعده شيئاً من مقتضيات التوحيد، وشيئاً من مناقضات التوحيد، ففي هذا الباب فسر التوحيد تفسيراً إجمالياً، ثم يفسر مقتضاه تفسيراً تفصيلياً في الأبواب التي تليه .

الوقفة الثالثة:

إن على الإنسان أن يعبد من بيده الأمر والنهي وهو الله سبحانه وتعالى، فلذلك يجب على الإنسان أن يسخر عبادته له، فلا يعبد من كان ناقصاً، وكل المخلوقين فيهم نقص، وهم محتاجون إلى الله عز وجل، حتى ولو كانوا من أفاضل المخلوقين، كالملائكة والأنبياء وصالحي البشر، فهم

بحاجة إلى الله سبحانه وتعالى .

ولذا قال سبحانه : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [(١)] فالمعبودون هنا هم من الذين يعبدون الله سبحانه يرجون رحمته ويخافون عذابه، مثل الملائكة وصالحي الجن ومثل عيسى عليه السلام، فهؤلاء هم ممن يعبد الله سبحانه وتعالى، وأولئك المشركون يعبدون هؤلاء الذين هم من عباد الله عز وجل فلا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، وهم يرجون رحمة الله ويخافون عذابه .

الوقفة الرابعة :

التوحيد لله عز وجل لابد له من ركنين أساسيين :

الأول: هو عبادة الله جل وعلا وحده؛ لأنه هو الخالق الرازق المتصرف بشؤون الكون كله.

الثاني: البراءة من الشرك وأهله مهما كان هذا المعبود، فلابد أن يتبرأ الإنسان منه فلا يعبده مع الله عز وجل .

وهذا معنى لا إله إلا الله، وهو العامل الأساس والمشترك الكبير بين دعوات الأنبياء والرسل عليهم السلام .

ولذا قال الخليل عليه السلام وهو الذي أتى بالحنيفية السمحة: **(إنني براء)** يعني بريء وتارك ومبتعد لما تعبدون **(إلا الذي خلقني)** فهو الذي بيده تصريف الأمور كلها، وبناء على هذا فقد فسر لنا التوحيد من خلال هذه الآية، فإنه لابد من عبادة الله تعالى ونفي عبادة ما سواه جل وعلا .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية (٥٧).

الوقفة الخامسة :

إن التحليل والتحريم مصدره من عند الله عز وجل ومن عند رسوله ﷺ ، فلا حلال إلا ما أحله الله ولا حرام إلا ما حرمه الله عز وجل، فلا يجوز لأحدٍ بأي حال من الأحوال أن يقول: هذا حلال وهذا حرام إلا أن يكون مبنياً على دليل من الكتاب والسنة صادراً عن الله عز وجل أو عن رسوله ﷺ، فمن فعل شيئاً غير ذلك كأن حَرَّم حلالاً أو أحل حراماً بدون دليل فقد شابه اليهود والنصارى، فاليهود والنصارى اتخذوا علماءهم أرباباً مع أن اليهود والنصارى يقولون: نحن لا نعبدهم، لكن الله سبحانه وتعالى، ذكر هنا أنهم اتخذوهم أرباباً، والرب: هو المشرع الذي يجب أن يُعبَد، فهم اتخذوهم مشرعين يحلون ويحرمون، فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله سبحانه وتعالى، فبناء على طاعتهم كانوا لهم أرباباً، ويعني ذلك أنهم عبدوهم من دون الله .

وكذلك اتخذ النصارى المسيح ابن مريم رباً مع الله عز وجل؛ لأن النصارى يقولون: إن الله ثالث ثلاثة؛ الأب والابن والأم هي مريم عليها السلام، فجعلوا عيسى عليه الصلاة والسلام رباً مع الله عز وجل، فمن أجل هذا ذكرهم الله عز وجل أنهم مشركون لأنه قال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١) فدل هذا على أن عملهم شرك بالله جل وعلا، وهو منافٍ للتوحيد، والتوحيد يُبنى على عبادة الله عز وجل،

---

(١) سورة التوبة، الآية (٣١).

فاليهود والنصارى جمعوا بين تحريف توراتهم وإنجيلهم وبين تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، وهم أيضاً أشركوا مع الله؛ لأن النصارى قالوا: إن الله ثالث ثلاثة واليهود قالوا: عزير ابن الله، وكل هذا شرك مناف للتوحيد والعياذ بالله .

الوقفة السادسة :

إن محبة العبد لله يجب أن تكون أعلى المحاب، ثم محبة رسول الله ﷺ، ثم محبة البشر من والد وولد وغيرهما.

وإذا كانت محبة الرسول ﷺ لا يجوز أن يقدم عليها غيرها مثل ما قال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه : والله إنك يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: (**لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال: يا رسول الله حتى من نفسي قال: الآن يا عمر**) (١) .

فدل هذا على أن محبة رسول الله ﷺ يجب أن تعلو المحاب كلها، وأعلى منها محبة الله عز وجل، ولذلك أورد المصنف - رحمه الله - هذه الآية : ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ**﴾ (٢) يبين أن من التوحيد أن تكون محبة الله جل وعلا أعلى المحاب، بل هي أعلى درجات العبودية لله جل وعلا، فإذا وصل المسلم إلى هذه الدرجة فقد وصل إلى أعلى درجات العبودية .

ومن خالف ذلك فقد ظلم نفسه واستحق العذاب الشديد، قال تعالى:

---

(١) رواه البخاري في كتاب: الأيمان والنذور ، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ ، برقم (٦٢٥٧).
(٢) سورة البقرة ، الآية (١٦٥).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ ، فالذين ساووا محبة غير الله بمحبة الله عز وجل يستحقون العذاب الشديد كما أشار الله سبحانه وتعالى في هذه الآية .

وقد يصل الإنسان بحبه لإنسان آخر إلى درجة محبة الله عز وجل بحيث لو أمره بمعصية لفعل هذه المعصية، فهذا وصل إلى درجة حب الله الذي له الأمر والنهي . ومن هنا يجب أن يحذر العاشقون والمولعون بأحبابهم من الوصول إلى هذه الدرجة فيخلوا في توحيدهم لله عز وجل إخلالاً عظيماً قد يصل إلى الشرك والعياذ بالله.

الوقفة السابعة:

إن من حقق التوحيد وقال: لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله فقد حرم ماله ودمه، بمعنى أن الله تعالى حرم مال هذا الإنسان فلا يجوز الاعتداء عليه، وحرّم دمه كذلك فصار حراماً على الناس لا يجوز الاعتداء عليه بإزهاق الروح أو بجرح في عرضه أو في جسده.

وحسابه على الله؛ لأن الله جل وعلا هو الذي يحاسب من قام بهذا التوحيد، ومن تلفظ به، فيجازيه الجزاء الحسن بنيته واعتقاده وعمله. وإن أخل به فحسابه كذلك على الله تعالى.

وهذا يستلزم أيضاً الكفر بما يُعبد من دون الله أياً كان هذا المعبود، فإذا قال المسلم: لا إله إلا الله عصم ماله ودمه، فدل على أن عصمة المال والدم في الدنيا للمسلم؛ لأنه قال: لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله من الأصنام والأوثان .

ولا يعني قوله : "حرم ماله ودمه" أنه يجوز الاعتداء على غير

المسلم؛ فلا يجوز الاعتداء عليه، وذلك لعصمة دمه وماله، وهذه العصمة بمعاهدة أو ذمة وغيرها مما هو مفصل في أبواب الفقه ، أما الحربي الذي أعلن الحرب على المسلمين فتحكمه قواعد الحرب في الإسلام.

٦- بابٌ: مِنَ الشِّرْكِ لِبْسُ الحَلْقَةِ وَالخَيْطِ ونحوِهِمَا لرفعِ البلاءِ أو دفعِهِ

وقولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨].

عَنْ عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ رَأى رَجُلاً في يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «**ما هَذِهِ؟**» قَالَ: مِنَ الوَاهِنَةِ. فَقَالَ: «**انْزِعْهَا، فَإِنَّهَا لا تَزِيدُكَ إِلاَّ وَهْناً؛ فَإِنَّك لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَداً**» رواه أحمدُ بسندٍ لا بأسَ بِهِ[(١)].

ولَهُ عَنْ عقبةَ بنِ عامرٍ مرفوعاً. «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلا أَتَمَّ اللهُ لَهُ. وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلا وَدَعَ اللهُ لَهُ**»[(٢)] وفي روايةٍ: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ**»[(٣)].

ولابنِ أبي حاتمٍ عَنْ حذيفةَ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الحُمَّى فَقَطَعَهُ وَتَلا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/٤٤٥) وابن ماجه (رقم ٣٥٣١) وابن حبان (رقم ١٤١٠، ١٤١١) والحاكم (٤/٢١٦) وصححه ووافقه الذهبي، والطبراني في معجمه الكبير (١٨/١٧٢ رقم ٣٩١) ويشهد لمعناه ما بعده.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/١٥٤) والحاكم (٤/٢١٦، ٢١٧) وصححه ووافقه الذهبي، وابن حبان (رقم ١٤١٣)، ويشهد لمعناه ما قبله وما بعده.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٤/١٥٦) والحاكم (٤/٢١٧، ٢١٩) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم٤٩٢).

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(الحلْقة) : طوق من النحاس كان المشركون يجعلونها في عضدهم، يزعمون أنها تحفظ من العين أو الجن أو من السحر .

(الخيط): ما كان يعقده المشركون على أيديهم ورقابهم، يزعمون أن هذا الخيط يدفع الحمى .

(أو نحوها): أي نحو الحلق والخيط مما يلبس في الرجلين أو العنق .

(الواهنة) : عرق يؤلم في الكتف أو في اليد كلها .

(تميمة) : خرزات وحروز يعلقها الجهال، يزعمون أنها ترد العين .

(الوَدَعة): جمعها ودع، وهو شيء أبيض يخرج من البحر يشبه الصدف، كانوا يتقون به العين .

الوقفة الثانية:

افتتح المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الباب بهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١) .

فالله سبحانه وتعالى يقول في هذه الآية: قل يا محمد أفرأيتم أيها المشركون ما تدعون من دون الله من الأصنام ومن الأوثان إن أرادني الله بضر هل هذه المعبودات تستطيع أن تكشف هذا الضر، أو قدر لي رحمةً من

(١) سورة الزمر ، الآية (٣٨) .

الرحمات في الدنيا أو في الآخرة هل تستطيع هذه المعبودات أن تمسك هذه الرحمة؛ لا أحد ينكر أنها لا تستطيع أن تكشف هذا الضر لأنها لا تستطيع أن تقدم شيئاً لنفسها ، لكن حال المشركين أنهم يعبدونها لتكشف ضراً أو تجلب نفعاً، فالله سبحانه وتعالى يقول: قررهم يا محمد هل هذه المخلوقات تكشف الضر أو تجلب الرحمة ؟ والجواب معلوم أنها لا تستطيع، ولذلك قل: حسبي الله، فالله سبحانه وتعالى هو الكافي وهو الشافي، عليه يتوكل المتوكلون، وهم المؤمنون الصادقون.

أما هذه الوسائل التي هي الحلقة والخيط ونحوها ما هي إلا من تصوير الشيطان، يلبس بها على ضعفاء الإيمان والعقول.

الوقفة الثالثة :

في حديث عمران أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر فالرسول ﷺ استنكر وقال : (**ما هذه الحلقة؟**) قال: من الواهنة بمعنى أنها تدفع عنه هذه الواهنة، فقال الرسول ﷺ : (**انزعها لا تزيدك إلا وهناً**) يعني لا تزيدك إلا ضعفاً، وأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً، وبيّن النبي ﷺ نتيجة هذا العمل بقوله: (**فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً**) يعني ما سعدت في الدنيا ولا في الآخرة، فالنبي ﷺ أراد من هذا الرجل أن لا يتعلق بهذه الوسائل التي تؤدي به إلى الشرك بالله عز وجل .

الوقفة الرابعة :

أن العبرة بالخواتيم؛ لأن النبي ﷺ قال: (**فإنك لو مت وهي عليك ..**) فدل على أن الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة ما دام الإنسان لم يمت، فيختم

للإنسان بعدم التوحيد إن وقع في مثل هذه الأشياء، وللأسف قد وقع فيها كثير من المسلمين سواء حلق أو خيط أو خرق أو متعلقات أو ربط يربطون على رؤوسهم أو على أصابعهم أو على أيديهم، كل هذه لا تزيد إلا ضعفاً، ولا تزيد إلا وهناً، وهي من عوامل الخسارة والهلاك؛ لأن النبي ﷺ قال: (**لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً**) . وعليه فليحذر المسلم من الوقوع بشيء من ذلك لئلا تحصل له هذه النتيجة المهلكة.

الوقفة الخامسة :

إن استخدام هذه الأمور من لبس الحلق والخيط وتعليق التمائم قد يكون لرفع البلاء أو دفعه، فقد يكون قصد من لبسه هو رفع البلاء قبل نزوله، وقد يكون المقصود من اللبس هو رفع البلاء بعد نزوله، والحكم على هذا الفعل سواء، سواء لرفع البلاء أو لدفع البلاء . فلا يتغير الحكم.

والمقصود بهذا أن الشرك بحسب نية هذا اللابس فإن كان اللابس لهذه الحلق أو لهذا الخيط يقصد أن هذه الحلق ترفع البلاء بنفسها أو أن هذا الخيط يدفع البلاء بنفسه فهذا شرك أكبر؛ لأنه جعل هذه الحلق مساوية لله سبحانه وتعالى، يدفع البلاء بشيء من الأمور التي لا يستطيعها إلا الله سبحانه وتعالى .

أما إذا كان يقصد أنها سبب لدفع البلاء وليست هي تدفع البلاء بنفسها فهذا من الشرك الأصغر .

الوقفة السادسة :

في قول النبي ﷺ : (**من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له**) نجد عند التأمل في هذا الحديث وأمثاله أنه يعالج أموراً نفسية قد ابتلي بها بعض الناس من أثر عين أو سحر أو ما تسببه بعض مشكلات الحياة الاجتماعية، فنجد أن **الحديث قد عالج هذه المشكلات من خلال الأمور الآتية** :

الأول: وجوب التعلق بالله سبحانه وتعالى وعدم التعلق بشيء من أمور الدنيا، فدعاء النبي ﷺعلى من تعلق تميمة أو تعلق ودعة بأن لا يتم الله له، فيه سد للباب في الأمور الدنيوية التي لا تضر ولا تنفع .

وقد يقول قائل: كيف يضرني الله تعالى ولم يضر فلاناً؟ فيقال: إنه قد يكون هذا من البلاء لك، ومن حكمة الله في هذه الحياة أنه قضى على الناس أن يبتلوا، وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل وهكذا، فأنت إذا ابتليت فاعلم أن هذا من عند الله سبحانه وتعالى، وقد يكون في هذا رفعة للدرجات وتكفير للسيئات .

الأمر الثاني: أن هذه المصائب التي تصيب الإنسان أياً كانت هذه المصائب ما هي إلا محطات في طريق المسلم في هذه الحياة، فأنت لما تصاب بمرض فكأن الله سبحانه وتعالى يقول: انتبه أنت قد يصيبك ما أصابه فتموت، فتزيد عبادتك ويزيد تقربك من الله سبحانه وتعالى .

ومحصول هذا أن هذه الابتلاءات لِحِكَم لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى . فيجب على المسلم أن يملأ قلبه يقيناً بهذا التوجيه.

الأمر الثالث: أن هذه المصائب قد تصيب الإنسان لرد الطغيان؛ لأن الإنسان قد يطغى بمادته أو بماله وجاهه، ثم قد تأتيه هذه الابتلاءات فيقف عن هذا الطغيان، ويرجع إلى ربه ويحسن عبادته له، ويزداد تقرباً إليه سبحانه وتعالى .

فيجب على كل من أصيب بمرض نفسي أو هم أو غم أو قلق أو اكتئاب أو ضيق في الصدر أو ضيق في العيش وغيرها من أنواع المصائب أن يتذكر أن المقدر لهذه الأشياء هو الله سبحانه وتعالى، ومن توكل على الله كفاه، فكن ولياً لله سبحانه وتعالى بالتوكل عليه فستجد بإذن الله الراحة النفسية والاطمئنان القلبي .

الوقفة السابعة :

ينبغي للمسلم أن يتداوى بالأسباب المباحة، فالله تعالى أباح لنا أن نتداوى بالأسباب الشرعية المباحة؛ كالتداوي بالقرآن الكريم فقد جعل الله فيه شفاء للناس، وأيضاً عن طريق الأسباب الأخرى المادية المعروفة إذا وصف هذا الدواءَ طبيبٌ موثوق فلا بأس حينئذ بالتداوي، ولكن ينبغي الحذر من التداوي بالحرام لأن النبي ﷺ قال: (**تداووا ولا تتداووا بحرام**) .

وأن يبتعد عن التداوي بالأمور الشركية كما مر سابقاً من لبس الحلق والخيط أو التعلق بغير الله سبحانه وتعالى، ولذلك تلا الرسول ﷺ أو تلا حذيفة قوله تعالى : ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾ [(١)] وهذه الأمة مهما كان فيها من الإيمان فإنهم قد يقعون في الشرك الأكبر أو الأصغر من حيث يعلمون أو لا يعلمون، فعلى المسلم أن يحذر مثل هذه الأشياء وأن يعتمد على الله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة يوسف ، الآية (١٠٦).

٧- بابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

فِي الصَّحيحِ عَنْ أَبي بَشِيرٍ الأَنصاريِّ رَضيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّه كانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولاً: «**أَنْ لا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلادَةٌ مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلادَةٌ إلاَّ قُطِعَتْ**»(١). وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ - رضي اللهُ عنه - قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الرُّقَى والتَّمائِمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ**» رواه أحمدُ وأبو داودَ(٢).

«**التَّمَائِمُ**»: شَيءٌ يُعَلَّقُ عَلى الأَوْلادِ عنَ العَيْنِ، لَكِنْ إِذَا كانَ المُعَلَّقُ مِنَ القُرْآنِ فَرَخَّصَ فِيه بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيه، وَيَجْعَلُهُ مِنَ المَنْهِيِّ عَنْهُ. مِنْهُمُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ.

«**والرُّقى**»: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ، وَخَصَّ منها الدليلُ مَا خَلا مِنَ الشِّرْكِ. فقد رخَّصَ فيه رسولُ اللهِ ﷺ من العَيْنِ والحُمَةِ.

«**والتِّوَلَةُ**»: شيءٌ يصنعونَهُ يزعُمونَ أَنَّه يُحَبِّبُ المَرْأَةَ إِلى زَوْجِها، وَالرَّجُلَ إِلى امْرأَتِهِ.

وَعَنْ عبدِ اللهِ بنِ عُكَيْمٍ مرفوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكِلَ إِلَيْهِ» رواه أحمدُ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٠٥) ومسلم (رقم ٢١١٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٨١/١) وأبو داود (رقم ٣٨٨٣)، وابن ماجه (رقم ٣٥٣٠) والحاكم (٤١٨/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

والترمذيُّ[(١)].

وَرَوَى الإمام أَحمدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ ﷺقَالَ: قَالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ : «**يَا رُوَيْفعُ، لَعَلَّ الحيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ: أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ أَوْ تَقَلَّدَ وَتَراً أَوْ اسْتَنْجى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ فَإِنَّ محمَّداً بَرِيءٌ مِنْه**»[(٢)].

وَعَنْ سعيدِ بنِ جُبيرٍ قَالَ: مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ كَانَ كَعدْلِ رَقَبَةٍ. رواه وكيعٌ. ولَهُ عَنْ إبراهيمَ قال: كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمائِمَ كُلَّهَا مِنَ القُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ.

الوقفة الأولى :

شرح مفردات الباب:

(الوتر): أحد أوتار القوس ،كان أهل الجاهلية إذا اختلت الوتر أبدلوه بغيره، وقلدوا به الدواب اعتقاداً منهم أنه يدفع العين عن الدابة.

(الرقى): جمع رقية وهي العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة .

(التمائم) : جمع تميمة وهي ما يعلق على الأولاد من خرزات وتعاويذ وغيرها .

(التولة) : شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والزوج إلى امرأته، وهو نوع من السحر .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣١٠/٤، ٣١١) والترمذي (رقم ٢٠٧٢) والحاكم (٢١٦/٤) والبيهقي (٣٥١/٩) والطبراني في الكبير (٣٨٥/٢٢ رقم ٩٦٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٠٨/٤، ١٠٩) وأبو داود (رقم ٣٦) والنسائي (١٣٥/٨ رقم٥٠٦٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٩١٠).

(العزائم) : آيات من القرآن تقرأ على بعض المرضى أو ذوي العاهات، أو تقرأ في ماء ويسقى المريض هذا الماء .

(تقلد وترا) : المقصود ما يعلق على البهائم من قوس النبل يزعمون أنه يدفع العين .

الوقفة الثانية:

هذا الباب قريب من الباب السابق في لبس الحلق والخيط ونحوهما لدفع الضر أو لجلب النفع، والمصنف هنا قال: (باب ما جاء في الرقى والتمائم) التي جعلها بعض الناس باباً لدفع البلاء أو رفعه . فهي وسائل أخرى كانت تعمل في الجاهلية.

وقد ذكر المصنف هذا الباب ليوضح أن على الإنسان أن يتوكل على الله سبحانه وتعالى، وأن يعمل بالوسائل والأسباب المشروعة، وأن يبتعد عن ما فيه محذور شرعي، أو ما يؤدي إلى محذور شرعي، أو ما يؤدي إلى الشرك أو يوقع في الشرك، ومن ذلك أيضاً وجوب إزالة هذه الأشياء، وأيضاً وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه أيضاً بيان عدم الإضرار بالإنس والجن مما يؤثر بهم أو يضر بهم، وفيه بيان لمعجزة النبي ﷺ حيث أخبر رويفعاً بأنه يطول به العمر، وقد طالت حياته كما أخبر النبي ﷺ .

الوقفة الثالثة:

إن أهل الجاهلية كانوا يعلقون القلادة في رقاب الجمال لأجل أن تدفع عنها العين أو ترفع عنها الضر أو تجلب لها النفع، فكانوا يعملون مثل هذه الأعمال، فجاء الإسلام بقطع هذه القلادة، إذا كانت معلقة على بعير

تسمى قلادة من وتر، أما إذا كانت معلقة على إنسان تسمى تمائم مثل ما يعلق على الأولاد من خرز أو تعاويذ أو حلق لاتقاء العين، وبعضهم يعلقها على باب البيت أو باب المتجر ونحوه باعتقاد أنها عامل لجلب النفع والرزق ودفع العين، هذا ما كان يعمله أهل الجاهلية. ومثله في واقعنا التعليق على السيارة أو العربة وغيرها.

والحكم في هذا التعليق إن كان المعلق من القرآن أو من الأدعية فهذه اختلف فيها أهل العلم؛ فمنهم من أجازه ومنهم من منعه، والصحيح والله أعلم - هو المنع؛ لأنه قد يكون هذا الفعل ذريعة لتعليق ما فيه شرك، ثم لعموم النهي الوارد هنا قال: (**لا يبقين في رقبة بعير قلادة**) فلم يقل عليه الصلاة والسلام: إن كانت من القرآن فاتركها فإن كانت من غير القرآن فاقطعها، وإنما عمم النهي الوارد في ذلك .

أما إذا كان المعلق من غير القرآن أو الأذكار النبوية كالألفاظ غير المفهومة أو طلاسم مما فيه استغاثة بالجن ونحو هذا فهو محرم بالإجماع، وقد يكون من الشرك الأكبر إذا اعتقد الإنسان أن هذه القلادة تدفع ضراً و تجلب نفعاً، وأما إذا اعتقد أنها سبب لرفع الضر أو لجلب النفع فهذا من الشرك الأصغر، أما إذا استعان بها بالجن واعتقد أن هؤلاء الجن يدفعون الضر ويجلبون النفع من دون الله عز وجل فهذا شرك أكبر مخرج من الملة والعياذ بالله، فهذه هي التمائم التي هي من الخرق ونحوها التي تعلق على الحيوانات أو تعلق على الإنسان أو تعلق على السيارات؛ مثل ما يفعل بعض الناس الآن من تعليق خرقة سوداء على مرآة السيارة باعتبار أنها تدفع الضر

أو تجلب النفع، وفي الغالب يستعملونها اتقاء للعين، نسي هذا المعلق التوكل على الله عز وجل، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي بيده النفع وبيده الضر سبحانه . أقول : كل ما ذكر من التمائم المنهي عنها .

الوقفة الرابعة :

إذا كانت هذه العزائم من آيات القرآن ومن السنة ومن الأذكار النبوية فهذه قد رخص فيها كثير من أهل العلم، وقد ذكرنا أن الراجح هو المنع سدًّا للذريعة .

أما إن كانت من غير القرآن ومن غير الأذكار النبوية مما يشتمل على الاستعانة بالشياطين أو الاستعانة بغير الله أو كتب بلغة غريبة غير مفهومة أو بطلاسم كمن يتمتم ولا يُعرف ماذا يقول فهذا محرم أشد التحريم، وقد يكون شركاً والعياذ بالله .

الوقفة الخامسة:

في حكم الرقى، فالرقى التي من كتاب الله ومن الأدعية القرآنية والنبوية والتي ليس فيها توسل بغير الله عز وجل وليس فيها محذور شرعي فهذه جائزة، وقد استعملها النبي ﷺ وأمر الصحابة باستعمالها، وجرى عليها عمل أهل العلم .

أما إذا كانت من غير القرآن كما سبق فهذه بحسب ما فيها من الكلام، فقد تكون شركاً أكبر كما يستعمل بعض المشعوذين والسحرة والدجاجلة من التوسل إلى الشياطين وغيرهم، وقد تكون حراماً إذا كانت من أشياء ليس فيها شرك، وإنما اعتقاد من هذا الشخص بأن هذا الكلام ينفع أو يضر

فهذا شرك أصغر، وأقل أحوالها أنها محرمة أشد التحريم .

في هذا الوقت للأسف الشديد كثرت مثل هذه الاستعمالات، فليحذر الإنسان تمام الحذر ويتنبه تمام التنبه لهذا الراقي هل يستعمل قرآناً أو دعاء نبوياً واضحاً أو غير ذلك من المحرمات . فقد كثرت الحيل ووسائل التلبيس أعاذنا الله منها.

الوقفة السادسة :

التولة هو ما تعلقه المرأة لتحبب لها زوجها أو العكس أيضاً يعلقه الرجل ليحبب امرأته له، وهذا التعليق ذكر النبي ﷺ أنه من الشرك، فالتولة أقل أحوالها أنها محرمة، والوسيلة الشرعية للتحاب بين المرأة وزوجها والتواد هو العشرة الحسنة، والدعاء الصادق لله سبحانه وتعالى، والمعاملة بالمعروف، وقيام كل طرف بالحق الواجب عليه، والتحبب بالوسائل المشروعة من الزوجة لزوجها ومن الزوج لزوجته، وليُحذر مما يفعله بعض السحرة والكهان من بعض الأشياء الموهومة، والتي تسمى الصرف فينصرف قلب الرجل لزوجته والعكس، وهذا شيء خطير وقد يؤدي إلى الشرك بالله إذا اعتقد هذا الشخص أن هذا الصرف بفعل هؤلاء الشياطين .

فالرسول ﷺ يبين أن من تعلق شيئاً يعتقد بنفعه أو ضره فالله سبحانه وتعالى يكله إلى ذلك الذي تعلق به من دون الله، ولا شك حينئذ إذا وكل إلى هذا فقد وكل إلى ضعف وخور وهلاك .

الوقفة السابعة :

في حديث رويفع ﷺ إشارة إلى طول حياة رويفع، وفيه بيان لبعض المحذورات والممنوعات، **أولها**: عقد اللحية تكبراً فيفتلها ويعقدها ويربطها تكبراً كما تفعل في بعض الحروب، كأنها إشارة بأنني لا أُغلب، أو تكبر على الله سبحانه وتعالى فهذا من الممنوعات.

أو تقلد وتراً وهذا سبق الكلام فيه، **وثالث الممنوعات** : الاستنجاء برجيع الدواب أي مخلفاتها يستنجي بها من البول أو الغائط .

والممنوع الرابع الاستنجاء بعظم: ولهذا لما سأل أبو هريرة ﷺ عن سبب النهي عن الاستنجاء بالعظم وروث الحيوان قال ﷺ : (**هما من طعام الجن وإنه أتاني وفد جِنٍ ... فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا عليها طعاماً**)[1].

وفي هذا الحديث براءة النبي ﷺ من هذه الأعمال وممن يعمل هذه الأعمال المحرمة، ولذا لا يجوز عملها، ومن تبرأ منه النبي ﷺ كان في خسارة وهلاك في الدنيا والآخرة؛ لأن الرسول ﷺ لا يتبرأ إلا من عمل خطير ، ولا يتبرأ إلا ممن يعمل عملاً خطيراً يناقض الإسلام كله من أصله أو يناقض شيئاً عظيماً في الدين .

و في هذا الحديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالنبي ﷺ يوجه رويفعاً، وتوجيهه لرويفع هو توجيه لمن بعده من المسلمين أن يقوموا بهذه الشعيرة العظيمة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) رواه البخاري في كتاب: فضائل الصحابة ، باب: ذكر الجن ، برقم (٣٦٤٧).

فإذا رأى الإنسان إنساناً آخر عمل منكراً أو تكاسل عن عمل معروف فيأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر كما فعل النبي ﷺ.

الوقفة الثامنة :

قال سعيد بن جبير : (من قطع تميمة من إنسان كان كعتق رقبة) وهذا ظاهره الوقف ولكن حكمه حكم الرفع؛ لأنه بيَّن شيئاً غيبياً؛ قال: كان كعتق رقبة، وأهل العلم في المصطلح يقولون: ما كان ظاهره الوقف يعني موقوف على صحابي أو تابعي ونحوه وتحدث عن أمر غيبي فله حكم الرفع؛ لأن الذي يحكم في الأمور الغيبية هو رسول الله ﷺ .

قال: كان كعتق رقبة، يعني فضل من أنكر هذا المنكر وهي التمائم التي هي محرمة أو وسيلة إلى الشرك أو هي من الشرك كان كعتق رقبة، وهذا فيه إشارة إلى عظم المسئولية على العلماء والدعاة بالتبيان والتبيين للناس بأن هذه الأفعال المحرمة قد تؤدي بصاحبها إلى الشرك بالله عز وجل، والعياذ بالله، وهذه من الأشياء التي تضعف عقيدة المسلمين وتضعف توحيدهم، وتخلخل علاقتهم بربهم عز وجل .

وفيه بيان لمسئولية الآباء والمسئولين عن تربية الناس بالتحذير من التعلق بهذه التمائم والخزعبلات التي قد تكون بفعل المشعوذين والسحرة ونحوهم، وفيه توجيه لكل مسئول أن يقوم بمسئوليته تجاه كل ما يخل بعقيدة المسلمين وتوحيدهم .

الوقفة التاسعة:

هذا الباب هو في حكم الرقى والتمائم والتولة التي فعلت في

الجاهلية ويفعلها بعض المسلمين، وأن على الإنسان أن يتوكل على الله سبحانه وتعالى وأن يعمل بالأشياء المشروعة والأسباب المشروعة، وأن يبتعد كل البعد عن ما فيه محذور شرعي أو ما يؤدي إلى محذور شرعي أو ما يؤدي للشرك أو يوقع في الشرك .

ومن ذلك أيضاً وجوب إزالة هذه الأشياء والقيام بالمسئولية من قبل المسئولين والعلماء والمربين والدعاة، وفيه أيضاً بيان لعدم الإضرار بالإنس أو بالجن مما يؤثر عليهم أو يضر بهم .

٨- بـابُ مَنْ تبرَّكَ بشجرةٍ أوْ حجرٍ ونحوهِمَا

وقَوْلُ اللهِ تَعَالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩ - ٢٣].

عَنْ أَبي واقِدٍ اللَّيْثِيِّ قالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إلى حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، ولِلْمُشْرِكينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بها أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لها ذَاتُ أَنْواطٍ. فَمَرَرْنا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْواطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْواطٍ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّها السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرائيلَ لِمُوسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾** [الأعراف: ١٣٨] **لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم**» رواه الترمذيُّ وصحَّحهُ[1].

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(التبرك) : طلب البركة .

(اللات): فيها قراءتان؛ قراءة التشديد فتكون اسم فاعل من اللّت وكان هذا اسم لصنم، وأصله رجل كان يلت السويق للحجاج فلما مات عكفوا على قبره وجعلوه صنماً، ولتّ السويق أي يجعل مع السويق السمن .

وعلى قراءة التخفيف تكون اللات مشتقة من الله أو من الإله، وهي

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/٢١٨) والترمذي (رقم ٢١٨١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٦٠١).

صخرة لأهل الطائف ومن حولها من الأعراب .

(العزّى) : مشتق من اسم الله "العزيز" وهي نخلة في وادٍ بين مكة والطائف تعبده قريش وبنو كنانة.

(مناة): اسم لصنم قيل مشتقة من اسم المنان أو من (منى) لكثرة ما يمنى عنده من الدماء بمعنى يراق. وكان بين مكة والمدينة لهذيل وخزاعة .

(قسمة ضيزى) : أي قسمة مائلة غير عادلة .

(حُنين) : اسم للمكان الذي وقعت فيه غزوة حُنين .

(حدثاء عهد بكفر): أي لا يزال إسلامهم قريباً .

(ينوطون بها أسلحتهم) : أي يعلقون بها أسلحتهم لطلب البركة .

الوقفة الثانية:

مع قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ الآيات

ذكر المصنف هذه الآيات تحت هذا الباب ليبين أن هذه أسماء أصنام وأوثان في الجاهلية كانوا يعبدونها ويطلبون منها البركة ويذبحون عندها ويسألونها من دون الله، فذمهم بهذا الاستفهام الإنكاري على تبركهم ودعائهم عند هذه الأصنام .

الوقفة الثالثة :

مع حديث الباب وفيه أنواع التبرك وحكم كل نوع:

١ - **تبرك جائز ومشروع:** وهو طلب البركة والتماسها مما علم بالشرع أنه مبارك؛ مثل طلب البركة من النبي ﷺ أثناء حياته، وطلب البركة في اتباع شرعه وتعاليمه بعد مماته.

ومن التبرك المشروع الصلاة في الحرمين الشريفين تطلب فيها البركة وذلك في مضاعفة الأجر .

ومثل شرب ماء زمزم الذي أخبر النبي ﷺ: أنه طعام طعم وشفاء سقم [(١)] .

٢ - **تبرك ممنوع** - وهو مراد المصنف - : وهو طلب البركة مما لم يأذن به الشرع.

وحكم هذا التبرك بحسب نية المتبرك؛ فقد يكون شركاً أكبر وقد يكون دون ذلك.

فمن شد الرحال إلى ضريح أو قبر زعم أنه ولي؛ فإن دعاه من دون الله وطلب من هذا الولي رفع الضر أو دفعه أو جلب الخير أو تبرك به من دون الله فهذا شرك أكبر، أما إن دعا الله تعالى عند الضريح وبزعمه أنه بهذا تحصل البركة فهذا كبيرة من كبائر الذنوب.

الوقفة الرابعة : مسألتان مهمتان :

المسألة الأولى: من تبرك بالشجر والحجر وغيرهما واعتقد نفعهما من دون الله هل يكفر ، وهل يُكفّر كل من فعل ذلك؟

أما من تبرك بالشجر أو بالقبر أو بالضريح للولي الفلاني واعتقد نفعه أو ضره من دون الله وأقر بذلك فلا شك في إشراكه مع الله شركاً أكبر يخرج به من الملة.

وأما ما يحصل الآن عند عامة المسلمين من التبرك بالقبور والأضرحة

---

(١) أخرجه مسلم بلفظ "طعام طعم" (فضائل الصحبة باب من فضائل أبي ذر) (٤٥٢٠) وصحح الألباني لفظ "طعام طعم وشفاء سقم" في صحيح الجامع (٣٥٧٢).

فهؤلاء يعذرون بالجهل حتى يبين لهم الحق، فإنك لو سألت أحدهم : هل تعتقد نفع هذا الولي من دون الله ؟ لاستنكر كلامك مما يدلك على جهلهم. ولذا لا يكفر من عمل ذلك بجهل.

المسألة الثانية: واجبنا نحو من يفعل هذه الأفعال :

يجب الإنكار عليهم وبيان الحق لهم وخطورة فعلهم ولكن بالتي هي أحسن؛ بأن يبين المنهج الصحيح في ذلك وما مصدر البركة الحقيقية؟ وما السبل الصحيحة الموصولة إلى البركة المشروعة؟ وأن الأمور كلها بيد الله تعالى وإليه يرجع الأمر كله، ويتعين هذا البيان على أهل العلم والدعاة وكل من يجيد حسن البيان . كما يتعين على المسؤولين في كل بلد أن يمارسوا سلطتهم في ذلك .

الوقفة الخامسة :

في حديث الباب بيان لتحريم النبي ﷺ من طلب البركة من الأشجار وغيرها ، وأخبر أننا سنتبع ونقلد من كان قبلنا **وهذا التقليد على نوعين :**

١ - التقليد في أمور الاعتقاد مثل الاحتفال بأعياد الكفار، ومثل طلب البركة مما هو ممنوع في الشرع . ولا شك في حرمة هذا وبدعيته.

٢ - التقليد في الأعمال كما أخبر ﷺ عن وجوب مخالفة اليهود وغيرهم بالأمر بإعفاء اللحى وحف الشوارب.

والضابط في الأعمال : إن كان العمل مما عرف الكفار به وصار علَماً عليهم فلا يجوز مشابهتم به ، ولكن إذا كان ما يعمله الكفار مباحاً وليس علَماً عليهم وليس خاصاً بهم فلا حرج من فعله .

٩-بابُ ما جاءَ في الذَّبح لِغَيْر اللّهِ

وقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) ﴾ [الكوثر: ٢].

عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بأَرْبَعِ كلماتٍ: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْه، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثاً، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ**»[(١)]. رواه مسلمٌ.

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شهابٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبابٍ**» قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**مَرَّ رَجُلانِ عَلى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقرِّبَ لَهُ شَيْئاً. قَالُوا لأَحَدِهما: قَرِّبْ. قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيءٌ أُقَرِّب. قَالُوا له: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَاباً، فَقَرَّبَ ذُبَاباً فخَلَّوا سَبِيلَهُ فَدَخل النَّارَ، وَقَالُوا للآخَرِ: قَرِّبْ. فقَالَ: مَا كُنْتُ لأُقَرِّبَ لأَحَدٍ شَيْئاً دُونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَضَرَبُوا عُنُقَهُ فَدَخَلَ الجَنَّةَ**»[(٢)]. رواه أحمد.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٩٧٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في كتاب الزهد (ص٢٢) وأبو نعيم في الحلية (١/٢٠٣) عن سلمان موقوفًا وهو صحيح.

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(نسكي) : أي ذبحي لبهيمة الأنعام .

(انحر): أي اذبح ، والأصل أن الذبح يكون للبقر والغنم ، وأما النحر فيكون للإبل.

(لعن الله) : اللعن من الله هو الطرد والإبعاد عن رحمته، واللعن من الخلق: السب والشتم.

(آوى محدثاً): أي نصر وحمى المحدث، والمحدث بكسر الدال هو الذي أحدث في دين الله مالم يشرعه، أو أحدث أمراً منكراً في الأمة كالجرائم وانتهاك الحرمات .

(منار الأرض): العلامات التي تفصل بين حقوق الناس في الأراضي والمزارع وغيرها.

الوقفة الثانية:

ذبح البهائم على ثلاثة أنواع :

النوع الأول: الذبح عبادة لله عز وجل مثل ذبح الهدي في الحج ، وذبح العقيقة للمولود، وذبح الأضحية، وذبح البهيمة ليتصدق بها على الفقراء ... فهذه من العبادات التي يؤجر عليها المسلم ، ومنها ما هو واجب كالهدي على المتمتع في الحج، ومنها ما هو مستحب كالذبح من أجل الصدقة.

النوع الثاني: الذبح في الأمور العادية؛ كأن يذبح الإنسان ليأكل هو وأهله اللحم ، أو يذبح لأجل الضيف، فهذا الأصل فيه الإباحة والجواز، وبقدر نيته الصالحة واحتسابه يؤجر عليه .

النوع الثالث: الذبح عبادة لغير الله، وهو المراد بهذا الباب، وهو شرك بالله عز وجل ، إذ الأصل أن الذبح عبادة لا تصرف إلا لله وحده ولو كان قليلاً، ففي الحديث الذي ذكره المصنف في الرجل الذي قرب ذباباً للصنم فدخل النار دليل على ذلك .

وعليه فمن ذبح تقرباً للصنم أو الجن أو الشجر أو الحجر أو الضريح أو لساحر فهو مشرك بالله شركاً أكبر مخرجاً من الملة .

الوقفة الثالثة :

إن من ذبح لغير الله بمعنى أنه صرف نوعاً من العبادة لغير الله فقد أشرك بالله، ولهذا ما يفعله بعض الناس من الذبح للأولياء والأضرحة والقبور، وكذا ما يطلبه بعض السحرة من المرضى من الذبح في حمامٍ أو مزبلة أو خربة ويقولون له: لا تذكر اسم الله عند الذبح ولكن قل: باسم فلان الساحر أو الجني، أو لا تذكر أي اسم عند الذبح؛ فكل ذلك شرك بالله، ويخشى على صاحبه أن يكون كصاحب الذباب، والعياذ بالله .

وحديث صاحب الذباب يبين أن الشرك أمر خطير جداً، فقد يقع من المرء بسرعة وبشيء يسير، وظاهر القصة أن هذا الرجل ذبح بنية التقرب لهذا الصنم، ولو فعله بنية التخلص من شرهم ولم ينو الذبح لغير الله فلا يكفر؛ لقوله تعالى : ﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ**

بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١) .

وبالضد فإن التوحيد يوجب دخول الجنة وعدم التخليد في النار، ولو كان المسلم عاصياً فهو تحت مشيئة الله سبحانه إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه بقدر معصيته ولكن مآله للجنة ، ولهذا يقول الله تبارك وتعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ﴾ (٢) .

الوقفة الرابعة :

حديث علي رضي الله عنه الذي ذكره المصنف حديث عظيم ، وفيه اللعن من الله لمن اتصف ببعض الصفات، ومنهم من ذبح لغير الله لأنه اعتدى على مقام الألوهية فأشرك في عبادة الله غير الله، ومنهم من لعن والديه وهما الأب والأم وإن عَلَوَا فيدخل في ذلك جميع الأجداد والجدات سواء من جهة الأب أو من جهة الأم، ولعن الوالدين قد يكون مباشرة بأن يلعن شخص والده أو والدته ، ويكون أيضاً بغير مباشرة كأن يلعن والدَ شخصٍ آخر فترجع هذه اللعنة إلى والده فكأنه لعن والده مباشرة والعياذ بالله، ولهذا قال رسول الله ﷺ: (**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، يلعن أبا الرجل فيلعن أباه، ويلعن أمه فيلعن أمه**)(٣).

ومنهم من آوى محدثاً فحماه ونصره أو تستّر عليه، لأن في ذلك

---

(١) سورة النحل ، الآية (١٠٦).

(٢) سورة النساء ، الآية (٤٨).

(٣) رواه البخاري في كتاب: الأدب، باب: لا يسب الرجل والديه ، برقم (٥٦٢٨).

تعاوناً على الإثم والعدوان .

ومنهم من غير منار الأرض وهي العلامات التي تفصل عقارات الناس وتبينها، وفي هذا تلبيس على الناس ومدعاة لقيام الخصومة بينهم فيما بعد، فالواجب على المسلم الحذر من كل هذه الأمور التي تسخط الله، نسأل الله العفو والعافية .

١٠- بابٌ لا يُذبحُ للّهِ بمكانٍ يُذبحُ فيهِ لِغَيْرِ اللّهِ.

وَقَوْلُ اللهِ تَعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة:١٠٨]. ذ

عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبلاً بِبُوانَةَ فسأَلَ النَّبِيُّ ﷺ فقالَ: «**هَلْ كَانَ فِيها وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟**» قَالُوا: لا. قَالَ: «**فَهَلْ كانَ فيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟**» قَالُوا: لا. فَقَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فإِنَّهُ لا وَفاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلا فِيمَا لا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ**»(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا.

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(لا تقم فيه) : أي لا تصلِ فيه .

(يحبون أن يتطهروا) : يشمل الطهارة الحسية في البدن والثوب والتنزه من النجاسات، وكذا الطهارة المعنوية بسلامة الصدر وقوة المراقبة لله.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٣١٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٥٥١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في اقتضاء الصراط المستقيم (٤٣٧/١) أصل هذا الحديث في الصحيحين. وهذا الإسناد على شرط الصحيحين، وإسناده كلهم ثقات مشاهير، وهو متصل بلا عنعنة.

(والله يحب المطهرين) : هذه المحبة التي أثبتها الله سبحانه لنفسه محبة حقيقية منه تبارك وتعالى للمطهرين، تثبت له من غير تشبيه لأحد من المخلوقين ولا تمثيل ولا تكييف لها ولا تعطيل لمعناها ، محبة تليق بجلاله وعظمته .

(بوانة) : مكان قريب من مدينة ينبع التي على البحر الأحمر بين مكة والمدينة .

(الوثن) : وهو ما عُبد من دون الله سواء أكان صورة أو غيرها .

(الجاهلية) : من الجهل ضد العلم، وهي عند الإطلاق بأل التعريف تعني ما كان قبل الإسلام .

(النذر): في اللغة : هو التكليف والإيجاب والإلزام، وفي الاصطلاح الشرعي: هو إلزام المكلف نفسه شيئاً لم يكن لازماً عليه بأصل الشرع . كأن يلزم نفسه بصلاة أو صدقة أو صيام وغيرها لم يكن لازماً عليه بأصل الشرع.

الوقفة الثانية:

أورد المصنف هذا الباب - بعد أن قرر في الباب السابق أنه لا يجوز الذبح بغير الله - ليجيب عن سؤال؛ وهو ما حكم الذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله ؟ والجواب عليه: أن هذا لا يجوز كما هو ظاهر من نصوص الباب.

فقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللَّهُ**

يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[١]، ثم قال بعدها : ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾، سبب نزولها أن المنافقين بنَوا مسجداً لمضارة المؤمنين بعد أن بنى المسلمون مسجد قباء، وليقيهم من الحر والبرد والمطر، وطلبوا من رسول ﷺ أن يأتيه ويصلي فيه ليلبسوا على الناس في ذلك، فنزلت هذه الآية على رسول ﷺ بأن يلزم المسجد الذي أسس على تقوى الله، ولا يصلِّي في مسجد الضرار هذا، ثم إن النبي ﷺ أمر بهدمه، وفي هذه الآية دليل أن المكان الذي يقصد فيه غير الله سبحانه لا يتعبد فيه لله، حيث إن المسلم قد يفعل فعلاً صحيحاً بمكان أو زمان يُفعل فيه محرم، ولهذا قطع سبحانه هذا الاشتباه بتحريم هذا الفعل، فدل على أن الغاية المشروعة لا يتوصل إليها إلا بوسيلة مشروعة .

الوقفة الثالثة :

الحديث الذي ذكره المصنف في الرجل الذي نذر أن يذبح إبلا ببوانة يستنبط منه عدة فوائد منها :

١- **حرمة التشبه بالكفار**، ولو كان هذا التشبه بحسن نية: فالمسلم يجب عليه أن يعتز بدينه كما أعزه الله سبحانه ورضي له هذا الدين، ففيه الخير والفلاح في الدنيا والآخرة، والتشبه بالكفار يكون بالاعتقاد مثل التشبه بالأعياد، ويكون بالسلوك غير السوي منهم، كالتشبه في الألبسة ولاسيما التي تحتوي على كتابات منافية للشرع، وكذا قصات الشعر وقد قال ﷺ : **(من تشبه بقوم فهو منهم)**[٢] ، وكثيراً ما كان يأمر ﷺ بمخالفة اليهود والمجوس والمشركين عامة.

---

(١) سورة التوبة (الآية:١٠٧) .

(٢) رواه أبو داود في كتاب: اللباس، باب: في لبس الشهرة، برقم (٤٠٣١)، وصححه الألباني في الإرواء (١٩٥/٥) .

٢- **البعد عن الوسائل المؤدية للشرك** وسد هذا الباب ؛ لئلا يقع المسلم في شيء من الشرك.

٣- **جواز أن يُخصص مكان بالنذر** بشرط ألا يكون في هذا المكان ما يمنع شرعاً من عمل المنذور فيه كأن يكون محلاً للمحرمات.

الوقفة الرابعة :

ينقسم النذر، من حيث الطاعة والمعصية إلى قسمين:

أ- **النذر لفعل طاعة**: كقول الشخص: إن شفى الله مريضي فسأصلي لله عشر ركعات نافلة، أو إن نجحت في الامتحان فسأذبح ذبيحة لله وأوزعها على المساكين، فهذه الذبيحة وصلاة عشر ركعات نافلة ليست بلازمة عليه بالتكليف الشرعي لكنه ألزم نفسه هذا النذر فيجب الوفاء به؛ لحديث النبي ﷺ **(من نذر أن يطيع الله فليطعه)**[1] ، والأمر يقتضي الوجوب على المكلف .

ب- **النذر لفعل معصية**: كقول القائل: إن شفيتُ من المرض لأشربن كأس خمر أو لأشربن الدخان .

فهذا النوع لا يجوز الوفاء به لحديث الباب، ولحديث: **(من نذر أن يعصي الله فلا يعصه)**[2] ، وقد قال بعض أهل العلم: إنه يكفّر كفارة يمين تحللاً من هذا النذر .

---

(١) يأتي تخريجه في الباب الذي يليه إن شاء الله .

(٢) يأتي تخريجه في الباب الذي يليه إن شاء الله .

١١- بابٌ مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغيرِ اللّهِ

وقولُ اللهِ تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

وقولُهُ تَعالَى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وَفي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يعصِيَ الله فَلا يَعْصِه**»[(١)].

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب :

(النذر) : لغة : هو الإيجاب والإلزام ، وفي الاصطلاح الشرعي: هو إلزام المكلف - وهو العاقل البالغ - نفسه ما ليس واجباً عليه. وقد سبق في الباب الذي قبله.

(نفقة): النفقة هي بذل المال للنفس أو للغير، وتكون في الخير والشر .

الوقفة الثانية:

هذا الباب تواصل مع الأبواب السابقة فيما يقدح في التوحيد ويناقضه، وقد تكلم المؤلف فيما قبله عن الذبح لغير الله جل شأنه، وهنا يتكلم - رحمه الله - عن عبادة لا يجوز صرفها إلا لله تبارك وتعالى وهي النذر .

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٦٩٦) ومسلم (رقم ١٦٤١) نحو هذا اللفظ .

فالله سبحانه كلّف الناس بتكاليف شرعية، وهذه التكاليف عبادة مبنية على أركان وواجبات لابد للعبد من القيام بها، فيأتي المكلف ليلزم نفسه بعبادة أو بأشياء أخرى ليست واجبة في الشرع، فلم يوجبها الله سبحانه عليه، فالشرع مثلاً لم يكلفنا سوى خمس صلوات في اليوم والليلة فيأتي شخص فيقول : إن نجحت في الامتحان صليت شهراً كاملاً كل يوم عشر ركعات، فهذه العشر ركعات لم تكن واجبة عليه في أصل الشرع، وإنما أوجبها على نفسه فهذا هو النذر .

وأهل العلم مختلفون في حكمه هل هو حرام أم مكروه؟ والجمهور على كراهة ابتدائه، ولكنه واجب الأداء إن نذر فعل طاعة.

هذا هو النذر. فإذا صرفه الإنسان لغير الله عز وجل فقال : نذرت للضريح الفلاني أو للولي الفلاني فهذا النذر شرك أكبر مخرج من ملة الإسلام ؛ لأنها صرف عبادة لغير الله، ودليل ذلك آية الباب وهي قوله عز وجل : ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (١) والظالمون هم المشركون بالله عز وجل الذين يصرفون هذه الأمور لغيره سبحانه، وقد سمى الله سبحانه الشرك به ظلماً فقال سبحانه:﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٢) .

ولقد كان النذر للأولياء والصالحين منتشراً في الجاهلية، ومع الأسف وقع في هذه الأمة في بعض الأقطار شيء من ذلك فيقول قائلهم: يا سيدي

---

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٧٠).

(٢) سورة لقمان ، الآية (١٣).

فلان إن رُزِقت بمولود جَعلتُ لك كذا، أو ذبحت عند ضريحك كبشاً ونحوه . العاقل يعرف، أن الميت انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له، كما أخبر النبي ﷺ فهذا الميت هو محتاج لدعاء الإنسان الحي لا العكس. فالواجب ترك الوسائط مع الله. والتوجه بدعائه ورجائه إلى الله تبارك وتعالى مباشرة، وسيجد الإنسان الخير الكثير.

الوقفة الثالثة: أقسام النذر : من حيث صياغته وحكمه.

الأول : النذر المطلق ، فيقول الناذر : لله عليّ نذرٌ ، ولا يحدد شيئاً يفعله، فهذا عليه كفارة يمين، وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿**لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**﴾ [(١)] وجاء في الحديث : (**من نذر نذراً لم يسمِّه فكفارته كفارة يمين**) [(٢)] .

الثاني: نذر اللجاج والغضب، وهو الذي يكون في معرض غضب الإنسان وخصومته مع الآخرين، فيعلق الناذر نذره على شرط يقصد المنع منه مثلاً أو الحث ، فيختصم رجلان فيقول أحدهما على سبيل الغضب: إذا لم تدخل البيت فعليّ صيام خمسة أيام. وهذا الناذر يخير بين كفارة اليمين وبين تنفيذ هذا النذر، وقد ورد في الأثر : (**لا نذر في الغضب وكفارته كفارة**

---

(١) سورة المائدة ، آية (٨٩).

(٢) رواه أبو داود في كتاب : الأيمان والنذور، باب: من نذر أن يتصدق بماله، برقم (٣٣٢٢)، ورواه ابن ماجه في كتاب : الكفارات ، باب : من نذر نذراً لم يسمه، برقم (٢١٢٧).

يمين) [١] .

الثالث: النذر لفعل مباح، كقول القائل: لله علي نذر أن ألبس ثوبي ، وقد قال بعض أهل العلم أن هذا مخير بين أن يفعل ما نذره أو يكفر كفارة يمين، والأقرب -والله أعلم- أنه يجب عليه تنفيذ ما قاله .

الرابع: النذر لفعل معصية : كأن يقول: لله علي نذر إذا جاء صديقي أن نسمع الغناء، فهذا يحرم الوفاء به باتفاق العلماء، وقد قال بعض العلماء: يجب عليه كفارة يمين محللاً من هذا النذر [٢] .

الخامس: النذر لفعل طاعة، ويكون معلقاً على شرط كقول الناذر : إن نجحت في الامتحان فعليّ صوم يومٍ ، فإن وجد الشرط وجب الوفاء به، وقد يكون غير معلق فيقول: علي صوم يوم فيجب عليه الوفاء به .

الوقفة الرابعة:

جاء عن النبي ﷺ أنه قال: **(إن النذر لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل)** [٣] فالله كلف الناس بطاعات وعبادات عليهم أن يقوموا بها ، وما لم يكلفهم ليس عليهم أن يكلفوا أنفسهم، ولكن ثمة صنف من الناس يظنون أن الأمر الطيب والمحمود لا يحصل إلا إذا ألزم نفسه بشيء فيه

---

(١) رواه النسائي في كتاب : الأيمان والنذور، باب:كفارة النذر، برقم (٣٧٨٢)، وضعفه الألباني في الإرواء برقم (٢٥٨٧).

(٢) انظر: المغني (١٣/٦٢٢).

(٣) رواه البخاري في كتاب : الأيمان والنذور، باب : الوفاء بالنذر، برقم (٦٣١٤)، ومسلم في كتاب: النذر، باب النهي عن النذر، برقم (١٦٣٩).

طاعة لله عز وجل، فمثلاً يقول: إن شفى الله مريضي فسأنحر جملاً، فقد يظن أن قوله: نحرت جملاً أنه سبب للشفاء وهذا ليس بصحيح ؛ لأن ما قدره الله كائن وحاصل، ولكن على الإنسان أن يلجأ إلى الله بالدعاء، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١) ولا ينبغي للمسلم أن يشق على نفسه بهذا النذر الذي قد يصعب عليه تنفيذ ما نذر به أو يفتر ويتراخى عنه، وقد يبحث عن الرخص في ذلك ولا يجد فيكون الأمر عليه عسيراً .

(١) سورة البقرة ، الآية (١٨٦).

١٢- بابٌ مِنَ الشِّرْكِ الاستِعَاذةُ بغَيْرِ اللّهِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رضي اللهُ عنها قَالتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ نزَلَ مَنْزِلاً فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. لَمْ يَضُرَّهُ شَيءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِه ذَلِكَ**»(١) رواه مسلمٌ.

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(يعوذون) : الاستعاذة هي الالتجاء والاعتصام مما يحذر من أمور الشر، أما الاستعانة فهو الاعتصام بأحد لطلب أمر فيه خير .

(رهقاً): أي خوفاً وذعراً وإثماً.

(كلمات الله): هي القرآن.

(التامات): الكاملات التي لا يلحقها نقصٌ ولا عيب .

الوقفة الثانية:

الاستعاذة من حيث حكمها تنقسم إلى قسمين :

أ - الاستعاذة المشروعة : وهي الاستعاذة والاعتصام والالتجاء إلى

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٨).

الله لدفع الشرور وكل ما يخافه الإنسان ، من الإنس والجن والحيوان المفترس، وكذا الخوف من المستقبل.

ب - **الاستعاذة الممنوعة** : وهي الاستعاذة والالتجاء لغير الله عز وجل مهما كان وعلت منزلته في أمر لا يقدر عليه إلا الله، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة ؛ لأنه صرف عبادة لغير الله عز وجل مما لا يقدر عليه إلا الله .

ولكن إذا كان المخلوق يقدر عليه فيجوز الاستغاثة به، كالرجل الذي يُستغاث به ليناصر قومه على الأعداء إن كان قادراً عليه، أو الذي يذهب لأمير ليستجيره من رجل يريد قتله ، أو خشي من الغرق فيستغيث بمن يستطيع إنقاذه منه.

الوقفة الثالثة:

في قوله تعالى : ﴿**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً**﴾ (١) يحكي الله سبحانه عن أناس من الإنس يلجأون ويعتصمون ببعض الجن يعرفونهم أو لا يعرفونهم ظناً منهم أن هؤلاء الجن قادرون على أن يعصموهم مما يخافه الإنس، فبين الله سبحانه وتعالى أن من الآثار السيئة في الدنيا لهذا الالتجاء الغير مشروع هو أن الجن تمكنوا من الإنس وزادوهم خوفاً وذعراً أكثر مما أصابهم من قبل .

وكان الواجب الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى كما قال : ﴿**وَإِمَّا**

---

(١) سورة الجن ، الآية (٦).

يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ (١) وقال تبارك وتعالى أيضاً: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾(٢) ولذا جاءت الشريعة بنصوص كثيرة من لازمها أن يعصم الإنسان من جميع الشرور بإذن الله، ومنها:

- ما جاء في قصة أبي هريرة مع الشيطان حينما كان يحفظ الزكاة فجاءه الشيطان ليأخذ منها فمسكه أبو هريرة، ثم خلى سبيله لما علم شدة حاجته، ففعل معه ذلك ثلاث ليالٍ، وفي الثالثة لما هم أن يرفع أمره إلى النبي ﷺ قال له الشيطان: (إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح) فخلى أبو هريرة سبيله، فلما عرض ذلك على النبي ﷺ قال : (**أما إنه قد صدقك وهو كذوب**) (٣) .
- ما رواه عقبة ﷺ أن النبي ﷺ قال: عن سورتي الفلق والناس (**ما سأل سائل ولا استعاذ مستعيذ بمثلهما**) (٤) .
- ومنها ما جاء عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال: (**من قرأ بالآيتين من**

---

(١) سورة الأعراف ، الآية (٢٠٠).

(٢) سورة المؤمنون ، الآيتان (٩٧-٩٨).

(٣) رواه البخاري في كتاب : الوكالة ، باب من وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الوكيل برقم (٢١٨٧).

(٤) رواه النسائي في كتاب: الاستعاذة ، برقم (٥٣٤٣) ، وحسنه الألباني في الجامع برقم (١٣٩٠٨)

آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه)[١] يعني كفتاه من جميع الشرور والآثام.

- وما رواه عثمان بن عفان ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **(ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات، لم يضره شيء)**[٢].
- وكذلك ما جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال **(من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك)**[٣].

إلى غير ذلك من الأوراد والأحصان الشرعية الواقية من شر المخلوقات ، فمن حافظ على مثل هذه الأوراد كان حرياً أن يُحفظ في نفسه وعرضه وولده وماله، كما أن هذه الأوراد سبب للطمأنينة والأمن المعنوي والحسي، ومن التحصين تحقيق التوحيد وصدق الالتجاء إلى الله، وهو

(١) رواه البخاري في كتاب: فضائل القرآن ، باب: فضل سورة البقرة، برقم (٤٧٢٢).

(٢) رواه الترمذي في كتاب: الديوان، باب: الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى، برقم (٣٣٨٨).

(٣) رواه البخاري في كتاب : الدعوات ، باب فضل التهليل برقم (٦٠٤٠) ، ورواه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: فضل التهليل، برقم (٢٦٩١).

سبب للطمأنينة وعدم الخوف أيضاً، لذا قال تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [1] ولا شك أن الراحة النفسية مطلب عزيز يتمناه كل من في الدنيا، ونحن المسلمين عندنا الدواء العاجل الناجح لهذا الأمر الذي تبحث عنه الدول والمجتمعات والأفراد بأموالهم وحيلهم وطبهم ، فعندنا قوة التعلق بالله عز وجل، ومنها الاستعاذة به تبارك وتعالى من الشرور والآثار كلها، فيحصل ما تصبو إليه المجتمعات وترجوه .

الوقفة الرابعة:

في حديث خولة رضي الله عنها الذي أورده المصنف إشارة إلى أهمية هذا الذكر، وأن المسلم أينما حل؛ سواء أكان في بيت، أو شقة مستأجرة، أو في البر، أو ركب سيارته، أن يقول هذا الذكر العظيم الذي سيكون بإذن الله حامياً له، والواجب عليه أيضاً أن يُعَلِّم ذريته، وأسرته هذا الذكر ليتعودوا عليه ، وله أن يعوذ أبناءه بنفسه كما فعل النبي ﷺ مع الحسن والحسين، وإن قال هذا الدعاء في غير هذه المواضع فلا بأس بذلك؛ إذ هو من الدعاء والدعاء لله تبارك وتعالى يكون في كل الأحوال . وقد روي عن الإمام أحمد - رحمه الله - أنه استدل بهذا الحديث على أن كلام الله عز وجل صفة من صفاته غير مخلوق، إذ لو كان مخلوقاً ما استعاذ به النبي ﷺ .

الوقفة الخامسة :

من ترك الالتجاء إلى الله والاستعاذة به، ولجأ إلى غيره من الجن

(١) سورة الأنعام، الآية (٨٢).

ونحوهم فقد وقع في أضرار عظيمة، منها:

١ - **أنه قد يقع في الشرك والاستعاذة بغير الله عز وجل، وهو شرك أكبر مخرج من الملة**، وهذا من أقبح الأمور وأشنعها .

٢ - **عدم حصول المأمول من دفع الشرور** والتي لا يقدر عليها العبد، وذلك أن المطلوب لا يحصل إلا إذا قدّر الله وقوعه ، فعليه من لجأ إلى الجن فلا يحصل له المطلوب إلا بإرادة الله سبحانه، فليطلب ويستعذ بالله مباشرة .

٣ - **أن في الاستعاذة بغير الله زيادة الخوف** والهلع وعدم الطمأنينة والأمن ، إذ الأمن والطمأنينة لا تحصل إلا من الله عز وجل وبالعوامل التي وردت في الشرع، ومنها: قراءة القرآن ولا سيما المعوذتين وآية الكرسي والآيتين الأخيرتين من سورة البقرة، وكذلك ذكر الله وقوة التعلق به كلها عاصمة بإذن الله من شر المخلوقات كما في حديث الباب.

٤ - **التخبط في الطرق المظلمة** التي يتنقل فيها هذا المسكين الذي يلتجئ إلى غير الله عز وجل ، فتراه يلتجئ تارة إلى القبور والأضرحة، وتارة إلى الأشجار والأحجار، وتارة إلى الجن والشياطين، مما يظن أنه قادر على دفع الشرعية، وقد يلتجلي أخيراً إلى الانتحار بقتل نفسه والعياذ بالله ، أو إدمان المخدرات، وقد ينتهي به الأمر إلى الجنون وتخريف العقل ، ولذا نجد كثرة المنتحرين في هذا العصر من الكفار نظراً لبعدهم عن الله سبحانه .

١٣- بابٌ مِنَ الشِّرْكِ أنْ يَسْتَغِيثَ بغيرِ اللهِ أوْ يدعو غيرهُ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس ١٠٦- ١٠٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥، ٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ [النمل: ٦٢].

وَرَوَى الطَّبَرانِيُّ بِإِسْنَادِهِ؛ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي المُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُم: قُومُوا بِنا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ الله ﷺ مِنْ هذا المُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّهُ لا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ**»[1].

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير وأحمد (٣١٧/٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٢/١٠): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث.

الوقفة الأولى

شرح مفردات الباب:

(الاستغاثة) : هي طلب الغوث بإزالة الشدة التي حصلت للإنسان .

(الدعاء) : مجرد الطلب، والفرق بين الاستغاثة والدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا بإزالة الشدة في المكروب، والدعاء يكون عاماً سواء في حالة الشدة والكرب أو في عدمها.

(الظالمين): المراد بالظلم هنا الشرك؛ لأن الشرك أعظم الظلم، فمن دعا غير الله فقد أشرك.

(يمسَسْك) : أي يُصِبك .

(فابتغوا) : أي اطلبوا .

(غافلون): لا يشعرون بدعاء من دعاهم؛ لأنهم إما أموات أو جماد أو ملائكة مشغولون بما خلقوا له .

الوقفة الثانية :

بيّن المصنف - رحمه الله - أن الاستغاثة بغير الله شرك، وأن دعاء غير الله شرك، وهذا الشرك المقصود به الشرك الأكبر؛ لأن الاستغاثة والدعاء مما يجب صرفه لله سبحانه، فأشرك هذا الصارف مع الله غيره، فمن صرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله فقد أشرك.

وعطف الدعاء على الاستغاثة من باب عطف العام على الخاص، وقد بيّن أن الاستغاثة طلب الغوث بإزالة الشدة فلا تكون إلا من المكروب، أما

الدعاء فهو أعم لأنه يكون في المكروب وغيره، فبينهما عموم وخصوص مطلق؛ فكل استغاثة دعاء وليس كل دعاء استغاثة، والمراد تحريم الاستغاثة بغير الله وتحريم دعاء غيره من الأموات والغائبين، وأنهما من الشرك الأكبر.

الوقفة الثالثة:

الاستغاثة من حيث حكمها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: الاستغاثة الواجبة: وهي التي تطلب من الله وحده لا شريك له، فهي عبادة يجب صرفها لله سبحانه.

القسم الثاني: الاستغاثة الجائزة: وهي الاستغاثة بالحي الحاضر القادر على نصرة المستغيث، وهذا مثل الغريق الذي يستغيث بشخص ينقذه من الغرق وهو قادر على ذلك، فهذه استغاثة جائزة .

القسم الثالث: الاستغاثة المحرمة: وهي الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ مثل الاستغاثة بالأموات أو الغائبين، فهذه استغاثة محرمة بل هي شرك أكبر كما سبق.

أما الدعاء فهو نوعان:

النوع الأول: دعاء عبادة، وهو التقرب إلى الله جل وعلا بالأعمال الصالحة؛ كالتقرب إلى الله بالصلوات هو من الدعاء، وكذلك التقرب إلى الله بالأذكار وبالثناء عليه، كل ذلك من الدعاء، وكذلك الصيام وغيرها من الأعمال الصالحة تدخل في معنى الدعاء العام وهو دعاء العبادة .

النوع الثاني: وهو **المعنى الأخص** وهو دعاء المسألة بأن يطلب أن يرفع عنه ضراً أو يجلب له نفعاً، فإن كان هذا الدعاء لله فهو أمر عبادي

مشروع، بل هو مندوب إليه، والله سبحانه حث عليه وحث عليه رسوله ﷺ .

فالداعي يسأل ربه شيئاً من أمور الدنيا كالخير والرزق والأمن، أو يسأله سبحانه أمراً من أمور الآخرة من المغفرة ودخول الجنة وهو أعظم .

فإذا كان هذا الدعاء لغير الله فهو شرك أكبر؛ لأنه صرف نوعاً من أنواع العبادة لغيرا لله، كمن يدعو الأموات والأضرحة فيقول: يا سيدي فلان اشفِ مريضي ويا وليّي فلان ارزقني، فهذا شرك أكبر نعوذ بالله من الضلال .

الوقفة الرابعة:

حكم الاستغاثة بالرسول ﷺ :

تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول: ما كان في حياته ويقدر عليه صلوات الله وسلامه عليه فهذه استغاثة جائزة ، أما إذا كان لا يقدر عليها الرسول عليه الصلاة والسلام وإنما يقدر عليه الله سبحانه فهذه من الشرك، ولذلك قال ﷺ : (**إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله**) .

القسم الثاني: الاستغاثة بالرسول ﷺ بعد مماته، فهذه استغاثة محرمة؛ لأنه ﷺ بعد مماته لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً أن يملك لغيره، فإذا كان هذا في حق رسول الله ﷺ فغيره من باب أولى. بصّر الله تعالى الجميع بالحق والعمل به .

١٤- بابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩١- ١٩٢].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رُبَاعِيَّتُهُ فَقَالَ: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ**» فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[(١)] [آل عمران: ١٢٨].

وَفِيهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضي اللهُ عنهما - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ إِذا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيرةِ مِنَ الفَجْرِ: «**اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلاناً وَفُلاناً**»، بَعْدَ مَا يَقُول: «**سمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ**». فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[(٢)] وَفِي رِوَايةٍ: يَدْعُو على صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فنزلتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[(٣)]. وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة

---

(١) أخرجه البخاري معلقا (ص٧٧٢) في كتاب: المغازي، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ومسلم (رقم ١٧٩١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٦٩).

(٣) أخرجه البخاري مرسلاً عن سالم بن عبد الله بن عمر (رقم ٤٠٧٠)، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٣٦٦/٧): والثلاثة الذين سماهم قد أسلموا يوم الفتح، ولعل هذا هو السر في نزول قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

رَضِيَ اللهُ عنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤]. فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ – أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا – اشْتَرُوا أَنْفُسَكُم، لا أُغنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمطَّلِبِ، لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً»[1].

الوقفة الأولى

شرح مفردات الباب:

(قطمير) : القطمير هو اللفافة الرقيقة التي تكون على النواة .

(ولا ينبئك مثل خبير): معناه أنه لا يخبرك بالخبر مثل خبير به، والخبير العالم ببواطن الأمور.

(شج): الشج الجرح في الرأس وفي الوجه خاصة .

(الرباعية) : هما الأسنان اللذان يليان الثنايا.

(العشيرة) : عشيرة الرجل هم بنو أبيه .

(الأقربين): يعني الأقرب فالأقرب.

(اشتروا أنفسكم): أي خلصوها من العذاب بتوحيد الله، وطاعته فلا تعتمدوا على قرب نسبكم مني وعلى شرف نبيكم بين العرب.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم (٢٧٥٣) ومسلم (رقم ٢٠٦).

الوقفة الثانية :

لما ذكر - رحمه الله - الاستعاذة والاستغاثة بغير الله ذكر في هذا الباب البراهين الدالة على بطلان عبادة ما سوى الله لكي يجتنبها المسلم.

الوقفة الثالثة:

مع قوله تعالى: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ**﴾ (١) .

في هاتين الآيتين ذكر سبحانه البراهين الدالة على بطلان عبادة غير الله وهذه البراهين هي:

١ - "ما لا يخلق شيئاً" أنهم لا يقدرون على الخلق.

٢ - "وهم يُخلقون" أن هؤلاء المعبودين مع الله مخلوقون أصلاً فكيف يخلقون غيرهم.

٣ - "لا يستطيعون لهم نصراً" أنهم لا يستطيعون نصر من عبدوهم.

٤ - "ولا أنفسهم ينصرون" أنهم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم فضلاً عن أن ينصروا غيرهم؟!

الوقفة الرابعة :

مع قوله : ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ (٢) .

---

(١) سورة الأعراف ، الآيتان (١٩١-١٩٢).

(٢) سورة فاطر ، الآيتان (١٣-١٤).

بين الله تعالى في هاتين الآيتين أن هؤلاء المدعوين من دون الله لهم صفات تجعلهم لا يستحقون العبادة، وهذه الصفات هي:

١ - لا يملكون أدنى شيء حتى لو كان قطميراً .

٢ - أنهم لا يسمعون دعاءكم إما لأنهم أموات، أو ملائكة مشغولون بما يؤمرون به. وعلى فرض أنهم سمعوا دعاءكم لا يستجيبون لكم .

٣ - أنهم يوم القيامة يكونون لكم أعداء ويكفرون بشرككم.

الوقفة الخامسة :

مع حديث أنس ﷺ :"شج النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته..." الحديث.

وحديث ابن عمر رضي الله عنهما "أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع" الحديث، وحديث أبي هريرة ﷺ "قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه "وأنذر عشيرتك الأقربين" فقال ..." الحديث.

هذه الأحاديث الثلاثة فيها دلالة أن النبي ﷺ لا يملك أن يدفع عن نفسه الضر ولا يملك نفع أقرب الخلق إليه وأقرب الناس إليه، فالبشر كلهم محتاجون إلى الله، يقول الله عز وجل على لسان رسوله ﷺ : **﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**[1] .

فعلى الإنسان أن يلجأ إلى الله ولا يشرك معه غيره، فيتجه إلى الله

---

(١) سورة الأعراف، الآية (١٨٨).

وحده بالدعاء، ويطلب الرزق منه وتيسير الأمور له، فإن الأمر كله لله .

ويستفاد من الأحاديث أن الإنسان لا يدعو على من ألحق به الضرر ويلعنه ويشتمه، وإنما يقول: اللهم اكفنيه بما شئت، فيجعل الأمر لله سبحانه .

الوقفة السادسة :

يقع بعض الناس ممن ينتسب للإسلام في التقرب للأولياء والصالحين، فبيّنت الآيات الكريمة أنه لا يملك النفع والضر إلا الله، وأن الذين يدعون من دونه سواء كانوا أولياء أو صالحين أو غيرهم لا يستطيعون نفع أنفسهم، فكيف ينفعون غيرهم؟

ثم إذا كان رسول الله ﷺ وهو أفضل الخلق عند الله لا يملك من الأمر شيئاً فغيره من الأولياء والصالحين من باب أولى .

وعليه فيجب على المسلم أن يتجه إلى الله تعالى وحده لا شريك له، وقد أمر الله تعالى بذلك ، وهو قريب سبحانه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (١)

وقال سبحانه : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٢) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية (١٨٦).

(٢) سورة غافر، الآية (٦٠).

١٥- بابُ قوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾[سبأ: ٢٣].

في الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ في السَّماءِ ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بِأَجْنحتِهَا خُضعاناً لِقَوْلِهِ كأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾. فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، ومُسْتَرِقُ السَّمْعِ هكذا بعضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ». وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَّفَها وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ: «فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيها إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيها الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيها عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقيها، وَرُبَّما أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ فَيَكْذِبُ مَعَهَا مائَةَ كذْبَةٍ. فيُقالُ: أَلَيْسَ قَدْ قال لنا يومَ كَذَا وَكَذا: كَذا وَكَذا. فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّماءِ»[(١)].

وَعَنِ النَّواسِ بْنِ سمْعَانَ - رضي اللهُ عنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بالأَمْرِ تَكَلَّمَ الْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمواتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ» أَوْ قَالَ: «رَعْدَةٌ شَدِيدَةٌ خَوْفاً مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَواتِ صَعِقُوا وخَرُّوا لِلهِ سُجَّداً، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَه جِبْرِيل فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بما أَرَادَ. ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى المَلاَئِكَةِ. كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلائِكَتُهَا: مَاذا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ الحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. فَيَقُولُونَ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٠١).

كُلُّهم مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ. فَيَنْتَهي جِبْرِيلُ بِالْوَحْي إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»[(١)].

الوقفة الأولى

شرح مفردات الباب:

(الفزع) : الخوف المفاجئ .

(خضعاناً): أي خضوعاً.

(صفوان): هو الحجر الأملس الصلب، والسلسلة عليه يكون لها صوت عظيم.

(ينفذهم ذلك) : النفوذ هو الدخول في الشيء، ومنه نفذ السهم في الرمية أي دخل فيها.

(وصفه سفيان بكفه): أي أنها واحد فوق الثاني أي الأصابع.

(الشهاب): هو جزء منفصل من النجوم ثاقب قوي ينفذ فيما يصطدم به .

الوقفة الثانية :

هذا الباب الذي سماه المؤلف : "باب قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية ، يحكي عظمة الله عز وجل بذكر البراهين الدالة على أنه لا يستحق أحد أن يكون شريكاً مع الله جل وعلا .

كما يذكر طريقة استراق الجن لخبر السماء وكيفية معاقبة الله لهم، وكيف يؤدون ما استرقوه إلى السحرة والكهنة بعد أن يكذبوا معها مائة كذبة،

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (رقم ٢٠٦) وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٥١٥).

ومن ثمَّ يخبر بها الساحر أو الكاهن من عنده من الناس، فيتأثر الناس بهم ويخافون منهم ويصدقون أخبارهم، فهؤلاء الناس لديهم نقص في التوكل على الله ونقص في التوحيد ، فأراد المصنف - رحمه الله - أن يبين أنه مهما أتى به الكهان والسحرة مما استمعوه من الجن فهو ليس بصحيح، وسيأتي بيان ذلك.

الوقفة الثالثة:

مع قوله تعالى : ﴿**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾ (١) .

المراد هنا: أن الله سبحانه إذا قال قولاً فزع منه أهل السماوات وهم الملائكة عليهم السلام ، فالملائكة شديدو الخوف من الله عز وجل، وذلك لأنهم إذا سمعوا كلام الله صعقوا وفزعوا ثم يسألون : ماذا قال ربكم ، قالوا الحق .

ثم ذكر سبحانه وتعالى صفة العلو وصفة الكبير لمناسبتها لهذا المقام؛ لأن المجال والمقام هو مقام علو لله سبحانه . ولا شيء أكبر من الله تعالى .

فيستفاد من الآية:

١ - إثبات أنّ الملائكة تخاف من الله عز وجل؛ لقوله سبحانه: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ**﴾ [سبأ: ٢٣].

---

(١) سورة سبأ، الآية (٢٣).

٢ - إثبات صفة العلو لله جل وعلا .

٣ - إثبات صفة الكلام لله سبحانه ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبأ: ٢٣]. وأن كلامه حق. وإثبات الصفتين لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته سبحانه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف .

٤ - إثبات أن للملائكة قلوباً وعقولاً يفهمون بها (١).

الوقفة الرابعة:

مع قوله ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ : **(إذا قضى الله الأمر في السماء...)**.

هذا يفصل شيئاً مما ذُكر في شرح الآية السابقة .

قال ﷺ : **(إذا قضى الله الأمر في السماء)** أي إذا تكلم الله في الأمر في السماء يوحيه إلى جبريل وحينئذ تضرب الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله جل وعلا ، وهذا دليل على خضوع الملائكة لله سبحانه هيبة منه.

وقوله: **(كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك)**. في هذا تشبيه ما يحصل للملائكة من الخضوع بأجنحتها عندما تسمع كلامه عز وجل؛ كأنه سلسلة من الحديد إذا سقطت على صفوان، وهو الحجر الأملس - كما سبق معناه - فيصدر لها صوت .

فهذا الكلام يبلغ الملائكة ، قال: "فينفذهم ذلك" يعني **ينفذُ** القولُ الملائكة حتى يفزعوا منه، فإذا ذهب الفزع انتبهوا ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ

(١) ينظر: القول المفيد (٣٠٩/١).

قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣] .

وهنا يأتي دور الجن مسترقي السمع حيث يكون بعضهم فوق بعض حتى يصلوا إلى السماء، فآخرهم يسمع هذه الكلمة فيلقيها إلى من تحته، وهكذا حتى يلقونها على الأخير، ومن ثم تلقى على الساحر أو الكاهن، وبعد بعثة محمد ﷺ عاقبهم الله عز وجل بالشهب المحرقة، فقد يدركهم قبل أن تلقى على الساحر والكاهن وقد لا يدركهم، فيكذب معها الساحر والكاهن مائة كذبة، فيتناقل الناس ذلك، فقد يصدق خبره؛ لأنه أمر جاء من السماء، ولكن نسبة هذا الخبر الصادق بالنسبة لما يخبر به الساحر من الأخبار واحد من مائة، ومع هذا تراهم يصدقونه بهذا الخبر الواحد ويتناسون تلك الأخبار المكذوبة ، وتجد هذا كثيراً في المجتمعات التي يقل فيها الدين والعلم ويعم فيها الجهل ، فيقال: فلان يعلم الغيب وأخباره صادقة وهكذا .

الوقفة الخامسة:

مع حديث النواس بن سمعان "إذا أراد الله أن يوحي بالأمر" الحديث.

في هذا الحديث بيان لأمر مهم؛ وهو عظمة كلام الله عز وجل عندما يلقى على جبريل عليه السلام وعلى عامة الملائكة .

قوله: "تكلم الوحي" فيه إثبات لصفة الكلام لله عز وجل . وقوله : (**أخذت السماوات منه رجفة أوقال رعدة شديدة خوفاً من الله**) فالسماوات على عظمتها وكبرها وعددها وما فيها من مخلوقات ترتجف لكلام الله .

والرجفة والرعدة كلها بمعنى واحد.

والحديث يدل على خوف الملائكة، وأنهم جند من جنود الله مطيعون له، لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وقوله: **(فيكون أول من يرفع رأسه جبريل)** هذا دليل على فضل جبريل عليه السلام على سائر الملائكة عليهم السلام .

وقوله : **(فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم يمّر جبريل على الملائكة كلما مرّ بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق)** فيه أيضاً دليل على أمانة جبريل حيث إنه لم يخبرهم بما أوحي له، وأيضاً ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل.

قوله: "أمره الله عز وجل" فيه إثبات العزة والجلال لله سبحانه .

الوقفة السادسة:

من أخطاء الناس في هذا الباب.

من الناس من يتردد على هؤلاء السحرة والكهنة ومدعي الغيب ظناً منهم أن عندهم شيئاً من علم الغيب حتى يعرفوا ما غُيب عنهم في المستقبل.

وقد تبين من خلال وقفات هذا الباب كيفية وصول العلم لهذا الساحر أو الكاهن، ولو كان يعلم الغيب حقيقة لماذا لا يسترق الأخبار لنفسه؟! فعندما يقبض على أحد هؤلاء الكذابين يقتل أو يجلد أو يسجن فلماذا لم ينفع نفسه قبل أن ينفع غيره؟! .

وعندما يدعي أن المنطقة الفلانية سترتفع أسعارها أو نحو ذلك فلماذا يخبر غيره ولا يسارع هو لشراء هذه الأرض المزعومة؟!، ولو فتشت

عن حاله لوجدته يسكن الأماكن القذرة التي لا تنبئ بآدميته فضلاً عن أن يكون من أعالي الناس، فلِمَ لا ينقذ نفسه من هذه الأماكن ويسكن أعالي القصور؟! فعجباً من أولئك الذين يترددون على هؤلاء الذين لم ينفعوا أنفسهم حتى ينفعوا غيرهم!! فعلى المسلم أن يتجنب هؤلاء السحرة والكهان والمشعوذين، وأن يلجأ إلى الله تعالى في كل أموره فيسلم دينه ودنياه وآخرته.

١٦- بَابُ الشَّفَاعَةِ

وَقَوْلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

وَقَوْلِهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ [الزمر: ٤٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وَقَوْلِه: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

قالَ أبُو العَبَّاسِ: نَفَى اللهُ عَمَّا سِوَاه كُلَّ مَا يَتعَلَّقُ بِهِ المُشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِه مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ منه، أَوْ يكونَ عَوْناً للهِ، ولم يَبْقَ إلاَّ الشفاعةُ، فبَيَّنَ أنها لا تَنْفَعُ إلاّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتي يَظُنُّها المُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ القِيامَةِ كَمَا نَفَاهَا القُرآنُ، وَأَخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسجُدُ لِرَبِّهِ ويَحْمَدُهُ لاَ يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلاً. ثُمَّ يُقالُ له: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ[(١)]. وقَالَ له أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: مَنْ أَسْعَدُ الناسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لاَ إِله إلاَّ اللهُ خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٧٦) ومسلم (رقم ١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٩٩).

فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لأَهْلِ الإِخْلاَصِ بِإِذْنِ اللهِ، وَلاَ تَكُونُ لِمَنْ أَشْرك بِاللهِ. وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإِخْلاَصِ فَيَغْفِرُ لهم بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أُذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ، لِيُكْرِمَهُ وَيَنَالَ الْمَقَامَ الْمحْمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ الَّتي نَفَاها القُرآنُ مَا كَانَ فيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بإِذْنِهِ في مَوَاضِعَ. وَقَدْ بَيَّنَ النبيُّ ﷺ أَنَّهَا لاَ تَكُونُ إلاَّ لأَهلِ التَّوْحِيدِ وَالإِخْلاصِ. انتهى كلامُهُ.

الوقفة الأولي:

شرح مفردات الباب:

(الشفاعة) لغة: اسم مِن شفع يشفع، إذا جعل الشيء اثنين، وهو ضد الوتر.

اصطلاحاً: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة .

(وأنذر به) : الإنذار هو الإعلام المتضمن للتخويف.

(مثقال ذرة): الذرة واحدة الذر، وهي صغار النمل، يضرب بها المثل في الصغر والقلة.

الوقفة الثانية:

ذكر المصنف -رحمه الله- هذا الباب للرد على المشركين الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين ويدعونهم ويزعمون أنهم يشفعون لهم عند الله، فبين المصنف أن هذه العبادة وهذا الزعم غير صحيح، وأن هذا الدعاء وهذه الشفاعة لا تنفع عند الله. بل الذي ينفع هو عبادته وحده دون

سواه، أما الشفاعة الحقة الصحيحة هي ما يأذن بها الله سبحانه وتعالى.

الوقفة الثالثة:

تقسم الشفاعة إلى قسمين :

١- **الشفاعة المثبتة**: وهي التي تطلب من الله –جل وعلا- فيما لا يقدر عليه إلا الله، **ولها شرطان :**

أ - إذن الله للشافع أن يشفع .

ب - رضاه عن المشفوع له .

مثالها: شفاعة النبي ﷺ العظمى في أهل الموقف، والقصة مذكورة في الباب.

وهناك نوع من الشفاعة المثبتة تطلب من المخلوق فيما قدر عليه .

مثالها: طالب يريد دخول الجامعة ولم يقبل وهو مستحق لها، فيذهب إلى مسئول في الجامعة ليشفع له للقبول فيها .

٢- **الشفاعة المنفية**: هي التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

مثالها: أن يطلب إنسان من صاحب قبر أو ضريح فيطلب منه أن يشفيه من مرضه أو يرزقه الولد .

فهذه شفاعة لا تجوز بل هي من الشرك بالله عز وجل ؛ لأن هذا لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى .

الوقفة الرابعة:

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [الأنعام: ٥١]..

يخاطب الله جل وعلا رسوله ﷺ بأن ينذر بالقرآن: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ ﴾، يعني يوم الحشر وهو يوم البعث: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ من دون الله (وَلِيٌّ) الولي الناصر (وَلَا شَفِيعٌ) الشفيع هذا الذي سيتوسط لهم، فلا يحل لهم إلا خوفهم من الله وعملهم بالقرآن، فالشفاعة لا تنفع إلا من عند الله .

والآيات التي ذكرها المصنف -رحمه الله- دلت على ثلاثة أمور:

الأول: أن الشفاعة ملك لله -عز وجل- ﴿**قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا** ﴾.

الثاني: أن الشفاعة لا تنفع إلا بإذن الله ﴿**مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ** ﴾.

الثالث: لا تنفع الشفاعة إلا لمن رضي الله عنه﴿**وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى**﴾ .

الوقفة الخامسة:

أنواع الشفاعة:

١- الشفاعة الخاصة بالنبي ﷺ وهي أنواع .

أ- الشفاعة العظمى في أهل الموقف، وهي المقام المحمود الذي وعده الله به، وتفصيل هذه الشفاعة مذكورة في الباب .

ب-شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها .

جـ- شفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب .

٢- الشفاعة العامة له ﷺ ولجميع المؤمنين وهي أنواع:

أ- الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها .

ب- الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها، وهم العصاة من المسلمين الذين لم يستحقوا الخلود فيها .

جـ - الشفاعة في رفع درجات المؤمنين (١) .

الوقفة السادسة:

تلخيص لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- :

ذكر –رحمه الله- أولاً الشفاعة المنفية، وهي طلب الشفاعة مما يتعلق به المشركون.

ثم ذكر الشفاعة العظمى لنبينا ﷺ وأنها من نصيب أهل الإخلاص، وهم أهل التوحيد، ولا تكون لأهل الشرك .

ثم بين حقيقة الشفاعة بأنها إكرام للشافع ونفع للمشفوع له .

الوقفة السابعة :

مع حديث الشفاعة: أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده..." الحديث .

سميت شفاعته الشفاعة العظمى والكبرى؛ لأنه يشفع في أهل الموقف، ذلك الموقف العصيب عندما يبعث الناس من قبورهم حفاة عراة غرلاً الرجال مع النساء، كل يقول: نفسي نفسي، في وقت تدنو الشمس من الخلائق، حتى إن بعضهم يلجمه العرق إلجاماً ، وبعضهم يصل العرق إلى

---

(١) ينظر: القول المفيد (١/٣٣٣) .

ركبتيه، وبعضهم إلى كعبيه .

والناس في المحشر يريدون الخلاص من هذا الموقف العظيم الذي ينتقلون بعده إما إلى الجنة وإما إلى النار، فيبحثون عن من يشفع لهم، فيذهبون إلى الأنبياء فيعتذرون، حتى يصلوا إلى نبينا ﷺ فيطلبونها منه، فيقول: أنا لها أنا لها، فيذهب ويسجد لربه ويحمده، فيفتح له من المحامد مما لم يكن معروفاً ثم يقال له: "ارفع رأسك، وقل تسمع، وسل تعط، واشفع تشفع".

ثم أخبر ﷺ أن أسعد الناس بشفاعته من قال: لا إله إلا الله، ليس هكذا مجردة باللسان، وإنما يقولها خالصة من قلبه، ويعمل بمقتضاها غير ناقض لها بأي من النواقض .

الوقفة الثامنة:

مما ابتلي به الناس أنهم يطلبون وسائط ويطلبون شفعاء عند الله، وقد يكون هذا المطلوب من الجمادات أحياناً، أو من أناس ميتين، هم بحاجة إلى من يُهدي لهم عملاً صالحاً، و بحاجة إلى من يرأف بهم، فكيف تطلب منهم الشفاعة ؟!

ولا شك أن مثل هؤلاء على خطر عظيم وعلى خلل كبير، فكيف يطلب الشفاعة ممن ليس لهم شفاعة عند الله، وقد بين الله في كتابه أنه لا يشفع عنده إلا بإذنه، وأن هؤلاء الشفعاء الذين أذن لهم لا يشفعون إلا لمن ارتضاه سبحانه.

١٧- بابُ قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص: ٥٦].

وفي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ المُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ. فَقَالَ له: «**يَا عَمِّ، قُلْ: لاَ إِلَه إِلاَّ اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**». فَقَالاَ لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ، فَأَعَادَا. فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لاَ إِلَه إِلاَّ اللهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**». فَأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة:١١٣]. وَأَنْزَلَ اللهُ في أبي طالبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[1] [القصص: ٥٦].

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(إنك لا تهدي): الخطاب للنبي ﷺ ، والمقصود بالهداية هنا هداية التوفيق للإسلام.

(من أحببت): هدايته.

(لما حضرت أبا طالب الوفاة): أي علاماتها ومقدماتها .

(أحاجُّ): من المحاجّة، وهي بيان الحجة، أي أشهد لك بها عند الله .

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٦٠) ومسلم (رقم ٢٤).

(ملة عبدالمطلب): أي دين عبدالمطلب وهو الشرك وعبادة الأصنام .

الوقفة الثانية:

ذكر المصنف -رحمه الله- هذا الباب ليبين أن أفضل الخلق وهم الرسل وأفضلهم محمد ﷺ لا يملكون شيئاً من أمر الله إلا ما منحهم إياه. فهذا يدل على أن الأنبياء لا يملكون النفع والضر، وفيه رد على الذين يعتقدون في الصالحين النفع والضر، فإذا كان أفضل الرسل محمد ﷺ لا يملك ضراً ولا نفعاً فغيره من باب أولى .

الوقفة الثالثة:

الهداية نوعان:

الأولى: هداية التوفيق والإلهام والقبول بأن ينتقل الإنسان من الكفر إلى الإسلام ومن الضلال إلى الهداية، فهذه ليست للبشر، وإنما لله سبحانه وتعالى، وهي التي نفاها عن نبيه ﷺ في قوله: ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** ﴾.

فالله سبحانه هو القادر على هداية الإنسان للطريق المستقيم وإخراجه من الظلمة إلى النور، فهذه خاصة بالله سبحانه وتعالى، ولا يستطيعها أحد من الخلق؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** ﴾ .

الثانية: هداية الدلالة والبيان والإرشاد بمعنى توضيح طريق الهداية للناس، وما هم عليه من الخطأ، وما ينبغي أن يعملوه من الصواب، فتبين الصراط المستقيم وتبين دين الله جل وعلا، فهذه جائزة في حق المخلوقين، فعليهم أن يبينوا ويرشدوا ويدلوا على الصراط والطريق المستقيم.

فهذه الهداية تكون في حق البشر، وعلى رأسهم محمد ﷺ ، فهو الذي عناه الله سبحانه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾[١] .

فالعالم والداعية والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر والناصح والمرشد والمعلم كل هؤلاء يهدون الناس: يعني يبينون لهم طريق الهداية وطريق الاستقامة فهذا حق يجب أن يقوموا به، أما هداية التوفيق والقبول فهي لله سبحانه وتعالى، وعليه فعلى المسلم أن يسلك ما يجب عليه، فيدل الناس ويرشدهم إلى الطريق المستقيم ويوضح لهم الخير، ويحذرهم من الشرك، ويبين لهم ما كان واجباً عليهم، وما كان مستحباً لهم أن يعملوه، ويحذرهم مما كان محرماً عليهم ومما ينبغي أن يجتنبوه، فهذه مهمة النبي ﷺ، ومن بعده من العلماء والدعاة.

الوقفة الرابعة:

يجب أن نعلم أن أعظم الكلمات في هذه الدنيا هي شهادة التوحيد "لا إله إلا الله"، فينفي الإنسان جميع المعبودات، ويقر ويثبت العبادة لله سبحانه وتعالى، فلا معبود بحق إلا الله، فيجب على الإنسان أن يحيى على "لا إله إلا الله" ويموت على "لا إله إلا الله"؛ لذلك كان عليه الصلاة والسلام حريصاً أشد الحرص على أن يقول عمه أبو طالب هذه الكلمة فيقول له: (يا عم! **قل لا إله إلا الله كلمة أحاج بها عند الله**) فمن مات عليها دخل الجنة .

فمن لم يقل: لا إله إلا الله، وعاش بدونها لا تنفعه الأعمال الصالحة

---

(١) سورة الشورى ، الآية (٥٢) .

في ظاهرها، فهذا أبو طالب عمل أعمالاً عظيمة مع رسول الله ﷺ، لكن منطلقه من منطلق الحمية لابن أخيه فقط فلم تنفعه أعماله حينئذ، فلو كان الإنسان سخياً كريماً مقداماً دافعاً عن حياض الإسلام، وعن المسلمين حسن المعاشرة طيب المعاملة، ولم يكن ذلك منطلقاً من (لا إله إلا الله) لن تنفعه كل هذه الأعمال، ولو أنها نفعت أحداً بغير (لا إله إلا الله) لنفعت أبا طالب، فقد بين النبي ﷺ أنه أهون أهل النار عذاباً، يطأ جمرة في أخمص قدميه يغلي منهما دماغه، نسأل الله السلامة والعافية .

الوقفة الخامسة:

يخطئ كثير من الناس في مسألة الهداية؛ فنجد الأب يترك لأولاده الحبل على الغارب، بل يأتي لهم بعوامل ويهيئ لهم أسباباً تكون صارفة لهم عن الجادة والطريق المستقيم، وإذا قيل له: ابنك يعمل كذا وكذا! يقول حينئذ: إن الهداية بيد الله سبحانه، فهذا قد أخطأ وجانب الصواب في فعله، فلا شك أن الهداية بيد الله سبحانه وتعالى، ولكن على الإنسان أن يبذل الأسباب المعينة على الهداية فيبذل ما عليه، وهذه هي الدلالة والإرشاد والبيان كما بيّنا في وقفة سابقة، فيهيّئ لهم وسائل الخير ويحذرهم من وسائل الشر، ولا يلجأ إلى حيلة العاجز فيقول: الهداية من الله ولم يبذل الأسباب والوسائل المعنية لذلك، فهذا أخطأ الطريق وجانب الصواب.

١٨- بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهم هُوَ الْغُلُوُّ في الصَّالِحِينَ

وقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾[النساء: ١٧١].

في الصحيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]. قال: هَذهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحينَ من قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إلى قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصِبُوا إِلى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانوا يَجْلِسُونَ فيها أَنْصَاباً، وَسَمُّوها بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، ولَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ العِلْمُ عُبِدَتْ[(١)].

وقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: قَال غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ[(٢)].

وَعَنْ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «**لا تُطْرُوني كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ. إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»[(٣)] أَخْرَجاهُ.

---

(١)أخرجه البخاري (رقم ٤٩٢٠).

(٢)انظر: إغاثة اللهفان (١/١٨٤).

(٣)أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٥).

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ»(١).

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعونَ». قَالَهَا ثَلاثاً(٢).

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(الغلو): مجاوزة الحد، والإفراط في التعظيم لشخص أو مسألة، سواء بالقول أو الاعتقاد.

(لا تذرن): أي لا تتركوا عبادة آلهتكم.

(وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسرا): كما فسرها ابن عباس أنها أسماء رجال صالحين من قوم نوح.

(الأنصاب): جمع نُصُب، وكل ما ينصب من حجر أو نحوه مما يعظم.

(لا تطروني): من الاطراء وهو المبالغة في المدح، والمراد هنا: أي تبالغوا في مدحي والثناء عليّ، فتضعوني في منزلة غير المنزلة التي أنزلني

---

(١)أخرجه الإمام أحمد (١/٢١٥، ٣٤٧) والحاكم (١/٤٦٦) والبيهقي في سننه الكبرى (٥/١٢٧) وابن ماجه (رقم ٣٠٢٩) قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (١/٢٩٣): وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٦٨٠).

(٢)أخرجه مسلم (رقم ٢٦٧٠).

الله إياها .

(المتنطعون) : التنطع هو التعمق والتكلف والتشدق ومجاوزة الحد في القول أو الفعل.

الوقفة الثانية:

قرر المصنف في الأبواب السابقة جملة من أبواب التوحيد وبيان فضله وآثاره ووجوب الالتزام به ، ثم بيّن بعض القوادح في التوحيد ، وهنا في هذا الباب يبين رحمه الله أن من أهم الأسباب التي جعلت بعض الناس ينحرفون عن التوحيد هو الغلو في الصالحين، وذلك بإنزالهم فوق منازلهم ، بحيث يعطون منزلة تضاهي منزلة الرب عز وجل، فأشركوا مع الله غيره.

فلو مات رجل صالح ثم غلا فيه بعض الناس فأخذوا يتوسلون به ، يقولون: يا فلان اشفع لنا، يا فلان اشف مريضنا، يا فلان ارزقنا ولداً أو مالاً، فما الفرق هنا بين هذا الكلام وبين من يعبد غير الله عز وجل؟!

لقد غاب عن هذا الذي توسل وغلا في هؤلاء أنهم أموات لا ينفعون أنفسهم، فكيف ينفعون غيرهم.؟

الوقفة الثالثة:

إن الغلو في الأشخاص له عواقب وخيمة، فكثيراً ما يعمي عن أخذ الحق والهدى، فلا يقبل هذا الغالي أيَّ حق جاء به الشرع إن كان يخالف من غلا فيه، ولذلك تجد بعض الناس لا يستمع إلا لأشخاص معينين غلا فيهم، ولا يستمع إلى غيرهم بناء على غلوه بأولئك ، وهذا يصد عن الحق، ويوقع في التعصب المذموم، وربما الانحراف عن جادة الصواب، وشاهد

هذا كفار قريش بغلوهم في آلهتهم وتعصبهم لما عليه الآباء والأجداد، فلم يسلم كثير منهم مع اقتناعهم بقوة وصحة ما جاء به النبي ﷺ .

الوقفة الرابعة:

الآية الأولى التي أوردها المصنف خطاب لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ينبههم عن مجاوزة ما جاء في دينهم، وذلك بأن يغلوا في مسألة من المسائل أو شخص من الأشخاص فيفعلوا أكثر مما شرع لهم في الدين، ولذلك عقب سبحانه هذا النهي بقوله : ﴿ **وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقّ** ﴾ [١] فدل على أن الغلو في الدين هو قول على الله بغير حق، وقد وصل الغلو بالنصارى أن جعلوا عيسى عليه السلام ابناً لله فقالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، فكذبهم الله سبحانه بقوله: ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ** ﴾[٢] إن الغلو في مسائل الدين أمر مذموم، ولذا نجد بعضهم يحمل نفسه أمراً غير مشروع فيقع في المحذور ، ومن ذلك ما جاء قصة الثلاثة الذين قال أحدهم: أنا لا أتزوج النساء، وقال الآخر : أنا لا آكل اللحم، وقال الآخر : أنا أقوم الليل ولا أنام، وهم فعلوا هذا لأجل الزيادة في العمل والتفرغ له، فنهاهم النبي ﷺ عن هذا الصنيع الخارج عن أسس الدين فقال: **(ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)** [٣] .

---

(١) سورة النساء ، الآية (١٧١).

(٢) سورة المائدة ، الآية (٧٣).

(٣) رواه مسلم في كتاب: النكاح ، باب : استحباب النكاح ، برقم (١٤٠١).

من هذا الحديث نأخذ أن العبادات إذا غلا فيها الإنسان وتجاوز الحد فقد وقع في الذم ، ولذا فالواجب على المسلم الالتزام بالهدي النبوي، وعدم الغلو؛ لأن الغلو سبب للهلاك، كما جاء في الحديث الذي ذكره المصنف في هذا الباب ، وكونه سبباً للهلاك؛ لأنه خروج عن طاعة الله عز وجل، فإذا أمر الشارع بأمر معين فخذ به ولا تزدْ عليه شيئاً، فإن زدت عليه فكأنك تتهم الله تبارك وتعالى أو رسوله ﷺ بأنهم لم يبلغوك بالواجب أو ما هو في مصلحتك .

وما ذكر هنا من النهي عن الغلو لا يعني أن نفرط أو نتكاسل عن الفرائض والمستحبات ، أو نتساهل عن أداء العبادات على الوجه الكامل، ونقول: إن الإسلام نهى عن الغلو ، نعم الإسلام نهى عن الغلو وكذا نهى عن الجفاء والضعف ، فلهذا منهج الإسلام هو الوسط والاعتدال، والسماحة واليسر، وذلك مع أنفسنا وأهلينا وعامة الناس حتى في عباداتنا ومعاملاتنا ، ولذا جاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: **(إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا)** [١] .

ولا ريب أن للنفس إقبالاً على العمل الصالح وإدباراً وفتوراً عنه، ولذلك أمرنا حال الإقبال أن نربيها على ذلك ونزيد من الطاعات وفق المشروع، فمن كان يصلي الليل ثلاث ركعات فليصلِ خمساً أو سبعاً أو تسعاً أو إحدى عشرة ركعة، لكن لا يقوم الليل كله .

وفي حال فتور النفس عن العمل الصالح يعالج نفسه حتى لا ينقطع

(١) رواه البخاري في كتاب : الإيمان، باب : إن الدين يسر ، برقم (٣٩).

عن العبادة وعمل الخير ، ولذا جاء عن بعض الصحابة أنه كان يقول لأخيه: اجلس بنا نؤمن ساعة، أي نربي أنفسنا على الإقبال على طاعة الله وتقوية الإيمان .

الوقفة الخامسة:

تفسير ابن عباس رضي الله عنهما لقوله تعالى : ﴿**وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً**﴾ تفسير جلي ، فابن عباس رضي الله عنهما دعا له النبي ﷺ بقوله: (**اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل**) (١) أي تفسير القرآن ، ويذكر ابن عباس رضي الله عنهما أن الشيطان وسوس لقوم من نوح حتى صنعوا تماثيل لرجال صالحين ماتوا، ونصبوها على مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها، وسموها بأسمائهم ليتذكروهم ويقتدوا بهم، ففعل هؤلاء الجهلة هذه الفعلة ولكن لم يعبدوهم، حتى مات هذا الجيل وجاء من بعدهم بعد أن انتشر الجهل وقلّ العلم، فعبدوا هذه التماثيل من دون الله عز وجل، وقالوا: إن هذه التماثيل التي نصبها سلفنا لم توضع إلا للعبادة، فوقعوا في الشرك الأكبر.

وبهذا يتضح جلياً أن أساس الكفر هنا هو الغلو في الصالحين ، والشيطان لا يأتي للمسلم مباشرة فيقول له: اعبد فلاناً، ولكن يبدأ شيئاً فشيئاً حتى يوقع بني آدم في الشرك.

وللأسف أنه يوجد بعض مظاهر الغلو في الصالحين في بعض البلاد

---

(١) رواه أحمد في مسند ابن عباس، برقم (٢٣٩٧)، وصححه الألباني في السلسلة ، برقم (٢٥٨٩).

الإسلامية كما هو في الزمان الأول، مثل ما يُعرف عن البعض من الذهاب للولي الفلاني، وقد يكون هذا حقاً وليّاً من أولياء الله، وقد يكون وهماً كما هو واضح في بعض من تنسب لهم الولاية ، ولنفترض أنهم أولياء بحق لكننا نجد من المسلمين من يأتي على قبورهم طالبين العون والمدد والرزق والشفاء والولد من هؤلاء، وهذا بلا شك غلو في الصالحين، ومن صرف شيئاً من العبادة لهم فقد أشرك شركاً أكبر مخرجاً من الإسلام ، والغالب على هؤلاء هو الجهل، ولكن يوجد من له هوى وتعصب لهذه الأمور إما بسبب الآباء والأجداد وما كانوا يفعلونه فيكابرون في أخذ الحق، والبعض الآخر له مقاصد مادية في هذه الأمور المحرمة فقد يجني من هذه المزارات الأموال ، وقد يحصل على الجاه والمنصب من خلال هذه الأعمال.

إن على أهل العلم مسؤولية عظيمة في إرشاد هؤلاء وتوضيح الأمور لهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يذكروهم أن الله هو المتصرف في الأمور، والمجيب لدعوة الداعي، وهو سبحانه من يغير الأحوال بحكمته وقدرته ، وبذلك يتعلق الناس بربهم عز وجل فتصحَّح عقائدهم.

ثم إن على ولاة أمر المسلمين في مختلف البلدان مسئولية كبيرة في اجتثاث مثل هذه النصب والشركيات حتى لا تُضَل العامة، نسأل الله لهم التوفيق لكل ما فيه خير.

وثمة أمر ينبغي الإشارة له في هذا المقام، وهو أن بعض الناس يضع تمثالاً لابنه وبنته أو لأبيه في المجالس بصور مكبرة، وبخاصة إذا كانوا أمواتاً، وهذا طريق قد يوصل إلى الغلو فيهم وتعظيمهم ورفعهم عن منزلتهم

، فالواجب التنبه لهذا الأمر ومناصحة من يقوم به.

الوقفة السادسة:

في حديث عمر ﷺ نهى النبي ﷺ الناس أن ينزلوه فوق منزلته، ويمدحوه بما ليس فيه مما يكون لله عز وجل مدحاً أكثر مما يستحقه، كما فعلت النصارى بجعلهم نبيهم عيسى عليه السلام ثالث ثلاثة في العبودية بعد أن قالوا: إنه ابن الله، تعالى الله عما يقول الظالمون.

ولذلك جاءت الأساليب العديدة منه ﷺ من التحذير من فعل هؤلاء مع أنبيائهم وصالحيهم، تارة بالنهي المجرد، وتارة بلعنهم على فعلهم؛ كما سيأتي في الباب القادم.

ولكن هل يقدح هذا النهي في محبة الرسول ﷺ ؟ والجواب : أن هذا لا يقدح في محبته ﷺ ، حيث إن محبته ﷺ جزء من العقيدة التي يجب أن تصان عما يخدشها ، ولهذا أعلى المحبة هي محبة الله عز وجل ثم محبة النبي ﷺ، وذلك بطاعته فيما أمرنا به وترك ما نهانا عنه، والتقيد بأفعاله وأقواله ﷺ ؛ كما قال تبارك وتعالى حكاية عنه ﷺ : ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾(١) .

فإذا كان اتباع أوامر الرسول ﷺ يوصل لمحبة الله عز وجل فكذلك يوصل لمحبته ﷺ، ولكن كيف بالمسلم وهو يسمع نهيه ﷺ عن الغلو فيه وفي الصالحين، ويتجاهل ذلك ويترك أمره ﷺ وهو يدعي محبته، فالمحب لمن يحب مطيع. إن محبته ﷺ لا تكون حديثاً عابراً أو احتفالاً سنوياً، بل

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٣١).

بالالتزام بما أمر به وبتعظيم سنته والذب عنها .

إن بعض الناس يدعي محبة الرسول ﷺ وهو منكب على المعاصي والمهالك ، تاركاً العمل الصالح، فهذه دعوى مجردة باللسان يخالفها واقعه، نسأل الله تعالى لنا ولهم الهداية.

إن النهي عن الغلو في الصالحين لا يقدح أيضاً في محبتهم ، فالصالحون لهم حق في إنزالهم منازلهم وإكرامهم ومحبتهم، ولكن لا يعني هذا الغلو فيهم برفعهم عن درجتهم التي تنبغي لهم .

الوقفة السابعة :

يفيد حديث ابن مسعود ؓ أن التعمق في الأشياء فيما لا فائدة فيه تنطّع وتكلّف بالأقوال والأفعال وإلباس النفس ما ليس فيها، وهو أمر مذموم حتى في أمور العادات والأحوال الشخصية.

وللتنطع صور كثيرة منها:

- أن يتكلف الشخص في مشيته .
- أن يتشدق بالكلام ويتكلف الفصاحة وغريب الألفاظ.
- أن يتكلف في ثوبه ومظهره بما يكون خارجاً عن عادة الناس في اللباس والزينة.
- وكذلك يقوم بعمل ما هو خارج عن أعراف الناس وعاداتهم.
- وأوضح أنواع التنطع هو ما يكون في العبادات وهو المقصود هنا، وذلك بأن يزيد من العبادة ما ليس منها، أو يشدد على نفسه في أمر فيه سعة؛ كمن يصوم نفلاً في السفر وعليه المشقة الشديدة في ذلك، أو من يعلق حبلاً ليمسك به ليقوم عليه في صلاة الليل... فهذه أمور من التنطع التي جاء الشرع بالنهي عنها.

١٩- بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيفَ إذَا عَبدَهُ ؟!

في الصَّحيحِ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذكَرتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرضِ الحبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ: «**أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرجُلُ الصَّالِحُ، أَوِ العَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيه تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ**»[1]. فَهَؤلاَءِ جَمَعُوا بَيْنَ الفتنتين: فِتْنَةِ الْقُبُورِ وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ.

وَلَهُمَا عَنْهَا قَالَتْ: لَمَا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ والنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[2] يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَن يُتَّخَذَ مَسْجِداً. أخْرَجَاهُ.

ولِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «**إِنّي أَبْرَأُ إِلى اللهِ أَنْ يَكُونَ لي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً، كَما اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَليلاً. وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بكْرٍ خَلِيلاً. أَلاَ وإِنَّ مَنْ كانَ قَبْلكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيائِهِمْ**

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٤) ومسلم (رقم ٥٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٥) ومسلم (رقم ٥٣١).

مَسَاجِدَ، أَلَا فَلا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهاكُمْ عَنْ ذلِكَ»[١]. فَقَدْ نَهَى عَنْهُ في آخِرِ حَيَاتِهِ. ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّياقِ - مَنْ فَعَلَهُ. والصَّلاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذلِكَ وإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهَا: خُشي أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً. فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِداً. وكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلاةُ فيه فَقَدِ اتُّخِذَ مسجدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فيهِ يُسَمَّى مَسْجِداً، كَمَا قَالَ ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُورا»[٢].

وَلأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ مرفوعاً: «إِنَّ من شِرارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»[٣]، وَرواه أَبُو حَاتِمٍ في صَحِيحِه .

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(الكنيسة) : مكان عبادة النصارى .

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٥) ومسلم (رقم ٥٢١).

(٣)أخرجه الإمام أحمد (٤٣٥/١) وابن حبان كما في الموارد (رقم ٣٤٠) والطبراني في الكبير (٢٣٢/١٠ رقم ١٠٤١٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠/٢): رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن. وقال ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (٦٧٤/٢): وروى الإمام أحمد في مسنده بإسناد جيد. وذكر الحديث.

وأخرج البخاري الجزء الأول منه معلقا (رقم ٧٠٦٧) وعند مسلم مرفوعاً: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس» (رقم ٢٩٤٩).

(الرجل الصالح أو العبد الصالح): هذا شك من راوي الحديث، وهذا يبين دقة نقل الرواة .

(طفق): أي جعل.

(خميصة): الكساء الذي له أعلام .

(اغتم): أي احتبس نَفَسُه ﷺ عن الخروج.

(أبرأ) : أمتنع وأنكر.

(الخليل): هو المحبوب غاية المحبة ، والخلة: أعلى درجات المحبة.

الوقفة الثانية:

أورد المصنف هذا الباب ليبين أن من عبد الله مخلصاً له عند أحد القبور بأن صلى لله أو دعا الله أو ذبح لله عند قبر فإنه آثم إثماً كبيراً، فكيف بمن صرف شيئاً من العبادة لهذا القبر بأن دعا صاحب القبر أو ذبح له من دون الله فهو أشد وأقبح من الأول، إذ إن من صرف عبادةً لغير الله فقد أشرك شركاً أكبر مخرجاً من الإسلام، أما من عبد الله وحده عند قبر فلا يخرجه من الإسلام، ولكنه آثم وفعله محرم وكبيرة من كبائر الذنوب؛ لأنه وسيلة إلى الشرك والعياذ بالله.

ومن هنا يتبين لنا علاقة هذا الباب بسابقه، فالمصنف لما ذكر ما ينتج عنه الغلو في الصالحين وما يؤدي إليه من شرك بالله عز وجل، ناسب أن يبين هنا أن عبادة الأولياء والصالحين شرك أكبر تنافي التوحيد وإفراد الله بالعبادة، فالعبادة لله عند القبور وسيلة إلى الشرك ومن هنا جاءت العلاقة بين هذا الباب وكتاب التوحيد.

الوقفة الثالثة:

الحديث الأول الذي أورده المصنف يفيد أن بناء المساجد على القبور أمر لا يجوز ؛ لأن النبي ﷺ وصف هؤلاء بأنهم شرار الخلق ، ولأنها من الوسائل المؤدية إلى الشرك بالله عز وجل ؛ وذلك بعبادة صاحب القبر، وتتأتى هذه الأمور شيئاً فشيئاً، فقد يتعلق هذا الشخص بصاحب القبر حتى يعظمه تعظيماً يخرجه من الملة ، وقد يأتي بعض الجهال من الناس فيرى من يعبد الله عند القبر فيظن أنه يعبد القبر ذاته فيفعل مثله، وبذلك تنتشر عبادة القبور. فهؤلاء ظلموا أنفسهم وضلوا وأضلوا غيرهم، وسنوا لمن بعدهم السنن السيئة من الغلو في قبور الصالحين، والنبي ﷺ يقول: (من سن **في الإسلام سنة سيئة فعُمل بها بعده كُتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيئاً)** (١) وقد افتتن كثير من الناس في بعض البلدان الإسلامية بتعظيم القبور والمزارات حتى وصل بهم الحال إلى التوسل بها ، والطواف حولها ، والذبح لها، نسأل الله السلامة والعافية .

وإن المسلم ليعجب من فعل هؤلاء ، كيف يتركون التوسل بالله عز وجل وبأسمائه الحسنى وصفاته العلى وينصرفون إلى التوسل بالقبور والأضرحة ، والله تعالى أخبر أنه قريب من عباده، فقال تبارك وتعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ (٢) والنبي ﷺ يقول: (**إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت**

---

(١) رواه مسلم في كتاب العلم ، باب : من سن سنة حسنة أو سيئة، برقم (١٠١٧) .

(٢) سورة البقرة، الآية (١٨٦).

فاستعن بالله) [1] .

فالله سبحانه يعلم السر وأخفى، ويعلم ما تُكِنُّ الصدور والضمائر، ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فلماذا اللجوء إلى الأموات والقبور؟ ولماذا اللجوء إلى الجمادات وإلى ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني شيئاً؟

ولهذا يجب على المسؤولين في البلاد الإسلامية أن يمنعوا هذه المظاهر الشركية ، وألا يسمحوا ببناء المساجد على القبور لدفع هذا الشر العظيم . كما يجب على العلماء والدعاة التحذير من هذه المسائل الشركية التي توقع الناس في المهالك .

الوقفة الرابعة:

اعلم رعاك الله أن زيارة القبور على قسمين:

القسم الأول: الممدوح والمشروع، وهو أن يزور المسلم هذا القبر، كي يسلم على الميت ويدعو له بما ينفعه من دخول الجنة والنجاة من عذاب النار والقبر ، وبهذه الزيارة أيضاً يتذكر الزائر الآخرة، إذ يتصور أن أصحابها في شغل شاغل، فمنهم السعيد ومنهم الشقي، ويتذكر أنه في يوم من الأيام سيكون كحالهم ، فيعتبر بذلك ويعمل من الصالحات ما يقربه إلى الله، ولهذا جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: **(إني كنت نهيتكم عن زيارة**

---

(١) رواه الترمذي في كتاب : صفة القيامة والرقائق والورع، برقم (٢٥١٦)، ورواه أحمد في مسند ابن عباس ، برقم (٢٧٦٣)، وصححه الألباني في الجامع الصغير، برقم (١٣٩١٧).

القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة)[١] .

وهذه الزيارة ليس فيها منفعة وإعانة من الميت للحي، بل فيها منفعة الحي للميت بالدعاء له والترحم عليه، ولذا جاء في الحديث الصحيح قول النبي ﷺ : (**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له**)[٢] .

ولكن لا يجوز أن يسافر الشخص لزيارة أحد القبور؛ لقوله ﷺ في الحديث المتفق عليه: (**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى**)[٣] .

القسم الثاني: الزيارة الممنوعة والمذمومة ، وهي إذا كانت الزيارة لعبادة صاحب القبر أو الذبح له فهذا شرك أكبر مخرج من ملة الإسلام؛ لأنه صرف عبادة لغير الله، والله سبحانه يقول:﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِه**﴾[٤] ويقول في الآية الأخرى :﴿ **وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ* وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ**﴾[٥] .

وكذلك طلب المدد والعون من هؤلاء الأموات شرك أكبر؛ لقوله عز

---

(١) رواه أحمد في مسند بريدة الأسلمي، برقم (٢٣٠٥٥)، ورواه أبو داود في كتاب : الجنائز، باب : في زيارة القبور، برقم (٣٢٣٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، برقم (٢٧٧٢).

(٢) رواه مسلم في كتاب: الوصية ، باب : ما يلحق الإنسان من الثواب بعد مماته ، برقم (١٦٣١).

(٣) رواه البخاري في كتاب : الحج ، باب : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، برقم (١٣٩٧).

(٤) سورة النساء، الآية (٤٨).

(٥) سورة يونس، الآيتان (١٠٦، ١٠٧).

وجل: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١) .

وقال أيضاً سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (٢) .

أما من يعبد الله عند أحد القبور والأضرحة ويرجو بركتها ويتحرى الدعاء عندها ويطيل المكث رجاء بركة أهلها والتوسل بجاههم أو حقهم فهذه بدعة منكرة، وهي من وسائل الشرك الأكبر فيحرم فعلها (٣) .

الوقفة الخامسة:

الحديث الثاني الذي أورده المصنف فيه تصريح ببعض أعمال اليهود والنصارى؛ وهو اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، فيبنون على القبور مساجد للصلاة فيها ، ولهذا لعنهم ﷺ، بمعنى أن هؤلاء استحقوا غضب الله عليهم لفعلهم هذا ، والنبي ﷺ يخبر بذلك في آخر حياته والموت ينازعه ليبين عظم الأمر وخطورته ، ويحذر أمته من صنيع مثل هؤلاء حتى لا يصيبهم اللعن.

وقد يشكل على البعض لعن النبي ﷺ لليهود والنصارى وقد يكون بعضهم لا يعبد القبور فكيف يعمهم ﷺ ذلك؟ والجواب: أن الحكم هنا للأعم والأغلب أو لمن كانت هذه صفته .

---

(١) سورة المؤمنون، الآية (١١٧).

(٢) سورة فاطر، الآيتان (١٣-١٤).

(٣) ينظر: فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (١/٤٣٥).

الوقفة السادسة :

حديث جندب بن عبدالله ﷺ الذي ذكره المصنف يفيد أن النبي ﷺ ينكر أن يكون له خليل من الناس يحبه أعلى درجات المحبة، إذ إن النبي ﷺ خليل الله، كما أن إبراهيم عليه السلام هو أيضاً خليل الله، وفي ذلك إثبات صفة المحبة لله سبحانه كما يليق بجلاله وعظمته بما لا يشابهه أحد من الخلق، وبلا تكييف لهذه الصفة ولا تعطيل لمعناها .

وفي الحديث فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ إذ إنه فاقت محبة الرسول ﷺ له عن غيره من الصحابة .

وقوله ﷺ في هذا الحديث : (**من أمتي**) المقصود بها أمة الإجابة، وهم من آمن بدعوته واتبع شرعه، وذلك **أن الأمة تنقسم إلى قسمين**: أمة الإجابة، وأمة الدعوة، وهؤلاء هم سائر الناس منذ بعث النبي ﷺ، سواء المؤمن منهم أو الكافر.

كما أفاد الحديث تحريم كون القبور مساجد يعبد الله عندها ، وذلك لأمرين: الأمر الأول: قوله ﷺ : (**فلا تتخذوا القبور مساجد**) أي لا تصلوا عند القبور أو تتخذوها مكاناً للعبادة.

الأمر الثاني: قوله ﷺ : (**فإني أنهاكم عن ذلك**) فأكد النهي الأول بهذه العبارة التي تفيد التحريم كما هو معلوم .

ولفظة (مساجد) الواردة في الحديث لا تعني بناية المسجد المتعارف عليها الآن فقط، بل تشمل كل مكان للصلاة حتى وإن كان في البرية ؛ لأن النبي ﷺ قال: (**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**) .

أما الصلاة على الميت في المقبرة فجائزة، وهي أمر خاص ومستثنى من النهي لحديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة المرأة التي كانت تقمّ المسجد، فسأل عنها النبي ﷺ، فقالوا : ماتت ، فقال: (**أفلا كنتم آذنتموني، دلوني على قبرها**) فدلوه فصلى عليها [(١)] .

الوقفة السابعة :

حديث ابن مسعود الذي أورده المصنف يفيد أن الناس يتفاوتون في الشر كما يتفاوتون في الخير ، فمن الناس من يكون شره عظيماً ومتعدياً إلى غيره، ومنهم من يكون شره خفيفاً ومقتصراً على نفسه .

وقد بين ﷺ صنفين من الناس هم من شرار الخلق، **الصنف الأول**: هم من تدركهم الساعة وهم أحياء، أي تقوم عليهم القيامة وهم أحياء، ولذا جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (**إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته**) [(٢)] فلا يبقى في الأرض من يؤمن بالله، ولهذا جاء في حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : (**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض : الله الله**) [(٣)] .

الصنف الثاني: وهو محل الشاهد وهم الذين يتخذون القبور مساجد ، وقد سبق الإشارة لحكم هذا الفعل، والواجب على المسلم أن يقتدي بسنة

---

(١) رواه البخاري في كتاب: التيمم ، برقم (٣٢٨) .

(٢) رواه مسلم في كتاب، : الإيمان ، باب : الريح التي تكون قرب القيامة، برقم (١٨٥).

(٣) رواه مسلم في كتاب، الإيمان، باب : ذهاب الإيمان آخر الزمان، برقم (٢٣٤) .

النبي ﷺ، فما من خير إلا دلّ الأمة عليه ، ومن أحدث بدعة فهي مردودة عليه، نسأل الله سبحانه الهداية للجميع .

الوقفة الثامنة:

إذا وجد قبر في أحد المساجد فهل يهدم المسجد أم يزال القبر؟

والجواب على ذلك أن يقال: إن الأمر لا يخلو من أن يكون بناء المسجد أولاً أو يكون القبر هو السابق لبناية المسجد ، فإن كان المسجد قد بني على قبر أو قبور فيجب هدم هذا المسجد ؛ لأنه أسس على خلاف ما شرع الله، والإبقاء عليه مع الصلاة فيه إصرار على الإثم وزيادة غلو في الدين، وذلك يفضي إلى الشرك الأكبر كما أسلفنا .

أما إذا بني المسجد على غير قبر ثم دفن فيه أحد من الناس فلا يهدم هذا المسجد، ولكن ينبش هذا القبر ويخرج من كان مقبوراً فيه ويدفن في مقابر المسلمين إن كان منهم؛ لأن دفنه في المسجد منكر فيزال هذا المنكر بإخراجه من المسجد (١).

---

(١) ينظر: فتاوى للجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٤٩/١).

٢٠- بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الغُلُوَّ في قُبُورِ الصَّالِحِين يُصَيِّرُهَا أَوْثَاناً تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللّهِ.

رَوَى مَالِكٌ في الموطَّأ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ. اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِم مَسَاجِدَ»(١).

ولابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفيانَ عَنْ مَنصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩﴾ [النجم:١٩] قَالَ: كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ(٢). وَكَذَا قَالَ أَبُو الْجَوْزَاءِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ يَلتُّ السَّويقَ لِلْحَاجِّ(٣).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِراتِ الْقُبُورِ، والمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ والسُّرُجَ»(٤). رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ.

---

(١)أخرجه الإمام مالك مرسلاً (١/١٦٨ رقم ٤٢٣) والإمام أحمد مسنداً (٢/٢٤٦) بلفظ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

(٢)انظر:تفسير الطبري (رقم ٢٥١٨٠).

(٣)أخرجه البخاري (رقم ٤٨٥٩).

(٤)أخرجه أبو داود (رقم ٣٢٣٦) والترمذي (رقم ٣٢٠) والنسائي (٤/٩٤ ـ ٩٥ رقم ٢٠٤١) وابن ماجه (رقم ١٥٧٥) والإمام أحمد (١/٢٢٩) والحاكم (١/٣٧٤) وقال الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (١/٢٥٩ـ ٢٦٠): ولعن المتخذين على القبور المساجد متواتر عنه ﷺ في الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة وابن عباس وأبي هريرة وزيد بن ثابت وأبي عبيدة بن الجراح وأسامة بن زيد، قد سقت أحاديثهم وخرجتها في «التعليقات الجياد على زاد المعاد» ثم في «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد» وهو مطبوع، ونص حديث عائشة وابن عباس مرفوعاً: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» زاد أحمد في روايته: «يحرم ذلك على أمته» وأخرج أيضاً من حديث ابن مسعود مرفوعاً: «إن من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء، ومن يتخذ القبور مساجد».

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(الغلو) : الارتفاع عن الحد المشروع ومجاوزته .

(وثنا): هو ما عُبد من دون الله ولا صورة؛ له كالقبور والأحجار والأشجار والحيطان ونحوها .

(اللات): كان رجلاً صالحاً يطعم الحجاج، فلما مات عكفوا على قبره فصار وثناً يعبدونه من دون الله .

(العزى): شجرة بين مكة والطائف كان أهل الجاهلية يعظمونها ويعبدونها.

(يلت لهم السويق): السويق هو دقيق الشعير، واللّت هو الخلط والعجن .

(السرج): جمع سراج وهي أداة يصدر منها نار صغيرة، لتضيء للناس في الظلام.

الوقفة الثانية:

أورد المصنف هذا الباب في كتاب التوحيد ليشير إلى أن الوسائل المحرمة قد تؤدي إلى ما هو أكبر منها وأشد تحريماً، والغلو في قبور الصالحين والرؤساء قد يصيرها في النهاية أوثاناً تعبد من دون الله، فيستغاث بها وتدعى وترجى من قبل بعض الجهال الذين يتركون التعلق بالله وحده لا شريك له فيعبدون غيره.

وأورد الشيخ -رحمه الله- قوله ﷺ: (**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد...**) وهذا دعاء منه ﷺ لله سبحانه وتعالى ألا يجعل قبره وثناً يعبد ويطاف به أو يذبح له أو يدعى من دون الله، ثم ذكر ﷺ اشتداد غضب الله عز وجل على من اتجه إلى القبور وصرف لها ما لا تستحقه من التعظيم، وسبب هذا أنها قد تكون وسيلة للشرك الأكبر بالله سبحانه، وذلك إذا عبد الله عند هذا القبر أو تمسح به أو طلب بركته ونحو ذلك، وقد تكون شركاً أكبر إذا اتجه الأمر إلى عبادة صاحب القبر نفسه .

والفعل من الشخص قد يكون مباحاً في الأصل أو مستحباً لكن إذا كان يؤدي إلى ما هو محرم يصير هذا الفعل محرماً، والوسائل لها أحكام المقاصد، بشرط ألا تكون الوسيلة محرمة، فإن كانت كذلك وجب ترك هذه الوسيلة، وإن كانت الغاية والهدف المنشود أمراً مباحاً أو مندوباً .

وهنا أمر آخر ورد في الحديث وهو دعاؤه ﷺ بألا يجعل قبره وثناً يعبد، فلماذا ذكره؟

والجواب: لضرر هذا الأمر على الأمة بأكملها، وتحذيراً لهم من الغلو في قبره ﷺ ، وقبور الصالحين من بعده من باب الأولى .

الوقفة الثالثة:

قوله ﷺ في الحديث: (**اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**) فيه فائدة إثبات صفة الغضب للرب عز وجل، وهي من الصفات الفعلية المتعلقة بمشيئته سبحانه إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، وأهل السنة والجماعة يثبتونها كما جاءت في الشرع من غير تكييف لها، فلا نقول:

إن غضب الله يكون كذا وكذا، ولا نقول: إن غضبه سبحانه كغضب الآدميين، ولكننا نعلم المعنى وأنه غضب منه سبحانه، ويستحق المغضوب عليه العقوبة من الله عز وجل .

وقد سئل الإمام مالك عن صفة الاستواء فذكر أن الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. وهذا الكلام عام في جميع صفات الله عز وجل، ونحن حينما نثبت صفاته سبحانه نثبتها على الوجه الذي يليق به، من دون مشابهة لأحد من خلقه على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (١) .

الوقفة الرابعة:

الأثر الذي أورده المصنف عن الإمام مجاهد بن جبر - رحمه الله - تلميذ الصحابي الجليل ابن عباس رضي الله عنهما هو تفسير لقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ (٢) ، فقد كان هناك رجل صالح يطعم الحجاج نوعاً من الطعام، فلما مات عكفوا على قبره حتى عبدوه، فصار وثناً من أوثان المشركين، وسمي باللات .

فالملاحظ هنا أنهم غلوا في تعظيم القبور حتى أدّى ذلك إلى عبادتها من دون الله عز وجل فوقعوا في الشرك، ولا إشكال أن يذكر الناس محاسن الموتى ومن كان له إصلاح وخدمة لأسرته ومجتمعه وأمته، وأن يدعى له، بل هذا أمر حسن، ولكن الإشكال هو التجاوز عن الحد المشروع، كأن

---

(١) سورة الشورى الآية: (١١)

(٢) سورة النجم الآية: (١٩) .

يُنصب له قبر واضح، ومن ثم يبرز ويتبرك به ويطاف حوله، وهذا أشد وأقبح، وقد يعبدونه من دون الله، نسأل الله السلامة والعافية.

الوقفة الخامسة:

لقد لعن رسول الله المتخذين على المقابر المساجد والسُرج، والمراد بذلك أن يجعلوا هذا القبر مصلى ومسجداً يعبد الله فيه، أو يتحرى الصلاة عندها، فهذا يستحق اللعن، وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله .

كما أن من يتخذ على المقابر سُرُجاً يستحق اللعن، وسبب هذا اللعن في الأمرين أنها وسيلة لتعظيم القبور ومن ثم عبادتها من دون الله، فلعن رسول الله ﷺ من فعل هذه الوسيلة لأجل أن يمتنع الناس من الوقوع فيما هو أشد، وهذه قاعدة -كما سبق- أن للوسائل أحكام الغايات .

والشريعة الإسلامية جاءت بالوسطية فقد جاء النهي عن تعظيم القبور فيصار لعباداتها، وكما نهي في المقابل عن إهانة المقابر، بل أمرنا أن نحترم القبور وألا نجلس على قبر ولا نمشي عليه، فحرمة المسلم ميتاً كحرمته حياً .

ولا مانع من تسوير المقبرة وأن يوضع بداخلها شوارع ليسهل الوصول إلى القبور حتى تنظم الأمور ولا تكون فوضى، ولكن يجب ألا يوقع في النهي ويتخذ السراج في المقابر، إذ قد لا يعظم هذا الجيل المقابر ثم يأتي بعدهم جيل يعظمونها إذا شاهدوا الإنارات، ثم يأتي بعدهم جيل يعبد هذه القبور عياذاً بالله، فلذا حسمت مادة هذا الفساد بالنهي عن إنارة المقابر .

الوقفة السادسة:

ما حكم زيارة النساء للمقابر ؟

اختلف العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم زيارة النساء للمقابر، بل إنها كبيرة من كبائر الذنوب. ويدل عليه حديث ابن عباس الذي أورده المنصف .

القول الثاني: يكره لهن زيارة المقابر، واستدلوا على ذلك بحديث أم عطية أنها قالت: (**نهينا عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا**)[١] .

القول الثالث: يجوز لهن زيارة المقابر، واستدلوا عليه بحديث النبي ﷺ : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها)[٢] . ولما مر ﷺعلى امرأة تبكي عند قبر قال لها: (**اتقي الله واصبري**)[٣] ، ولم ينهها ﷺ عن الجلوس عند القبور، ولو كان محرماً لنهاها .

والصحيح - والله أعلم - القول الأول، وأنه لا يجوز لهن زيارة المقابر، للحديث الصريح في لعن زوارات القبور، وأما حديث أم عطية رضي الله عنها فهذا فهم منها وليس من صريح كلامه ﷺ، أما حديث المرأة

---

(١) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: اتباع النساء للجنائز، برقم (١٢١٩)، ورواه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: نهي النساء عن اتباع الجنائز، برقم (٩٣٨) .

(٢) رواه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه، برقم "٩٧٧" .

(٣) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب: قول الرجل للمرأة عند القبر: اصبري، برقم (١١٩٤)، ورواه مسلم في كتاب: الجنائز. باب: في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، برقم (٩٢٦) .

فهي لـم تخـرج للزيـارة، وإنمـا خرجـت لمـا فـي قلبهـا مـن الحرقـة والحـزن الشديد على ما أصابها فلم تتحمل، ولذلك أمرها ﷺ بالصبر على هذا البلاء.

وأمـا حـديث الأمـر بزيـارة المقـابر فهـو خطـاب للرجـال دون النسـاء؛ بدليل لعن زوارات القبور.

ويـضاف إلـى ذلـك أن المـرأة بطبيعتهـا ذات عاطفـة جياشـة، فإذا رأت القبور تصورت حـالهم فستتأثر كثيراً، ومـن ثـم قـد يؤدي ذلـك لـشق الجيـوب ولطم الخدود وأمور أخرى لا تحمد عواقبها، والله أعلم [١] .

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٣٤٣/٢٤)، المغني (٥٢٣/٣) .

٢١- بَابُ مَا جَاءَ في حمايةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جَنابَ التَّوْحِيد وَسَدِّهِ كُلَّ طريقٍ يُوصِّلُ إلَى الشِّركِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٨-١٢٩]

وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتكُمْ قُبُوراً، وَلاَ تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ تَبْلُغني حَيْثُ كُنْتُم»(١) رواهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

وَعَنْ عَلِيّ بْنِ الْحُسينِ رضي الله عنه: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانت عِنْدَ قَبْرِ النَّبيِّ ﷺ فَيدخُلُ فيهَا فَيدْعُو فَنَهاهُ، وَقَالَ: أَلا أُحَدِّثكم حَدِيثاً سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «لاَ تَتَّخِذُوا قَبْري عِيداً وَلاَ بيُوتَكُمْ قُبُوراً وصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُني أَيْنَ كُنْتُمْ»(٢) رواهُ في الْمُخْتَارَةِ.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٠٤٢) والإمام أحمد (٣٦٧/٢) والطبراني في الأوسط (رقم ٨٠٢٦)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (٦٥٩/٢): وهذا إسناد حسن، فإن رواته كلهم ثقات مشاهير. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٢٢٦).

(٢) أخرجه الحافظ ضياء الدين المقدسي في الأحاديث المختارة (٤٩/٢ رقم ٤٢٨) وقال محققه: في إسناده لين...والحديث لم أجده في مسند أبي يعلى المطبوع. هكذا قال المحقق حفظه الله. بينما وجدت الحديث عند أبي يعلى في مسنده (٣٦١/١، ٣٦٢ رقم ٤٦٩).=

الوقفة الأولى:

هذا الباب سماه المصنف -رحمه الله- بهذه التسمية قال: باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد ...

(الحمى) إذا جعل للشيء مانعاً يبعد من حوله، فهو الحدود للشيء.

(المصطفى) من الاصطفاء وهو الاختيار، والمقصود به: رسول الله ﷺ .

(جناب التوحيد) يعني جانب التوحيد.

وهذا الباب مفاده أن النبي ﷺ كان حريصاً تمام الحرص على غرس هذه العقيدة في قلوب المسلمين... ومن مقتضى ذلك أنه يمنع كل وسيلة تؤثر على هذا التوحيد وتوصل إلى الشرك .

الوقفة الثانية:

شرح مفردات الباب:

(رسولٌ من أنفسكم): هذا الرسول أرسله الله عز وجل فهو رسول من الله.

= والحديث ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (٣٠١/١) (٦٦٠/٢-٦٦١) وقال في الموضع الثاني: رواه أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ فيما اختاره من الأحاديث الجياد الزائدة على الصحيحين، وشرطه فيه أحسن من شرط الحاكم في صحيحه.

وصححه الشيخ عبد القادر الأرناؤوط في تحقيق التوسل والوسيلة لابن تيمية (ص١٢٣)، وكذا صححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم ٣٧٨٥).

(من أنفسكم): أي من العرب منكم، ومن الناس بُعث ولم يكن من الملائكة.

(عزيز عليه): يعني شديدٌ عليه وصعب جداً .

(ما عنتم): ما يشق عليكم ويلحق الأذى بكم .

(حريصٌ عليكم): يعني شديد الرغبة عليكم في هدايتكم، والحرص: بذل الجهد المضاعف لإدراك المقصود .

(رؤوف): يعني رقيق القلب، وهذا يتضمن الحلم على المرحوم.

(فإن تولوا): فإن أعرضوا .

(فقل حسبي الله): أي متوكلاً على الله معتمداً عليه لا إله إلا هو سبحانه وتعالى .

(عليه توكلت): يعني عليه اعتمادي .

(وهو رب العرش العظيم): الرب هو الخالق. والعظيم: صفة لهذا العرش.

(لا تجعلوا بيوتكم قبوراً): بمعنى أنكم تهملونها فلا تعبدون الله فيها فتكون كالقبور.

(ولا تجعلوا قبري عيدا): العيد هو ما يعتاد، فلا تجعلوا قبري مكاناً يعتاد مجيئه لتعبدوا الله سبحانه وتعالى عنده .

الوقفة الثالثة :

قوله عليه السلام : (**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً**) معناه لا تجعلوها خالية من الصلاة ومن الدعاء ومن الذكر فتعطلوا هذه الأمور فتكون بمنزلة القبور؛

لأن القبور خالية من هذه العبادات، وهذا ملحظ عظيم؛ لأن البيوت يجب أن تكون عامرة بطاعة الله عز وجل من الصلاة وقراءة القرآن والأذكار والكلام الطيب، والقصص الهادفة، الأخذ والعطاء، والتشاور، والتناصح، والهدوء و الطمأنينة، يجب أن تُعمر البيوت بهذه الأمور وإلا أصبحت كالقبور. والبيوت لساكنها، والساكن هنا هم هذه الأسرة، وهذه الأسرة لهم مشارك، وهذا المشارك إما أن يكون الملائكة وصالحي الجن إن كانت هذه الأسرة من أهل الطاعات من الصلاة والدعاء والقرآن والذكر والعلم النافع وغير ذلك، فتشاركهم الملائكة فيطمئنونهم ويؤمّنونهم ويدعون لهم ويشاركونهم في عباداتهم، فتنزل السكينة والطمأنينة على هذا البيت وعلى أهله..

وإما أن تكون هذه البيوت خالية من هذه الأمور، وربما تكون مهدومة بأمور معنوية، كأن تكون مملوءة بمزامير وملاهي وتماثيل معلقة، فحينئذٍ تشاركهم الشياطين، ومن ثم هذه الشياطين تؤز من في البيت أزا... فالقلق وعدم الارتياح في هذه البيت سائد، والصراخ والمنازعة والمخاصمة، والرسول ﷺ هنا يؤكد هذا المعنى العظيم بهذه الجملة القصيرة قال : (**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً**) كالقبور فاملؤوها بالطاعات .

الوقفة الرابعة:

حديث علي بن الحسين رضي الله عنه أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها، فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: (**لا تتخذوا قبري عيداً، ولا**

بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم). رواه في (المختارة) ، يعني هذا الحديث رواه الضياء المقدسي في المختارة.

فَرُوي هذا الحديث عن علي بن الحسين، رضي الله عنه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه (أي: علي بن الحسين) رجلاً كان يجيء عند فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ يعني محلاً للجلوس، فعلي بن الحسين رضي الله عنه لم يبعد عن عهد النبوة، فجده علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجده عن طريق أمه رسول الله ﷺ ، فوجد هذه الفرجة في الجدار ليجلس فيها، فنهاه علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن أن يجلس في هذا المكان لأن هذا وسيلة إلى الشرك، ثم روى هذا الحديث الذي سمعه عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ أنه قال: **(لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم)** وهذا تأكيد لما ذكره النص السابق في الحديث السابق من النهي أن يتخذ القبر عيداً يعني مكاناً للاعتياد، ولا أن تخلو البيوت من ذكر الله عز وجل فتكون كالقبور موحشة، وأيضاً أكد أنه عليه الصلاة والسلام أينما كان الإنسان وحيثما حل وارتحل تبلغه الصلاة والسلام عليه .

الوقفة الخامسة:

قد يقول قائل: إن هذه الصفات الواردة في الآية لرسول الله ﷺ من صفات الله عز وجل، فهل صفات المخلوق مثل صفات الخالق أو صفات الخالق مثل صفات المخلوق؟!

والجواب معلوم؛ وهو أن لله سبحانه وتعالى صفات وأسماء تختلف عن أسماء وصفات المخلوقين، وقد يشترك في الاسم لكن المعنى يختلف،

فالله سبحانه وتعالى سمَّى نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات، وسمَّاه النبي ﷺ بأسماء ووصفه بصفات، فنحن نؤمن بها كما جاءت مع معرفة ما تحتوي عليه من المعاني، لكن لا نكيّفها، بمعنى لا نقول: صفة الله مثل صفة خلقه، فلا نقول: الله رحيم وفلان رحيم ورحمة الله مثل رحمة فلان، لا، وإنما نقول: إنما هذا من صفات الله التي تليق بجلاله وعظمته جل وعلا، ولا تشبه صفات المخلوقين، ولا أيضاً نعطل المعنى ولا نأوّلها ولا نكيفها فيه، كما قال الإمام مالك –رحمه الله– لما سُئل عن الاستواء قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة .

الوقفة السادسة :

زيارة قبر النبي ﷺ ،لا تشد الرحال إليه، فلا يسافر المسلم من أجل أنه يزور قبر النبي ﷺ، فلماذا هذا المنع ؟

والجواب: لأن النبي ﷺ قال: (**صلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**) ويقول في الحديث الآخر: (**فإن تسليمكم علي يبلغني حيث كنتم**). فلا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد النبوي والمسجد الأقصى، أما خلافها فلا تشد الرحال من أجلها، لكن إذا زار المسلم مسجد الرسول الله ﷺ سنّ له أن يزور قبر النبي ﷺ ويسلم عليه، فلا شك أنه من الجفاء أن يدخل المسلم المدينة المنورة ثم يدخل المسجد النبوي ولا يسلم على النبي ﷺ ولا يزور قبره، وأيضاً من الأشياء التي ينبه عليها هنا في زيارة قبر النبي ﷺ وهو أن بعض المسلمين جهلاً منهم أو تجاهلاً أو تقليداً يغالون في هذا الأمر، فمنهم مثلاً من يتجه إلى القبر

ويصلي إليه، وهذا إذا لم يتجه إلى القبلة فصلاته غير صحيحة، وإما أن يتجه إلى القبر ويرفع يديه ويدعو، وربما أنه قد يستدبر القبلة، وهذا أيضاً غير مشروع، فمن السنة في حال الدعاء استقبال القبلة .

ومنهم من يتوسل إلى النبي ﷺ والنبي ﷺ قد مات. وكل هذا مما حذر منه النبي ﷺ كما سبق بيانه.

الوقفة السابعة :

إن لم نجعل قبر النبي ﷺ عيداً فكيف نسلم عليه؟ وكيف نصلي عليه؟ وهل نصلي عليه ونحن في أقاصي الدنيا.

نعم فقد قال ﷺ : (**وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**) يعني في أي مكان وفي أي زمان يصلى على النبي ﷺ وتصله هذه الصلاة وتبلغه عليه الصلاة والسلام، فلا يلزم من الصلاة عليه أن يسافر الإنسان إلى قبره صلوات الله وسلامه عليه، وإنما يصلي عليه وهو في بيته وهو في مكانه وفي بلده وفي أي بقعة كان وفي أي زمان كان فالصلاة تبلغ النبي ﷺ . كما قال:(**لا تجعلوا قبري عيداً وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**) ولا شك أن هذا من فضل الله سبحانه؛ إذ لم تكلف هذه الأمة إلا بما تطيق.

الوقفة الثامنة :

من أهم حقوق النبي ﷺ :

١- الإيمان به عليه الصلاة والسلام، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن يصدق فيما أخبر، وألا يعبد الله إلا بما شرع .

٢- محبته محبة تفوق كل محبة من محاب الدنيا، فهي في المنزلة بعد

محبة الله عز وجل، فيجب أن تكون هذه المحبة أحب من أنفسنا وأحب من والدينا وأولادنا بل من الدنيا كلها، ومقتضى هذه المحبة طاعته في أوامره واجتناب نواهيه .

٣- نشر سنته والدفاع عنها بل الدفاع عنه ﷺ ؛ فنشر سنته وتعليمها للناس بأي وسيله من وسائل النشر تعليماً مباشراً بالكتابة من التأليف وغيره ومشافهة بالخطابة والدروس والمحاضرات وغير ذلك .

٤- كثرة الصلاة والسلام عليه؛ فإن الصلاة والسلام عليه باب من الأبواب التي تشفع يوم القيامة لصاحبها بأن يكون من أصحابه ومن المقربين منه، وكما أن الصلاة عليه من الأذكار المشروعة وباب من أبواب الرزق للإنسان .

الوقفة التاسعة :

الزيارة المشروعة للقبور تهدف إلى أمرين :

الأمر الأول: هو الدعاء للميت والترحم عليه والاستغفار له بأن يدعو الله سبحانه وتعالى بأن يغفر لهذا الميت ويرحمه ويتجاوز عن سيئاته.

الأمر الثاني: هو الاعتبار والتفكر بأحوال الموتى، لعل الإنسان أن يرجع عن بعض أخطائه وزلاته، ويتذكر الموت والآخرة، ويتذكر ما سيلاقيه عند الله سبحانه وتعالى . فيصحح أوضاعه ويقوي إيمانه ويكثر من طاعة ربه .

٢٢- بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ [النساء: ٥١].

وَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ ﴾ [المائدة: ٦١].

وَقَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبلكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ». قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودَ والنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟»[1] أخْرجَاهُ.

وَلِمُسْلمٍ عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْها. وأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ. وإِنِّي سأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لا يُهلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لاَ يُسلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وإِنَّ رَبِّي

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٥٦) ومسلم (رقم ٢٦٦٩).

قَالَ: يا مُحَمَّدُ، إِذا قَضَيْتُ قضاءً فَإِنَّهُ لاَ يُرَدُّ، وإِنِّي أعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهُمْ بِسنَةٍ بعَامَّةٍ، وَأَنْ لاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَلوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بأَقْطارِهَا، حتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً، ويَسْبي بعْضُهُمْ بَعضاً»[1].

ورَوَاهُ البُرقَانِيُّ في صَحيحِهِ وَزَادَ: «وإِنَّما أَخافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضلِّينَ. وإِذَا وَقعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ، وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتي بِالْمُشْرِكينَ، وَحتَّى تَعْبُدَ فِئامٌ منْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ، وَإِنَّه سَيَكُونُ في أُمَّتي كَذَّابُونَ ثَلاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّه نَبِيٌّ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبيينَ لا نَبيَّ بَعْدِي، ولاَ تزالُ طائِفَةٌ منْ أُمَّتي عَلَى الْحقِّ مَنْصورةً، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ولا من خَالفَهُم حَتَّى يأتِيَ أمْرُ اللهِ، تَبَارَكَ وتَعَالى»[2].

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(الأوثان): جمع وثن وهو كل ما عُبد من دون الله .

(الجبت): كلمة عامة تقع على السحر وغيره .

(الطاغوت): كل ما عُبد من دون الله وهو راضٍ بالعبادة .

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٨٩).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٢٥٢) وابن ماجه (رقم ٣٩٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٧٧٣).

(وجعل منهم القردة والخنازير): أي مسخهم إلى قردة وخنازير.

(السنن): هي الطرق.

(القذة) : هي ريشة السهم.

(زوى لي الأرض): أي طواها وجعلها مجموعة.

(أعطيت الكنزين الأحمر): وهو كنز قيصر وهو ملك الروم؛ لأن غالب كنزهم الذهب.

(والأبيض): وهو كنز كسرى ملك الفرس، وغالب كنزهم الفضة .

(ألا يهلكها بسنة عامة) السنة : القحط والجدب، وعامة أي عموماً .

(وإذا وقع عليهم السيف): أي القتال.

(حتى يلحق حي من أمتي) الحي: المراد به الجنس وليس واحد الأحياء .

(فئام) : جماعات .

الوقفة الثانية :

مناسبة إيراد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ﴾ [(١)] الآية في هذا الباب.

لا تتبين مناسبة الآية إلا بحديث أبي سعيد ﷺ **"لتركبن سنن من كان قبلكم"**

فإذا كان الذين أوتوا نصيباً من الكتاب وهم اليهود والنصارى يؤمنون بالجبت والطاغوت، وأن من هذه الأمة من يرتكب سنن من كان قبله، يلزم

---

(١) سورة النساء ، آية (٥١).

من هذا أن في هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت، فتكون الآية مطابقة لترجمة الباب .

وهذه الآية وآية المائدة ، ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ ذكرتا صفات أهل الكتاب، فمناسبة الآيتين واحدة، والله أعلم .

الوقفة الثالثة :

سبب نزول آية النساء : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾.

روى ابن أبي حاتم عكرمة ﷺ قال: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف وكانا يهوديين إلى أهل مكة، فقال أهل مكة، لهما : أنتم أهل كتاب وأهل علم فأخبرونا عن أمر محمد؛ وهل ديننا خير أم دينه فقالا: أنتم خير وأهدى سبيلاً، فأنزل الله هذه الآية.

ولكن مَن الذين مسخهم الله إلى قردة وخنازير في آية المائدة : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ الآية. كلا المسخين كانا في اليهود، ولكن الخلاف من الذين مسخوا إلى قردة؟ ومن الذين مسخوا إلى خنازير؟ على أقوال منها :

١ - الذين كفروا بالمائدة التي أنزلت على عيسى مُسخوا إلى خنازير، وأصحاب السبت الذين حرم عليهم اصطياد الحيتان يوم السبت لما عصوا الله مسخهم إلى قردة .

٢ - وقيل أيضاً إن أصحاب السبت مسخوا إلى خنازير .

٣ - قيل إن الشباب مسخوا إلى قردة والشيوخ إلى خنازير .

الوقفة الرابعة :

مع حديث أبي سعيد ، (**لتتبعن سنن من كان قبلكم**) الحديث

يبين النبي ﷺ أن هذه الأمة سيكون منها من سيتبع اليهود والنصارى في أشياء كثيرة، ومن أجلّها اتباعهم في تعظيم الصالحين والغلو فيهم وفي اتخاذ القبور مساجد، وقد وقع هذا في بعض بلدان المسلمين وللأسف، وهذه معجزة من معجزاته ﷺ حيث أخبر عن غيب وقد وقع، فأمر التقليد لم ينتهِ إلى هذا الحد، فلو نزلنا إلى حياتنا العملية لوجدنا من أبنائنا من قلدهم في لبسهم وقصات شعورهم وبعض مظاهرهم ونحوها.

وهذا الحديث فيه إشارة إلى أن المسلم عليه أن يعتز بدينه، ويعلم أن الله اختاره من بين هؤلاء الناس ليجعله مسلماً، وفي المقابل تجده ينزل من قدره ويقلد هؤلاء الكفار وللأسف الشديد .

الوقفة الخامسة :

مع حديث ثوبان: (**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها**) الحديث.

يخبر النبي ﷺ أن الله طوى له الأرض وجمعها له فرأى مشرقها ومغربها، وأن ملك أمته يبلغ ما زوى له منها، وفي هذا بيان لقدرة الله، فأمره في (كن) فيكون .

ثم بعد هذا دعا الله أن لا يهلكها بسنة أي بقحط وجدب عموماً، وأن لا يسلط عليها عدواً من سواها، فإن عدوها لو كان من نفسها لم تستطع التغلب عليه، فإن أفرادها إذا نحر بعضهم بعضاً سهل على عدوها هزيمتها

والغلبة عليها، فمن سنن الله الكونية أن المتفرق يهزم ويكسر، والمجتَمع غير المتفرق لا يهزم وينصر بإذن الله، قال تعالى داعياً إلى الاجتماع: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ (١) .

وشاهد الحديث جاء في رواية البرقاني (**ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيّ من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان**).

وذكر قبلها أن القتل إذا وقع في هذه الأمة لن يرفع، وسيظهر كذابون يدعون النبوة، وهذه كلها نبوءات منه ﷺ تدل على صدق نبوته.

ثم بشر باستمرار أهل الحق ولو كانوا قلة، واستمرارهم ماضٍ إلى يوم القيامة .

الوقفة السادسة :

أخطاء يجب على المسلم الحذر منها :

١ - على المسلم الحذر من تقليد الغرب الكافر في ما يخصهم، فإن النبي ﷺ أخبر أننا سنتبع أهل الكتاب في أشياء كثيرة، ومن أعظمها الغلو في القبور وعبادتها .

٢ - الحذر من الفرقة فإنها تضعف الأمة المسلمة وتقوي عدوها عليها، والاجتماع قوة وغلبة على العدو.

٣ - في حديث أبي سعيد الخدري وكذلك حديث ثوبان دليل على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ فقد وقع بعض ما قال، نسأل الله أن يلطف بحالنا .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٠٣).

٢٣ - بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحر

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وَقَوْلِهِ: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١].

قَالَ عُمَرُ: الْجِبْتُ: السِّحْرُ. والطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ(١). وَقَالَ جَابِرٌ: الطَّواغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فِي كُلِّ حيٍّ وَاحِدٌ(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه:أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبعَ الْمُوبِقَاتِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ:«**الشِّرْكُ بِاللهِ، والسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاَتِ المُؤمِنَاتِ**»(٣).

وَعَنْ جُنْدُبٍ مرفوعاً: «**حَدُّ السّاحِرِ ضَرْبُه بِالسَّيْفِ**»(٤) رَوَاهُ التِّرمِذيُّ. وَقَالَ: الصحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ.

وَفي صَحِيحِ البُخَارِيِّ عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبَدَةَ قَالَ: كتب عُمَرُ بْنُ الخطّابِ: «**أَنِ**

---

(١) أخرجه البخاري معلقا في كتاب التفسير، باب ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

(٢) فتح الباري (٨/٢٥١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٦٦) ومسلم (رقم٨٩).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ١٤٦٠) والحاكم (٣٦٠/٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وإن كان الشيخان تركا حديث إسماعيل بن مسلم، فإنه غريب صحيح، وله شاهد صحيح على شرطهما جميعاً في ضد هذا. ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضاً الطبراني في معجمه الكبير (١٦١/٢ رقم ١٦٦٥، ١٦٦٦) والدارقطني في سننه (رقم ٣١٧٩) والبيهقي (١٣٦/٨) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٢٦٩٩).

اقْتُلُوا كلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرةٍ» قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلاَثَ سَوَاحِرَ[١]. وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا أَمَرَتْ بقَتْلِ جَارِيَة سَحَرَتْهَا. فَقُتِلَتْ[٢]. وكذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدُبٍ[٣]. قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.

الوقفة الأولى :

شرح مفردات الباب:

(السحر) : لغةً: ما خفي ولطف سببه .

واصطلاحًا: هو عقد وعزائم وتعاويذ ورقى يعملها الساحر، ومن خلالها يؤثر على المسحور عن طريق الشياطين .

(الطاغوت): كل ما عُبد من دون الله وهو راضٍ بهذه العبادة .

(الشيطان) : اسم جنس .

(اجتنبوا) : أي ابتعدوا .

(السبع) : العدد هنا لا مفهوم له فهناك موبقات غير هذه السبع.

(الموبقات): جمع موبقة أي مهلكة. والإيباق: الإهلاك من قولك:

---

(١) أخرجه أحمد (١/١٩٠ـ ١٩١) وأبو داود (رقم ٣٠٤٣) وهذا اللفظ لم أجده في البخاري، كما ذكر المصنف رحمه الله، وأصل الحديث عنده (رقم ٣١٥٦، ٣١٥٧).

(٢) أخرجه مالك بلاغاً (٢/٣٧٧ رقم ١٦٧٢) والبيهقي موصولاً (٨/١٣٦).

(٣) قال البخاري رحمه الله في تاريخه الكبير (٢/٢٢٢): جندب بن كعب قاتل الساحر، عن خالد الحذاء عن أبي عثمان: كان عند الوليد رجل يلعب، فذبح إنساناً وأبان رأسه، فعجبنا، فأعاد رأسه، فجاء جندب الأزدي فقتله. أ.هـ

أوبقت الشيء أي أهلكته.

(الربا): لغة : الزيادة، وهو في الاصطلاح: الزيادة في أشياء مخصوصة [(١)] ، وله تفصيلات كثيرة معلومة في بابه.

(اليتيم) : وهو من فقد أباه ولم يبلغ الحلم، وبعض أهل العلم يطلق اليتيم على من ماتت أمه. والصحيح الأول.

(التولي): الهروب والابتعاد والتخلي.

(الحد): هي العقوبة التي شرعت على الذنوب زجراً لمن اقترفها .

الوقفة الثانية:

ذكر المؤلف - رحمه الله - في كتاب التوحيد في أوله، أبواباً في تقرير التوحيد وبيان فضله، ثم ذكر أبواباً مترتبة على التوحيد، ثم ذكر شيئاً من مناقضات التوحيد، فمنها ما يناقض كمال التوحيد، ومنها ما يناقض أصل التوحيد، وهذا الباب فيما يتعلق بالسحر بيان لمناقضة أصل التوحيد.

الوقفة الثالثة:

السحر معروف وواقع ويؤثر على المسحور، وذلك لعدة أدلة منها :

١ - أن الله - عز وجل - أمر بالاستعاذة من شره بقوله : ﴿**وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾ [(٢)] .

٢ - أن الله تعالى ذكر نوعاً من فعلهم فقال : ﴿ **يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ**

---

(١) المغني (٤/٥) .

(٢) سورة الفلق ، الآية (٤) .

وَزَوْجِهِ﴾[١].

٣ - أن عمل السحر أو ضرره لا يخرج عن إرادة الله، فقال تعالى: **﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾**[٢].

ويتمكن الساحر من الإضرار بالمسحور: بواسطة الشياطين، فالشيطان يتلبس بالإنسان ويؤثر عليه إما صرفاً أو عطفاً أو تغييراً في خلقته، أو تغيراً في طبيعته على حسب ما يطلب منه الساحر.

ولكن **لماذا السحر يناقض دين الله**؟ أو لماذا يكفر الساحر إذا عمل السحر؟ لأن الشياطين لا يمكن أن تخدم الساحر حتى يطيعها في معصية الله؛ إما بالذبح لها أو إهانة القرآن الكريم أو بترك الصلاة وغير ذلك ، وهذه كلها أعمال شركية وكفرية تخرج من دائرة الإسلام .

الوقفة الرابعة:

إن قال قائل : ما تأثير السحر في المسحور ؟ **فالجواب** : أن تأثير السحر قد يكون كلياً أو جزئياً، فيكون كلياً شاملاً لجسم الإنسان وعقله وعلاقاته مع الآخرين، أو يكون في جزئية معينة في حياته؛ كالعطف بين متباغضين، أو أن يصده عن المسجد أو البيت أو العمل، أو يكون في جسمه كأن يعطل يده وهكذا .

الوقفة الخامسة :

قال الله تعالى : **﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾**

---

(١) سورة البقرة ، الآية (١٠٢).

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٠٢).

تعني الآية أن هذا الساحر اشترى هذا السحر ورضي به عن شرع الله سبحانه وعن دينه، فبيّن سبحانه أنه ليس له ﴿ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ حظ ولا نصيب، وهذه إشارة بأن الساحر انتقل من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر والعياذ بالله.

وقول الله تعالى : ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ هذه الآية بيان لحال هؤلاء وأنهم يؤمنون بالسحر والطاغوت، وهذه من صفات اليهود فاليهود يؤمنون بالجبت والطاغوت، وقد تقدم تعريف الجبت في الباب السابق بأنه السحر، وهذا من إطلاق الكل على البعض؛ لأن السحر هو الجبت وغيره .

والذين يؤمنون بالجبت والطاغوت معذبون؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ (١) فهذا جزاؤهم والعياذ بالله .

الوقفة السادسة :

مع حديث (**اجتنبوا السبع الموبقات**) . فقد دل الحديث على أن هذه الأمور المذكورة فيه من الكبائر العظيمة التي يستحق صاحبها العقاب الشديد من عند الله، **وأولها**: الشرك بالله، بدأ ﷺ به لأنه أكبر الكبائر، وهو الذنب الذي لا يغفر : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ (٢) .

فمن عبد غير الله أو صرف أي عبادة لغيره أو معه فهو مشرك؛ كأن ينذر لغير الله، أو يدعو غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو يطوف على قبرٍ

(١) سورة النساء، الآيتان (٥٠-٥١).

(٢) سورة النساء ، الآية (١١٦).

ويدعوه كما يدعو الله، فهذا مشرك خرج عن دائرة الإسلام، والعياذ بالله.

الموبق الثاني: السحر (وهو موضع شاهد الباب) وهو كبيرة من الكبائر، قد فصّل أهل العلم حكمه، كما سيأتي تفصيله إن شاء الله .

الموبق الثالث: قتل النفس بغير حق، وهذه من أكبر الكبائر، فقد توعد الله من يقتل نفساً مؤمنة بغير حق في كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ (١) .

والقاتل كما ذكر بعض أهل العلم أنه يتعلق به ثلاثة حقوق : حق لله ويسقط بالتوبة الصادقة، وحق لأولياء المقتول: ويسقط بأخذ الديّة أو القصاص أو العفو، وحق للمقتول: فقد ذكر النبي ﷺ أنه يؤتى يوم القيامة بالمقتول فيتعلق بالقاتل يوم القيامة ويقول: يا رب سل هذا فيم قتلني (٢) ؟ فإن تاب القاتل فإن الله سبحانه يتحمله عن عبده القاتل ويرضي المقتول، والله أعلم (٣) .

الموبق الرابع: أكل الربا وهو من أكبر الكبائر، ولم يتوعد الله عز وجل بلفظ الحرب إلا المتعامل بالربا ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (٤) وقد

---

(١) سورة النساء ، الآية (٩٣) .

(٢) رواه النسائي في كتاب: تحريم الدم، باب: تعظيم الدم ، برقم (٣٩٩٩)، وصححه الألباني في الترغيب برقم (٢٤٤٨) .

(٣) ينظر: السبك الفريد (١٥/٢).

(٤) سورة البقرة ، الآية (٢٧٩) .

تساهل كثير من الناس في التعامل بالربا، فصاروا يبحثون عن تأويلات هنا وهناك لتحليل هذه المعاملة أو تلك، ولهذا لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال: **(هم سواء)**(١).

الموبق الخامس: أكل مال اليتيم الذي فقدَ أباه فهو لا يحسن التصرف في ماله، فيأتي وليه أو موكله فيأكل من ماله ويبخس حقه ولا يبالي، وقد توعد الله من فعل هذا بقوله : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً**﴾ (٢) .

الموبق السادس: التولي يوم الزحف، توعده الله بقوله : ﴿**فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾(٣) .

الموبق السابع: قذف المحصنات الغافلات المؤمنات . القذف عام للرجل والمرأة، فعقوبة القاذف الجلد ثمانين جلدة، وقد جاء ذكر وعيد هؤلاء في القرآن بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (٤) .

---

(١) رواه البخاري في كتاب: الباس، باب: من لعن المصور، برقم (٥٦١٧)، ورواه مسلم في كتاب: المساقاة، باب : لعن آكل الربا وموكله، برقم (١٥٩٧).

(٢) سورة النساء ، الآية (١٠).

(٣) سورة الأنفال، الآية (١٦).

(٤) سورة النور، الآية (٢٣).

الوقفة السابعة:

كيف يتقي العبد السحر قبل وقوعه؟

١ - التعبد لله بعقيدة صافية؛ لأنه بذلك سيقوي عنده جانب التوكل والاعتماد على الله والرضا بقضائه وقدره .

٢ - المحافظة على الأعمال الصالحة والقيام بها على أكمل وجه .

٣ - المحافظة على الأذكار الشرعية، والأذكار، منها المطلق كقراءة القرآن والثناء على الله والدعاء . ومنها المقيد كأذكار الصباح والمساء وأذكار النوم ودخول البيت وغيرها.

٤ - الابتعاد عن المعاصي ابتعاداً كلياً .

٥ - تطهير البيت من الأسباب التي تجلب الشياطين كالصور والتماثيل وأصوات المزامير.

أما معالجة السحر بعد وقوعه فتكون بما ذكر من أسباب الوقاية مع الرقية الشرعية، والأخذ بالأسباب التي ثبت بالتجربة نجاحها؛ كالاغتسال بالسدر وشرب ماء زمزم وغيره، وقى الله الجميع شر السحر والسحرة.

الوقفة الثامنة:

في حد الساحر وحكم الإتيان إليه، فحد الساحر هو القتل كما جاء عن جندب مرفوعاً في حديث الباب: (**حد الساحر ضربُه بالسيف**) .

وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر، وصح عن حفصة أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت، وكذا عن جندب ، قال أحمد:

عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ .

وذكر المصنف كل هذه الآثار في قتل الساحر وأن حده السيف ، ولم يذكروا أنه كان يستتاب، بل يُقتل متى ما عُرف أنه ساحر، وهذا قول الجمهور.

أما حكم الإتيان إليه : ففيه تفصيل :

إن كان هذا الشخص يعتقد أن هذا الساحر يملك النفع أو الضر أو أن له تأثيراً في الكون فهذا قد خرج من الإسلام إلى الكفر .

أما إذا كان يعتقد أن الأمور بيد الله، ولكن أريد الانتقام من فلان مثلاً فهذا على خطر عظيم، وهذا من أكبر الكبائر .

الوقفة التاسعة :

من أخطاء الناس في هذا الباب :

إن كثيراً من الناس يظن ويتوهم أنه مسحور وأن فلاناً سحره، فقد يراه في المنام من خلال التفاعل النفسي، فيتصل على من يؤول له هذه الرؤيا فيقول: أنت مسحور، فتبدأ معه سلسلة من الأوهام التي قد تودي بحياته كلها، والأمر أهون من هذا بكثير ، فكثرة الأوهام في هذا الأمر مرض بحد ذاته .

ومن الناس من قد لا يتحرى في معرفة مدى خبرة هذا الراقي، وهل هو ثقة في دينه وأمانته؟ فمن الراقين من قد لا يعرف الفرق بين ما هو متعلق بالأعصاب وما هو متعلق بالسحر .

السحرة ليسوا كما يظنهم البعض أن بيدهم كل شيء، وأنهم لا يقهرون، ويتخوف منهم، فلو كان هؤلاء السحرة لهم هذه القوة المزعومة

لجلبوها لأنفسهم ولملكوا الدنيا، ولكنهم بالعكس لا يعيشون إلا في الأمكنة القذرة، ولا يملكون الضر والنفع لأنفسهم فكيف يملكونه لغيرهم؟.

الوقفة العاشرة:

هل يمكن الجمع بين الرقية الشرعية والطب النفسي؟

إذا أصيب المسلم بمرض فعليه أن يشخص نفسه تشخيصاً دقيقاً، فمن الناس من يصاب بمرض يتوهم أنه أصيب بعين أو سحر وهو في الحقيقة لم يصب بشيء، فكثرة الأوهام والشكوك مرض بحد ذاته، والطب النفسي يؤكد أن الشخص قد تأتيه مصيبة شديدة فيغتم لها، ثم يعود أثرها على البدن من صداع ونحوه فيتوقع المريض أنه مصاب بعين، وفي الحقيقة هو يحتاج لعلاج نفسي.

ثم على من أصيب بعين أن يرقي نفسه إن استطاع، أو يرقيه من يثق بدينه وعلمه، فيرقي نفسه بالقرآن، والقرآن شفاء لكل مرض، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [١]، ولا بأس من استخدام الأدوية التي يصفها الطبيب النفسي المسلم الموثوق به المختص بهذا المجال؛ لأن من هذه الأدوية ما يقوي الإرادة لدى المريض، وعليه أن يحذر من الأدوية التي تستمر معه مدى الحياة إلا بعد التأكد أنه لا غنى عنها.

وبهذا نقول : نعم يمكن الجمع بين الرقية الشرعية والطب النفسي، فهما طريقان لا يتعارضان كما قد يظن البعض. وإنما يسيران في خطين متوازيين.

---

(١) سورة الإسراء ، الآية (٨٢).

وبناءً على هذا يمكن علاج الأمراض بالعلاج الأصل، وهو القرآن الكريم والأدعية المأثورة النبوية، ثم ما يتيسر من الأدوية من الطبيب العارف الموثوق.

والسحر مرض من الأمراض يعالج بالأصل - كما سبق - وقد يحتاج المريض - بحسب مرضه - إلى علاج بما يتيسر من الأدوية، والله أعلم .

٢٤- بابُ بيَانِ شَيْءٍ مِنْ أنْوَاعِ السِّحْرِ

قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ جعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بنِ العَلاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ ابنُ قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ العِيَافَةَ والطَّرْقَ والطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ**»(١). قَالَ عَوْفٌ: العِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ. والطَّرْقُ: الخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرْضِ. والجِبْتُ: قَالَ الحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطَانِ(٢). إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ. ولأَبِي دَاوُدَ والنَّسَائِيِّ وابْنِ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، المُسْنَدُ مِنْهُ.

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدِ اقتبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ**»(٣) رواهُ أَبُو دَاودَ،

---

(١)أخرجه أحمد (٣/٤٧٧) و(٥/٦٠) وأبو داود (رقم ٣٩٠٧، ٣٩٠٨) والطبراني في الكبير (١٨/٣٦٩ رقم ٩٤١ ـ ٩٤٥) والبغوي في شرح السنة (١٢/١٧٧ رقم ٣٢٥٦) والبيهقي (٨/١٣٩) وابن حبان في صحيحه (٧/٦٤٦ رقم ٦٠٩٨). قال النووي رحمه الله في رياض الصالحين (رقم ١٦٧٩): رواه أبو داود بإسناد حسن.

(٢)كذا بالأصل، والذي عند أحمد (٥/٦٠): «إنه الشيطان». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما افتتح النبي ﷺ مكة رنَّ إبليس رنَّة اجتمعت إليه جنوده فقال: ايئسوا أن ترتد أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا، ولكن افتنوهم في دينهم وأفشوا فيهم النوح. أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٢/١١/رقم ١٢٣١٨) وقال الهيثمي في المجمع (٣/١٦): رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

(٣) أخرجه أحمد (١/٣١١) وأبو داود (رقم ٣٩٠٥) وابن ماجه (رقم ٣٧٢٦) والبيهقي في الكبرى (٨/١٣٨ـ ١٣٩) والطبراني في الكبير (١١/١٣٥ رقم ١١٢٧٨) قال النووي في=

وإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

ولِلنَّسائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: «**مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، ومَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، ومَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكِلَ إِلَيْهِ**»[(1)].

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَلاَ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ؟ هِيَ: النَّمِيمَةُ، القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ**»[(2)] رَواهُ مُسْلِمٌ.

وَلَهُمَا عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا**»[(3)].

الوقفة الأولى :

شرح مفردات الباب:

(العيافة): مصدر عاف يعيف عيافة وهي زجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل، حيث كانوا يتشاءمون من الطير بأسمائها وأنواعها وأصواتها .

(الطرق) : هو الخط يخط في الأرض، يخطه الساحر أو الدجال فيظن المقابل أنه بهذه الخطوط يعلم من خلالها الغيب .

=رياض الصالحين (رقم ١٦٨٠): رواه أبو داود بإسناد صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٠٧٤).

(١) أخرجه النسائي (١١٢/٧ رقم ٤٠٧٦) .

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥١٤٦).

(الطيرة): على وزن فِعَلَة، التشاؤم بمرئي أو مسموع، وقيل التشاؤم بمعلوم مرئياً كان أو مسموعاً زماناً كان أو مكاناً، وهذا تعريف شامل.

(الجبت): كما قال الحسن : رنة الشيطان، وهذا جزء من الجبت، فيدخل فيه كل صوت، من أصوات الشياطين، ويدخل فيها الملاهي وغيرها .

(اقتبس) : تعلم .

(شعبة): طائفة.

(من النجوم): يسمى التعامل بهذا بالتنجيم وهو: الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية .

(ثم نفث فيها): النفث : النفخ بريق خفيف، والمراد هنا النفث من أجل السحر.

(العَضْهُ): على وزن الحبل والوعد وهي القطع .

وأما على رواية العِضة على وزن عِدة فهي التفريق .

(النميمة): على وزن فعيلة، وهي نقل الحديث بين الناس على وجه الإفساد .

(القالة): كثرة القول بين الناس.

(البيان): الفصاحة والبلاغة .

الوقفة الثانية:

لما ذكر المصنف - رحمه الله - السحر وأنه ناقض من نواقض التوحيد قد ينقض أصله وقد ينقض كماله ، فأراد أن يبين هنا أن السحر أنواع كثيرة؛ حتى لا يغتر شخص من الناس بهؤلاء السحرة إذا سمّوا أنفسهم

بأسماء أخرى - كما سيأتي في هذا الباب - ، والحقيقة أن تعاملهم هذا هو نوع من السحر، وأنهم سحرة يجب الحذر منهم .

الوقفة الثالثة:

ما وجه كون العيافة والطرق والطيرة والتنجيم والنميمة والبيان من السحر؟

الجواب على ذلك :

أن العيافة : كونها من السحر لأن الإنسان يستند فيها إلى أمر لا حقيقة له، فكون الطير يذهب يميناً أو شمالاً أو غير ذلك فلا أصل له وليس بسبب شرعي ولا حسي، فإذا اعتمد عليه فقد اعتمد على أمر خفي لا حقيقة له، وهذا سحر بالمعنى اللغوي.

والطيرة : لأنها مثل العيافة تستند على أمر خفي لا حقيقة له .

والطرق: من السحر لأنهم يستعملونه في السحر ويتوصلون به إليه.

والتنجيم : أيضاً لأنها تستند على أمر خفي لا حقيقة له .

والنميمة : أشبهت السحر من جهة الإفساد، فنقل الحديث بين الناس سواءً كان صدقاً أو كذباً على وجه الإفساد؛ فإنه بذلك يفرق بينهم ويجعلهم أحزاباً، سواء كان ذلك على مستوى الأفراد أم الجماعات .

والبيان : كونه يشبه السحر وذلك لأنه يأخذ بلب السمع فيصرفه أو يعطفه، فيظن السامع أن الباطل حق لقوة تأثير المتكلم فينصرف إليه، فهو من جنس السحر الذي يسمى عطفاً وصرفاً.

الوقفة الرابعة:

مع حديث أبي هريرة : (**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر**) الحديث. في هذا بيان كيفية عمل الساحر والتحذير من ذلك .

والساحر يقوم بعقد عقد والنفث فيها ، ويتعامل مع الشياطين برموز، ثم بين ﷺ أن (**من تعلق شيئاً وكل إليه**) فمن تعلق بغير الله فقد يجره هذا العمل إلى الشرك بالله لأن فيه اعتماداً على غير الله، والناس قد يقعون في هذا من غير أن يشعروا، فتجد المريض قد يذهب إلى الطبيب لطلب العلاج لكنه يعتقد أن هذا الطبيب يشفي، ثم يبحث عن واسطة لهذا الطبيب وكأن الطبيب إذا جاء من يعرفه أعطاه الشفاء، ولا يدري هذا المسكين أن الطبيب إنما هو سبب إن شاء الله جعل على يديه الشفاء وإلا فقد يصف الدواء بحسب خبرته، ولكن هذا الدواء لا يعالج الداء فلا يُشفى المريض، ولذا فُرّق بين الدواء والشفاء لأن الدواء قد يصيب موضع الداء فيشفى المريض وقد لا يصيبه فلا يشفى ولهذا سمي دواء، فمن توكل على الله حق التوكل تحقق له الشفاء سواء بواسطة هذا الدواء أو غيره كالقرآن ، ومن هنا يتبين لنا أهمية التوكل على الله، وأن من توكل عليه كفاه .

الوقفة الخامسة :

أضرار النميمة وكيف السبيل لتركها؟ فمن أضرارها :

١ - إفساد الود والمحبة والأخوة بين الناس .

٢ - انتشار سوء الظن بين الناس .

٣ - التقول على الإنسان بما لم يقله، وهذا جمع بين جريمتين

النميمة والكذب، وكلاهما ذنبان كبيران.

٤ - دخول الشيطان بين الناس، وإذا دخل عليهم الشيطان أفسد عليهم عباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم وسلوكهم .

٥ - والنميمة سبب في عذاب القبر ، كما صح في الحديث.

أما السبيل إلى تركها :

أ - بالنسبة إلى من وقع فيها :

١ - تعظيم الخوف من الله واستشعار عظمة العقوبة في ذلك .

٢ - أن يتذكر أن أمره سيكشف إما عاجلاً أو آجلاً .

٣ - أن يتذكر أن النميمة من الذنوب المتعدي ضررها إلى الغير، فهي أعظم إثماً من غيرها وعقوبتها مضاعفة، ولهذا جعلها النبي ﷺ من العِضَه وهي القطع والبُهت.

٤ - يتذكر قول الله تعالى : ﴿**مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ [(١)] .

٥ - أن يشغل وقته بذكر الله، وأن يشغل مجلسه في ما هو مفيد، أو على الأقل فيما لا إثم فيه .

ب - بالنسبة إلى المستمع لها :

أن ينصح النمام أو المغتاب بالوسيلة الأنسب، فإن لم يستجب المتحدث فليشغل نفسه عن سماعه له بالتحدث لشخص آخر، فإن لم يستطع أن يتشاغل عنه فليخرج عن هذا المجلس، فإن لم يستطع الخروج شغل وقته بذكر الله .

---

(١) سورة ق، الآية (١٨) .

الوقفة السادسة :

ليس كل البيان مذموماً؛ فالهدي النبوي يشير إلى أن الكلام بحسب بلاغته يؤثر على المستمع سلباً أو إيجاباً ، فإن كان الكلام جيداً صار أثره إيجابياً وإن كان سيئاً صار أثره سلبياً . وهذا قال ﷺ : (**إن من البيان لسحرا**) .

الوقفة السابعة :

إذا ضعف الإيمان والتوكل على الله عند العبد فإنه سيتبع أي سبيل يبعث عنده روح الإرادة والقوة في نفسه، ولهذا تجد الكثير يريد أن يعرف مستقبله القريب أو البعيد، سواء كان ذلك عن طريق العيافة أو الطرق أو الطيرة أو الاستدلال بالنجوم لمعرفة ما ينتظره في المستقبل، كل هذا يدل على ضعف اليقين وضعف التوكل، فليتنبه المسلم إلى ذلك، ويقوي توكله على الله تعالى وارتباطه به، فلا يلجأ إلى تلك الوسائل الضعيفة ، فترديه المهالك في الدنيا والآخرة .

٢٥- بَابُ مَا جَاءَ فِي الكُهَّانِ ونَحْوِهِمْ

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»[١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»[٢] رَوَاهُ أَبو دَاودَ.

ولِلأَرْبَعَةِ والحَاكِمِ وقَالَ: صَحيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا، عَنْ [أَبي هُرَيْرَةَ] عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»[٣].

ولأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا[٤].

وعَنْ عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ ﷺ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ، أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ، أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ، أَوْ سُحِرَ لَهُ، ومَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ،

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٣٠) وليس فيه جملة: «فصدقه بما يقول» وهي عند أحمد في المسند (٦٨/٤) (٣٨٠/٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٩٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٣٩٠٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٩٤٢).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ١٣٥) وابن ماجه (رقم ٦٣٩) وأحمد (٤٢٩/٢) والحاكم (٨/١) والبيهقي في الكبرى (٣٢١/٧) قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٩٣٩).

(٤) أخرجه أبو يعلى (٢٨٠/٩ رقم ٥٤٠٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١/٥): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، إلا أنه قال: فصدقه. وكذلك رواية البزار ورجال الكبير والبزار ثقات. ثم قال بعد أن أورد رواية عبد الله بن مسعود: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا هبيرة ابن مريم وهو ثقة.

فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»[١] رَوَاهُ البَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ، ورَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ في الأوسط بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، مِنْ حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ دُونَ قَوْلِهِ: «وَمَنْ أَتَى» إِلى آخِرِهِ[٢].

قَالَ البَغَوِيُّ: العَرَّافُ: الذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى المَسْرُوقِ ومَكَانِ الضَّالَّةِ ونَحْوِ ذَلِكَ، وقِيلَ هُوَ: الكَاهِنُ. والكَاهِنُ: هُوَ الذِي يُخْبِرُ عَنِ المُغَيَّبَاتِ فِي المُسْتَقْبَلِ. وقِيلَ: الذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ ابنُ تَيْمِيَّةَ: العَرَّافُ: اسْمٌ لِلْكَاهِنِ والمُنَجِّمِ والرَّمَّالِ ونَحْوِهِمْ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ «يَكْتُبُونَ» أَبَا جَادٍ ويَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ: ما أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ[٣].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٢/١٨ رقم ٣٥٥) قال الهيثمي في المجمع (١٢٠/٥): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٤٣٥).

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٠/٥): رواه البزار والطبراني في الأوسط .

(٣)يروى في ذلك حديث، مرفوع فيه: «رب معلم حروف أبي جاد دارس في النجوم ليس له عند الله خلاق يوم القيامة». أخرجه الطبراني في الكبير (٤١/١١ رقم ١٠٩٨٠) وقال الهيثمي في المجمع (١٢٠/٥): رواه الطبراني وفيه خالد بن يزيد العمري وهو كذاب. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٣٠٩٢) وقال في السلسلة الضعيفة (٤٢١/١ رقم ٤١٧): موضوع.

قال الفيروزآبادي رحمه الله في القاموس (ص٢٧٥): ووقعوا في أبيجاد، أي في باطل.

الوقفة الأولى :

شرح مفردات الباب:

(الكهان) جمع كاهن، وهو الذي يأخذ من مسترق السمع ويخبر عن المغيبات في المستقبل. وسبق في أبواب السحر طريقة استراق الجن للسمع فيرجع إليه .

(العراف): الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها .

وقيل هو الكاهن: وقيل اسم عام للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يستدل على معرفة الغيب بمقدمات .

(تطير أو تطير له) الطيرة: هي التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم أو غير ذلك ومعناه في الحديث (تَطَيَّر) هو الذي قام بفعل الطيرة إما بزجر الطير أو غيره.

(أو تُطُير له) أمر من يتطير له غيره بأن يزجر طيره مثلاً.

وكذلك (أو تُكُهِّن له) أي طلب من الكاهن أن يتكهن له .

(يكتبون (أبا جاد)) هذه اختصار لمجموعة حروف يقطعونها إلى مربعات ويدعون من خلالها معرفة الغيب .

الوقفة الثانية:

إن أعمال الكهانة وغيرها إما أن تكون ناقضة لأصل التوحيد وقد تكون قادحة في كمال التوحيد إذا استعملها من باب العبث، وسيأتي تفصيله إن شاء الله، وبهذا يتبين مناسبة الباب لكتاب التوحيد.

الوقفة الثالثة :

حكم العرافة والكهانة وحكم سؤال العرافين والكهان :

١- حكم الكهانة والعرافة : الكاهن أو العراف يكفر من وجهين :

أ - إذا كان يستخدم الجن فيما يدعي علمه به فهو كافر كفراً أكبر؛ لأن الجن لا تخدمه حتى يكفر بالله ويهين القرآن وغير ذلك من أعمال الكفر التي تخالف التوحيد .

ب - ادعاؤه للغيب وهذا مكفر آخر .

٢- أما حكم سؤالهما : له عدة حالات :

١ - أن يسأله سؤالاً مجرداً، فهذا حرام لا تقبل له صلاة أربعين يوماً كما في حديث الباب .

٢ - أن يسأله ويصدقه وهذا فيه تفصيل :

أ - إن صدقه على أنه فعلاً يعلم الغيب فقد كفر للحديث .

ب - إن سأله وهو يعلم أنه يستخدم الشياطين وقد يصيب وقد يخطئ فهذا على خطر عظيم، وقد وقع في كبيرة من الكبائر .

٣ - أن يسأله ليختبره فلا بأس به لسؤال النبي ﷺ ابن صياد عن الخبيء الذي خبأه له [١] .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب كيف يعرض الإسلام على الصبي (٢٨٢٧)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر ابن صياد (٥٢١٥).

٤ - أن يسأله ليبين كذبه وعجزه فهذا مطلوب، بل قد يكون واجباً [١]

الوقفة الرابعة: أخطاء وتنبيهات:

١ - على المسلم أن يقوي صلته بالله، ويعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، وأن الأمر كله بيد الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومقاليد الأمور كلها عنده سبحانه، فعلق نفسك به واطلب منه العون، وتوكل عليه في شؤونك كلها، فلا تطلب من دونه بديلاً .

٢ - الكاهن والعراف وغيرهما ممن يدعي علم الغيب ويزعم أنه يستطيع أن يكشف المستقبل فهو كافر؛ إذ لا يعلم الغيب إلا الله، فمهما تغير مسمى هذا المدعي ما دام أن الهدف واحد فاحذر منه وتنبه حتى لا تقع في الإثم والخطئية .

٣ - الحذر من سؤال مدعي الغيب؛ فإنك إن سألته ولم تصدقه أو صدقته وقعت في المحذور بحسب ما قدمنا لك تفصيله، فاحذر حتى لا تحرم أجر صلاة أربعين يوماً، أو تقع في الكبيرة، أو تقع في الكفر والعياذ بالله .

---

(١) ينظر: القول المفيد (١/٥٣١) .

٢٦- بَابُ ما جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

عَنْ جابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ؟ فَقَالَ: «**هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**»[١] رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وأَبُو دَاوُدَ، وقَالَ: سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؟ فَقَالَ: ابنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ.

وفِي «البُخَارِيِّ» عَنْ قَتَادَةَ: قُلْتُ لابنِ المُسَيِّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَوْ يُؤْخَذُ عَنِ امْرَأَتِهِ، أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنْشَرُ؟ قَالَ: لا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ به الإِصْلاحَ، فَأَمَّا ما يَنْفَعُ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ[٢]. انتهى ورُوِي عَنِ الحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: لا يَحُلُّ السِّحْرَ إلاَّ سَاحِرٌ.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ: النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحْرِ عَنِ المَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ:

أَحْدَهُمَا: حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، وهُوَ الذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ والمُنْتَشِرُ إِلَى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ المَسْحُورِ.

والثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ والتَّعَوُّذَاتِ والأَدْوِيَةِ والدَّعَوَاتِ المُبَاحَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ.

الوقفة الأولى :

شرح مفردات الباب:

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٢٩٤) وأبو داود (رقم ٣٨٦٨) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/٢٣٣): ووصله أحمد وأبو داود بسند حسن عن جابر.

(٢)أخرجه البخاري معلقاً في كتاب: الطب، باب: هل يستخرج السحر (ص١١٢٩).

(النشرة) لغةً: بضم النون من نشر الشيء إذا فرقه .
واصطلاحاً: حل السحر عن المسحور .
سميت بذلك لأن الذي يحل السحر عن المسحور يكشفه ويزيله ويفرقه .
وهي نوعان :
الأول: حل السحر بسحر مثله وهي النشرة المعروفة في الجاهلية .
الثاني: حل السحر بالقرآن والأدعية والأسباب المشروعة.
(به طب): يعني به سحر ويقال: طب من باب التفاؤل .
(يؤخذ عن امرأته) : أي لا يستطيع أن يمارس مع امرأته الممارسة الشرعية.

الوقفة الثانية :

حكم النُشرة :

أ/النشرة بمعنى حل السحر بسحر مثله لا تجوز، وقد أخبر النبي ﷺ فيما رواه أحمد وأبو داود أنها من عمل الشيطان ، وقال الإمام أحمد لما سُئل عنها قال، ابن مسعود كان يكره هذا كله، والكراهية هنا بمعنى التحريم، **فذهاب المسحور للساحر لا يجوز لأمور:**

أولاً: أن المسحور لما ذهب إلى الساحر ليفكه فهو اعتقد أنه هو الذي يحل هذا السحر، وقد يستطيع حله لأنه بحسب نوع الشياطين الذين معه، فإن كانت الشياطين التي مع هذا الساحر أقوى من الشياطين التي سحر بها فهذا قد يقدر، وأما إذا كانت الشياطين أضعف فلا يستطيع ولا يقدر .

وقد يكون هناك تنسيق بينهما . وكل هذا من التلاعب بالإنسان ، وفي الأغلب يرجع إليه السحر مرة أخرى ليتلاعب به وهكذا، والله جل وعلا لم يجعل الإنسان لعبة للشياطين، وذهابه إليهم يجعله كذلك.

ثانياً: أن الله سبحانه وتعالى حرم السحر وجعله كفراً ، فإن قلنا: إنه يجوز أن يحل السحر بسحر مثله كأننا نروج لبضاعة هؤلاء الشياطين بهؤلاء السحرة .

ثالثاً: ما دامت المسألة متعلقة بالشياطين فما يمنع هذا الشيطان الذي فك السحر أن يجعله يوماً أو يومين أو ثلاثة ثم يعيده، فهو فكه بناءً على التقرب له من الساحر من ذبح أو نذر أو خدمة معينة، فقد يعيده بعد فترة لكي يتقرب إليه الساحر لتستمر العملية بهذا الدوران، ومن ثم ينتشر هؤلاء السحرة وتنتشر أعمالهم ويتعلق بهم الناس .

رابعاً : أنه يقذف في قلبه قدرة هذا الساحر على أمور لم يقدر عليها كل الناس، وهذا ابتلاء شديد بأن يضعف توحيد الإنسان وتعلقه بالله سبحانه وتعالى .

خامساً: أن الذين ذهبوا إلى أولئك من الواقع العملي أن يرجع إليهم السحر بعد مدة، وهذا الغالب؛ لأن هذا الذي ضعف وأتى إليهم معنى ذلك أن لديه الاستعداد إلى أن يعود مرة أخرى إذا شفي من مرض فيسحر بسحر آخر ليأتي إليه من غير السحر الذي سحر به أولاً، فيستمر يطرق الباب على هؤلاء السحرة، لأن لديه الاستعداد الكامل لتقبل ما يقول هؤلاء .

ب/ حكم النشرة بمعنى حل السحر بالرقية الشرعية وبالتعويذات وبالدعاء وبالأدوية المباحة، وهي النوع الثاني، فهذه جائزة ولا إشكال فيها، والنبي ﷺ رقاه جبريل عليه السلام لما سحر ورقى غيره، ونزل القرآن ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾ و﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾ بأن يرقي النبي ﷺ نفسه، وكذلك في الأدوية المباحة التي ظهرت في التجارب، كما جاء عن بعض التابعين رحمهم أنهم يرون الاغتسال بالماء والسدر، فمن مزاياه أن الشياطين تنفر منه، وكذا لو عرف مثل ذلك، كما يثبت في الطب من خلال التجارب أن هذا الدواء بإذن الله يعالج هذا الداء.

ويجب أن نعلم أن القرآن كله شفاء، كما قال تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَاراً**﴾ (١) وقوله سبحانه : ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ**﴾ (٢) .

فالقرآن يفك السحر إن طال الزمن أ وقصر، لكن لنعلم أمرين:

الأمر الأول : قوة الراقي بالقرآن فيعتقد الراقي أن الشفاء بالقرآن، ولا يقل: أُجرِّب، فالقضايا والحقائق القرآنية غير قابلة للتجربة .

الأمر الثاني: المريض المسحور أو غير المسحور يجب أن يعتقد أن القرآن شفاء ، لا يقل: ذهبت إلى البلد الفلاني ولم أستفد، وذهبت إلى المستشفى الفلاني ولم أستفد ، فإذاً (أجرب القرآن) فالقرآن ليس ميداناً للتجربة، فيجب أن يتلقاها المريض بكل يقين لأن فيه الشفاء ، فالشفاء قد

---

(١) سورة الإسراء ، الآية (٨٢).

(٢) سورة فصلت، الآية (٤٤).

يكون في يوم أو شهر أو سنة أو قد يطول، فعليه بالمواصلة والدعاء.

فإن استجيب له شفي، وهو في أي الأحوال إما أن يعجل له وإما أن يؤخر فيراه مستقبلاً ، وإما أن ينفك عنه من الشر ما كان مقدراً عليه، وإما أن يراه من الآخرة، وهذا لا إشكال فيه، إذا صدق الإنسان في دعائه وعمل بالأسباب المفضية إلى قبول الدعاء وتجنب الموانع فدعاؤه متحقق بلا شك؛ كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١].

وكما تكون الرقية الشرعية بالقرآن تكون أيضاً بما ورد عن النبي ﷺ من الأدعية مثل : (**اللهم رب الناس ، مذهب البأس، اشف لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً**)[٢] .

و(**بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم**)[٣] ثلاث مرات في الصباح والمساء، وغير ذلك من الأدعية التي وردت في السنة، وهي موجودة ومنتشرة - ولله الحمد - في كتب الأذكار مثل كتاب الأذكار للنووي والكلم الطيب لابن القيم الجوزية - رحمهم الله جميعاً -، وكذلك تكون في عامة الأدعية ما لم تكن حراماً؛ بمعنى لا يكون فيها توسل للشياطين ولا بالقبور والأضرحة، فتكون خالصة لله عز وجل .

---

(١) سورة غافر، الآية (٦٠) .

(٢) رواه البخاري في كتاب : الطب ، باب : رقية النبي ﷺ ، برقم (٥٤١٠) ، ورواه مسلم في كتاب السلام، باب : استحباب رقية المريض، برقم (٢١٩١).

(٣) سبق تخريجه في الباب (١٢).

الوقفة الثالثة :

يعتقد بعض الناس أن الأمراض وخاصة السحر والعين لا يمكن أن تحل إلا بالرقية الشرعية ، وهذا لا إشكال فيه، ولكن أيضاً قد يُوجد في زمن ما لم يكن في زمن آخر، فلا يعني أننا إذا استعملنا الرقية الشرعية لمرض من الأمراض لا نذهب للطبيب الذي يداوي بالدواء الحسي، كما ثبت عند التابعين الدواء بالسدر والاغتسال به ، فمع الزمن توجد بعض الأشياء بالتجارب العلمية والعملية، ومن ذلك ما يسمى بالطب النفسي؛ فلا مانع من الذهاب للطبيب النفسي لعلاج بعض الظواهر المرضية عند من يوثق به، كما أنه يذهب إلى الطبيب الموثوق به في علاج الباطنية وغيرها، وقد يشفى هذا الإنسان بسبب هذا الطبيب وقد لا يشفى كغيره من الأمراض .

ومن المعلوم أن الرقية الشرعية تعالج أصل الداء، فهي تعالج أصل السحر والعين، أما الطبيب النفسي فلا يعالج إلا الظاهر . فالأمران متكاملان وليسا متعارضين، ولا يمنع أن يستفاد من ذلك كله، ولكن بالضوابط الشرعية العامة ، فلا يُذهب إلى كل مدعي الطب ولا لمن ثبت فشله بل لمن استقام دينه وعرف بعلميته الطبية وأمانته وورعه.

كما يجب الحذر ممن يجعلون الرقية شعاراً لهم وهم يستعملون الشعوذة والدجل ، فعلى المريض أو ولي المريض أن يتنبه لهذا الراقي، ولذلك يجب أن يكون هذا الراقي قارئاً للقرآن غير لاحن فيه، وأن يكون صادقاً أميناً معروفاً بالاستقامة ، وإن كان طالب علم فهو أولى، فكما أن الطب أصبح مجالاً للتكسب فكذلك أيضاً الرقية أصبحت مجالاً لهذا الأمر .

ومع هذا كله فليعلم العبد أن هذه كلها أسباب لا تغني عن ضرورة التوكل على الله عز وجل، فهو الذي بيده مقاليد كل شيء، سبحانه وتعالى من حكيم خبير .

٢٧- بابُ ما جاءَ فِي التَّطَيُّر

وقَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٣١]

وقوله: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لاعَدْوَى، ولا طِيَرَةَ، ولا هَامَةَ، ولا صَفَرَ**»[١] أَخْرَجَاهُ. زَادَ مُسْلِمٌ: «**ولا نَوْءَ ولا غُولَ**»[٢].

ولَهُمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**لا عَدْوَى، ولا طِيَرَةَ، ويُعْجِبُنِي الفَأْلُ**» قَالُوا: ومَا الفَأْلُ؟ قَالَ: «**الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**»[٣].

ولأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَحْسَنُهَا الفَأْلُ، ولا تَرُدُّ مُسْلِماً، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلِ: اللهُمَّ لا يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إِلاَّ أَنْتَ، ولا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلاَّ أَنْتَ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ**»[٤].

وعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، ومَا مِنَّا إِلاَّ**،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٠٧) ومسلم (رقم ١٠٢/٢٢٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٠٩/٢٢٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٧٦) ومسلم (رقم ٢٢٢٤).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ٣٩١٩) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٢٩٣) والبيهقي في الكبرى (١٣٩/٨).

ولَكِنَّ اللهُ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»[(١)] رَواهُ أَبو دَاوُدَ والتِّرْمِذِيُّ وصَحَّحَهُ، وجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابنِ مَسْعُودٍ[(٢)].

ولأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابنِ عَمْرٍو: «**مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ**». قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «**أَنْ تَقُولَ: اللهُمَّ لا خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُكَ، ولا طَيْرَ إِلاَّ طَيْرُكَ، ولا إِلَهَ غَيْرُكَ**»[(٣)]. ولَهُ مِنْ حَدِيثِ الفَضْلِ بنِ عَبَّاسٍ ﷺ: «**إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ**»[(٤)].

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٩١٠) الترمذي (رقم ١٦١٤) وابن ماجه (رقم ٣٥٣٨) قال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح.

(٢) قال ابن الأثير رحمه الله في النهاية (٣/١٥٢): وقيل: إن قوله: «وما منا إلا» من قول ابن مسعود أدرجه في الحديث، وإنما جعل الطيرة من الشرك، لأنهم كانوا يعتقدون أن التطير يجلب لهم نفعاً أو يدفع عنهم ضرًّا إذا عملوا بموجبه، فكأنهم أشركوه مع الله في ذلك. وقوله: «ولكن الله يذهبه بالتوكل» معناه: أنه إذا خطر له عارض التطير، فتوكل على الله وسلم إليه، ولم يعمل بذلك الخاطر غفر الله له، ولم يؤاخذه به.

ولكن الألباني رحمه الله اختار في السلسلة الصحيحة (١/٧٩١ـ ٧٩٢ رقم ٤٢٩) عدم الإدراج فقال: قلت: يعني أن هذا القدر من الحديث مدرج ليس مرفوعاً، وكأنه لهذا لم يورده السيوطي بتمامه، وإنما أورد الجملة الأولى منه، اعتماداً على كلام ابن حرب. قال الشارح المناوي: لكن تعقبه ابن القطان بأن كل كلام مسوق في سياق لا يقبل دعوى درجه إلا بحجة. قلت: ولا حجة هنا في الإدراج، فالحديث صحيح بكامله.

(٣) أخرجه أحمد (٢/٢٢٠) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٢٩٢)، قال الهيثمي في المجمع (٥/١٠٨): رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/٥٣. ٥٤ رقم ١٠٦٥).

(٤) أخرجه أحمد (١/٢١٣) وفيه انقطاع، فإن مسلمة الجهني لم يسمع من الفضل.

الوقفة الأولى :

شرح مفردات الباب:

(التطير) : الطيرة بكسر الطاء . وهو التشاؤم بالطير .

(هامة): طير من طيور الليل وتسمى البومة.

(صفر): هو أحد أشهر السنة، وكان العرب يتشاءمون منه.

(نوء): مفرد (أنواء) وهي منازل القمر.

(غول): هو جنس من الجن والشياطين.

(حول): الانتقال من حال إلى حال.

(قوة) : القدرة على الشيء.

الوقفة الثانية:

علاقة هذا الباب بكتاب التوحيد هي لبيان أن التطير يقدح في توحيد العبد لله عز وجل ، فإذا علمنا أن الذي يقدّر الأمور كلها هو الله عز وجل ، دلّ على أنه لا طير البوم ولا غيره له علاقة بالأمور الغيبية مستقبلاً، وإنما الأمر كله لله سبحانه وتعالى ، فالذي يقع في -هذا التطير- كما سيأتي يخل بتوحيده لله عز وجل؛ إما إخلالاً كلياً وإما إخلالاً جزئياً بحسب هذا التطير .

الوقفة الثالثة :

قال المصنف - رحمه الله - وقوله تعالى: ﴿**أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف:١٣١] .

فلما تطيروا هذا التطير جاءهم بسبب الكفر والتكذيب بآيات الله وبرسله وبالذات عن هذا القول بموسى عليه السلام ﴿**أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ**﴾ ،

فالله سبحانه وتعالى ذكر اللفظ بناءً على ما كانوا يفعلونه، وإلا فالمعنى ما قضاه الله وقدره عليهم، وما وقع عليهم مما جعلوه تطيراً هو بقدر الله سبحانه وتعالى وبقضائه جل وعلا ، ولكن هؤلاء قوم جاهلون لا يعلمون كما ذكرهم الله سبحانه وتعالى .

الوقفة الرابعة:

وقوله تعالى : ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [يس:١٩] هذا تقريب من الله سبحانه وتعالى، ﴿طَائِرُكُمْ ﴾ بمعنى حظكم، وما نابكم من الشر، ﴿ مَعَكُمْ﴾: يعني: أفعالكم وكفركم، ﴿ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ : يعني قلتم: إنا تطيرنا بكم ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾: يعني عادتكم الإسراف في العصيان، ومنه جاءكم التشاؤم عقيدة لكم من الله سبحانه وتعالى، وهذا إقرار من الله سبحانه وتعالى وبيان لهم بأن ما جاءهم من التطير والتشاؤم بسبب أنفسهم بما فعلوه من الفسق والخروج عن طاعة الله سبحانه وتعالى .

الوقفة الخامسة :

مر بنا أن معنى التطير جاء بسبب أهل الجاهلية لتشاؤمهم من الطير فاصطلح له هذا المسمى .

هل هذا الأمر ينتقل إلى وصف الأفعال الأخرى التي قد تكون له علاقة بالطير؛ مثل مواقف معينة أو استشهادات في هذا الباب ؟

قضية الطير هذه مجرد مثال على ما كان يفعله أهل الجاهلية، وإلا فالخرافات التي تعج بها الجاهلية لا حد لها فهي كثيرة جداً، وهذا المثال يمكن تطبيقه على سائر الأمور، مثل أن يتطير الإنسان بسيارة مثلاً أوجو من

الأجواء، كأن يكون هناك مطر، أو غبار، أو هواء وهكذا، فلا يفعل هذا الفعل الذي يريد أن يفعله ، فيرده هذا الأمر تطيراً وتشاؤماً بأنه سيقع مكيدة ومصيبة لو عمل هذا العمل، فأهل الجاهلية كانوا يتطيرون بطائر البوم والأيام والأشهر مثل شهر صفر، ويتطيرون بما يسمونه بالغول -كما سيأتي- وهو نوع من الشياطين، ويتطيرون بالنجوم يقولون: أنت نجمك سعيد وأنت نجمك شقي وهكذا.

الوقفة السادسة:

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر**) أخرجاه زاد مسلم (**ولا نوء ولا غول**)، هذا الحديث في غاية الأهمية في تثبيت المسلم على عقيدة التوحيد، ويتبين لنا كيف أن هذا الحديث الوجيز كان جامعاً لفوائد عظيمة جداً في تثبيت عقيدة المسلم .

وهناك إشكال وهو:

قد يقول قائل : يقول النبي ﷺ (لا عدوى) ونحن نجد في الواقع المحسوس أن كثيراً من الأمراض تنتقل من شخص إلى آخر عن طريق الحشرات مثلاً كالذباب أو البعوض ونحو ذلك أو الفيروسات الموجودة في الهواء؟

نعم هذا يقع بلا شك وهو واقع محسوس، ولذلك أيضاً قال النبي ﷺ : (**وفر من المجذوم فرارك من الأسد**) (١) يعني هل هذا تناقض في توجيهات النبي ﷺ؟ **الجواب: لا** ، فإن العدوى بذاتها لا تضر، إنما إذا قدر

---

(١) رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم ، كتاب الطب، باب الجذام برقم :(٥٧٠٧) .

الله سبحانه وتعالى أن المرض ينتقل، وقد تجد البيت الواحد يكون فيه عشرة أشخاص ويمرض واحد وينتقل هذا المرض إلى اثنين أو ثلاثة، لكن البقية لا ينتقل المرض إليهم لماذا؟ هذا يعلمنا أن هذا الانتقال بقدر الله سبحانه وتعالى، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي أوجد هذا المرض، وهو الذي جعل من طبيعة هذا المرض أن ينتقل، وفي الوقت نفسه هذا الانتقال إذا شاء الله جل وعلا أن ينتقل إلى شخص دون آخر فهو كما قدره الله سبحانه وتعالى.

وفي قصة عمر بن الخطاب ﷺ حينما أراد أن يذهب إلى الشام، فذُكر أن فيها الطاعون، فاستشار بعض من معه من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فأشاروا عليه ألا ندخل هذه البلدة التي فيها الطاعون، فقرر عمر ﷺ الرجوع وعدم دخول الشام، فجاءه أبو عبيدة بن الجراح ﷺ فقال لأمير المؤمنين ﷺ: أفراراً من قدر الله؟ يحتج على أمير المؤمنين ﷺ بأنه يفر من قدر الله؟ قال عمر ﷺ: (نفر من قدر الله إلى قدر الله) فالذي قدر وجود هذا الطاعون هو الذي أمرنا ألا ندخل في بلدة فيها هذا الطاعون، وفي الوقت نفسه لو جاء شخص يريد أن يفر من هذه البلدة التي وجد فيها الطاعون نقول له : لا تفر إن وجدت في هذا المكان الذي فيه الوباء، ولئلا تدخل بلدة فتنقل العدوى، وهنا تجمع بين قوله (لا عدوى) وقوله (وفر من المجزوم فرارك من الأسد) .

الوقفة السابعة :

يتلخص مما سبق بيان المنهج الذي يتعامل به المسلم مع هذه الأشياء مما يعرض له؛ ومنه: -

الأمر الأول: أن الأصل التوكل على الله في جميع الأمور، فأنت في هذه الدنيا لا تسير نفسك ولا تقدر لنفسك ما شئت، وإنما الأمور تتم بقدر الله سبحانه وتعالى، فعليك أن تتوكل على الله سبحانه وتعالى في كل شيء، ولذلك علمنا الله عز وجل هذا المعنى بما نقرأه في كل ركعة من ركعات الصلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١) .

الأمر الثاني: وهو ينبني على الأمر الأول ، معرفة أن الأمور بيد الله صغيرها وكبيرها، حتى النملة السوداء التي تدب على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء يعلم ربنا جل وعلا مسارها ، كما يعلم ما يجري في أعماق البحار في الليالي الشديدة السوداء ، فالله سبحانه وتعالى بيده الأمور كلها، وهو الذي يحيط بها علماً، فينبني على التوكل على الله سبحانه وتعالى معرفة أن المقادير كلها بيد الله سبحانه وتعالى .

الأمر الثالث : أن سلوك المسلم في حياته كلها يجب أن يكون وفق شرع الله وتعاليمه، فيسافر في أي وقت متى تهيأت أسباب السفر، ويتزوج إذا تيسرت أسباب الزواج وغيرها من الأعمال من دون تشاؤم أو تعلق بالآخرين ونحو ذلك.

الأمر الرابع: أنه لا مانع من عمل الأسباب؛ كما قال ﷺ: (اعقلها

---

(١) سورة الفاتحة ، الآية (٤).

وتوكل) [١] ولابد من عمل الأسباب.

الأمر الخامس: أنه إذا قدر خلاف ما عمل الإنسان يطمئن؛ لأنه عمل ما يستطيع وما عليه، والنتائج بيد الله سبحانه وتعالى، فيعلم العبد أن مقاديره لحكم يعلمها سبحانه .

الوقفة الثامنة :

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (**لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل، قالوا** وما الفأل ؟ قال: **الكلمة الطيبة**) .

هذه زيادة في معالم منهج المسلم في التعامل مع الأشياء، ومنها الأمور التي أشرنا إليها من قبل، فعرفنا معنى (**لا عدوى ولا طيرة**) ثم قال النبي ﷺ في هذا الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: (ويعجبني الفأل) والفأل فسره النبي ﷺ بالكلمة الطيبة، وهذا من باب التمثيل، فمثلاً لو كان شخص مريضاً ودخل عليه آخر يزوره فقال له: طهور إن شاء الله ، فالمريض هنا يستبشر وتنفتح له الآمال؛ **لأن** مستقبله الطهارة والسلامة بإذن الله عز وجل، ولذلك أُمِر الزائر والعائد للمريض أن يأتي بالكلام الطيب مثل: طهور إن شاء الله، فيتفاءل الإنسان بما يحدث له ، وهذا أمر في غاية الأهمية، ولذلك جاء في الحديث القدسي (**أنا عند حسن ظن عبدي بي**) [٢]

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ (٢٤٤١)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٥١٧) .

(٢) رواه البخاري بلفظ (عند ظن عبدي بي) في كتاب: التوحيد باب قوله تعالى: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ**﴾ (٦٨٥٦)، ومسلم بنفس اللفظ في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب الحث على ذكر الله (٤٨٣٢) ولفظ (أنا عند حسن ظن عبدي بي) .

ويحسن التفاؤل وحُسن الظن بالله عز وجل في أوقات الشدائد كعند الموت، فعلى المسلم الذي يُحتَضَر أو من عنده أن يفتح له الآفاق والاستبشار وحسن الظن بالله جل وعلا، وحينئذ يكون كذلك بإذن الله. فإذا ظن العبد بربه خيراً بأنه سيغفر له وبأنه سيدخله الجنة كان كذلك بإذن الله عز وجل .

فكذلك هنا في الأمور الدنيوية (يعجبني الفأل) مثلاً: يخرج الطالب من الامتحان فتسأله: كيف أديت الاختبار؟ قال: سيء مثلاً، فهذا يتشائم، لكن آخر يقول: الحمد لله عملنا السبب وأرجو أن يكون خيراً، فهذا يكون خيراً بإذن الله عز وجل؛ ولأن الأمور كلها بيد الله سبحانه وتعالى، مثال آخر: يبحث الإنسان عن وظيفة أو طلب رزق أو عيش فيذهب إلى المؤسسة الفلانية فيقول له: كيف معاملتك؟ فيقول: يظهر أنه ما فيه قبول فكأنه، حكم على مستقبله، هذا تشاؤم، لكن شخصاً آخر يقول: إن شاء الله سيكون الأمر أفضل مما توقعت، هذا تفاؤل.

فالأول الذي تشاءم وقال: إنه قد لا يُقبل هذا فسيعيش في قلق، لكن الآخر سيعيش في راحة وطمأنينة لأنه ينظر إلى مستقبل مشرق، وهكذا حتى ولو لم يتم له هذا الأمر فسيتم له الأمر الثاني أو الثالث، لكن ذلك اليائس والمتشائم سيحبط ولا يمكن أن يمشي في المعاملة الثانية إلا بتثاقل. وإذا أخذنا هذا الأمر من منظار آخر بأنه ابتلاء من الله ، يزيد من الحسنات ويكفر السيئات نستزيد من الراحة والطمأنينة، ولا يكون وبالاً على المسلم .

الوقفة التاسعة:

بيّن حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن الطيرة ذُكرت عند رسول الله ﷺ

فقال: (**أحسنها الفأل ولا ترد مسلما**) هذه جملة مهمة عظيمة، أن الإنسان قد تغلب نظرته في بعض الأشياء فيتطير مثلاً من شخص دخل عليه أو من كلمة سمعها وكان يريد أن يسافر، فهنا إما أن يقرر المعنى في قرارة نفسه بأن يسافر ولا يهمه ما وقع في نفسه من التطير، أو لا يسافر بناءً على تطيره، فالطيرة الممنوعة هنا التي ترده عن مشروعه الذي يريد القيام به ، فقال النبي ﷺ : (**ولا ترد مسلماً**) لكن قد يقع في النفس ما يقع بإرادة أو بغير إرادة، فيكفر ما يقع فيقول: (**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**) فإذا وقع ما وقع في النفس من التشاؤم من النظرة السوداوية -كما يقال- للمستقبل؛ يقول هذا الدعاء، فيسند الأمر إلى الله سبحانه وتعالى ، ومضمون هذا الدعاء: أن الجالب للخير والدافع للشر هو الله سبحانه وتعالى والحول والقوة بيد الله سبحانه وتعالى، وحينئذ يمضي في أمره ومشروعه ولا يرده هذا التطير الذي وقع في قلبه، لذلك ينبغي أن يرتبط بالله سبحانه وتعالى .

فقال النبي ﷺ : (**أحسنها الفأل**): يعني النظرة للمستقبل يجب أن تكون نظرة حسنة مستبشرة بفرج ونصر وصباح جميل وهكذا.

ولكن قد يقع في نفس الإنسان أحياناً ما يقع من التشاؤم لبعض الأمور؛ كأن تبدو علامات خسارة مالية أو فحوصات طبية على غير المتوقع فيقع في نفسه ما يقع من المستقبل المظلم في هذا الشأن، فبين الرسول ﷺ الفرق بين هذا الذي وقع هو محل الذم أو لا ، فإن كان الذي وقع في النفس رَدَّ الإنسان عن عمل يجب أن يقوم فيه، أو ردّه عن مشروع خير أو طاعة

فهذه هي الطيرة الشركية، أما إذا وقع في نفسه ما وقع فقط فهذا الخاطر يقع عند كثير من الناس، ولهذا قال النبي ﷺ إذا رأى أحدكم ما يكره فليقل الدعاء المذكور . وليست الأمور دائماً على ظاهرها ، فأحياناً يقع المتخوف منه، فيقع موت المريض أو تقع الخسارة المالية، أو تقع مصيبة كبيرة من مرض أو حادث أو نحو ذلك.

لكن هذا ليس شراً على إطلاقه؟ هنا محل التقييد بأن ليس كل ما ظاهره شر أن يكون شراً، بل قد يكون هو الخير لهذا الإنسان الذي وقع له مما ظاهره شر، وإلا لكانت الحياة كلها مصائب؛ لأن الإنسان خلق في كبد كما أخبر الله سبحانه وتعالى، لكن هذه المصائب تتقلب إلى منح جلية عظيمة قد تكون في الدنيا وقد تكون في الآخرة أو فيهما جميعاً؛ كما وعد الله سبحانه وتعالى لمن تعامل معها بالمعاملة الشرعية المناسبة ، فإذا وقع في النفس ما وقع يقول هذا الدعاء، ويسند الأمور إلى الله سبحانه وتعالى : (**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت**) يعني : أي الحسن والطيب إلا أنت، (**ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك**) ومعنى قوله : (**لا حول ولا قوة إلا بك**) أي إلا بالله سبحانه وتعالى، ومعنى هذا يتضمن أنه لا حول لي ولا قوة ولا أستطيع دفع الشيء الذي ظاهره شر أو جلب الذي ظاهره خير، وإنما هذا مرتبط بك يا ربي، فيطلب الخير من الله سبحانه وتعالى، ولعظم هذه الكلمة كانت كنزاً من كنوز الجنة كما أخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح (**لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة**) [(١)] وهي تسهل

---

(١) رواه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: الدعاء إذا علا عقبة برقم : (٥٩٠٥).

العسير وتفرج الكروب وتطمئن النفس في حال توقع المكروه الذي يحصل لهذا الإنسان، فيفرج الله سبحانه وتعالى له ويقع له من الخير ما لم يتوقعه ، فهذا الذي يقع في النفس يرجى أن الله سبحانه وتعالى يعفو عنه.

الوقفة العاشرة :

عن ابن مسعود مرفوعاً (**الطيرة شرك، ولكن الله يذهبه بالتوكل**) رواه أبو داود والترمذي وصححه، وجعل آخره من كلام ابن مسعود رضي الله عنه .

هذا الحديث فيه بيان الحكم للطيرة، وأن هذه الطيرة قد تقع في النفس، وفيه بيان علاج ما يقع.

المسألة الأولى: حكم الطيرة: والطيرة إما أن ترد إنساناً عن عمله أو لا، فإذا ردت الإنسان عن عمل فهي شرك بالله عز وجل، فمثلاً لو تشاءم الإنسان بطير كما كان أهل الجاهلية يتشاؤمون بطير البوم، أو تشاءم بركوب سيارة معينة ، أو دخل على موظف لمراجعة في الصباح فنظر إليه ووجده عابساً فتشاءم ، فإن كان هذا التشاؤم الذي حصل لهذا الإنسان رده عن عمله فهذا شرك بالله سبحانه وتعالى، لماذا؟ لأن معنى هذا أنه جعل هذا الأمر إلهاً من دون الله وجعل له قدراً كما لله سبحانه وتعالى ، فهذا شرك بالله سبحانه وتعالى .

أما إذا لم يغير الإنسان من حاله، ولم يغير قراره بناءً على ما وقع من هذا التطير ، فهذا مما يقع في النفس ولا شيء فيه.

المسألة الثانية: فقوله: (**فما منا إلا**) هذا فيه بيان أن الخواطر التشاؤمية تمر على النفوس ، مثل أن يدخل الإنسان على قريب له مريض مثلاً، فينظر

إليه وهو يتوجع ويتألم فيقع في نفسه أن هذه نهايته وأن الموت حلّ به، وأنه مسكين، ويود لو عاش وهكذا، وهذه قد تقع في النفوس، أو يدخل الإنسان في معاملة تجارية ثم يرى فلاناً من الناس فيتطير به ، فيقع في النفس أن الخسارة واقعة، وهذا يقع عند بعض الناس بإرادة أو بغير إرادة، لكن هذا الخاطر الذي يمر على الإنسان له علاج ، وهذا العلاج هو الأمر الثالث الذي ذكر في الحديث (**ولكن الله يذهبه بالتوكل**) كيف ذلك؟ عندما يسترجع الإنسان ويتذكر أن الأمور بيد الله سبحانه وتعالى، ويتذكر أن ما من ذرة في هذا الكون لا يستطيع تصريفها إلا الله سبحانه وتعالى، ولا يستطيع جلب الخير ودفع الشر إلا الله سبحانه وتعالى، ولا يستطيع شفاء المريض ، وإسقام الصحيح، وإفقار الغني ، وإغناء الفقير إلا الله سبحانه وتعالى، فإذا رجع الإنسان إلى هذه المعاني عظم توكله بالله عز وجل واعتماده عليه واستعانته به ، واستقامته به جل وعلا، وذهب منه هذا الخاطر الذي سبب له النظرة التشاؤمية لمستقبل هذا المصاب، فلذلك يجب أن ينمي الإنسان في نفسه معنى التوكل على الله سبحانه وتعالى، وأن يعمل بالأسباب المعينة على هذا التوكل ليدفع به هذه الشركيات وليزيد من معنى التوكل، وهو بلا شك من لُب الإيمان ويزيد الإيمان، وهو من أجلّ الأعمال القلبية التي يجب على المسلم أن يمكنها من علمه لكي يعظم أمر الله سبحانه وتعالى، ومن ثم تذهب عنه هذه الوساوس والخواطر والهواجس والشكوك ، والنظرة السوداوية لأقدار الله سبحانه وتعالى، والآيات أكثر من أن تحصر في الأمر بالتوكل والأمر بالاستعانة - بالله عز وجل ، ويكفي أننا نقرأ في كل

ركعة من ركعات صلاتنا وجوباً علينا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١) .

والتوكل على الله سلاح فعال وقوي ، يدفع الإنسانَ إلى أعمال عظيمة لو تأمل الإنسان حاله فيها لاستغرب كيف أن هذا الإنسان اندفع بهذا الاندفاع القوي وأنتج هذا النتاج القوي، لولا أن الله سبحانه وتعالى طمأن قلبه بعظم توكله عليه.

الوقفة الحادية عشرة:

روى الإمام أحمد من حديث ابن عمرو ﷺ (**من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك، قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن يقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**) وكذلك حديث الفضل بن عباس : (**إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك**).

هذا فيه تقرير للمعنى السابق الذي ذُكر، وهو أن الطيرة المذمومة هي الطيرة الشركية: هي التي ترد الإنسان عن حاجته، وقد سبق المثال بأنه يريد أن يقدم أوراقه للوظيفة فرأى شخصاً اسمه مثلاً غير مناسب فيتشاءم بهذا الاسم ، أو يريد أن يسافر ولما خرج من البيت وجد أن السيارة فيها عطل فتشائم، فإذا هذه الأشياء وأمثالها ردت الإنسان عن حاجته فهذه طيرة مذمومة وشركية، وذلك أنه جعل هذا الشخص الذي تشاءم به أو تلك الحادثة التي وقعت له كأنه جعلها إلهاً مع الله سبحانه وتعالى ، تؤثر عليه في مسيرة حياته، ومن الطيرة أن بعض الناس قد يرى في منامه بعض الأحلام المفزعة، ويرى أموراً يستوحش منها فترده هذه الأشياء عن قضاء حاجته،

---

(١) سورة الفاتحة ، الآية (٥).

وهذا أيضاً من الطيرة المذمومة ، فلذلك ما رده عن حاجته هو شرك بالله سبحانه وتعالى وطيرة شركية، وعليه أن يكفرها بما قاله عليه الصلاة والسلام: (**اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**) فكأنه عاد ورجع إلى الله سبحانه وتعالى، فالخير لا يجلبه إلا الله سبحانه وتعالى، والشر لا يدفعه إلا الله سبحانه وتعالى، والمعبود بحق هو الله سبحانه وتعالى فلا إله إلا الله (ولا إله غيرك)، فرجع إلى الله سبحانه وتعالى، فهذه تكفر عنه ما يجد في نفسه من التطير، وكذا ما عمله من تلقاء هذا التطير.

٢٨- بَابُ ما جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

قَالَ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: قَالَ قَتَادَةُ: «خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلاَثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ ورُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وعَلاَمَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا. فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ أَخْطَأَ وأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وتَكَلَّفَ مَا لا عِلْمَ لَهُ بِهِ »[1]. انتهى

وكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ القَمَرِ، ولَمْ يُرَخِّصِ ابنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ. ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا، ورَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ المَنَازِلِ أَحْمَدُ وإِسْحَاقُ.

وعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**ثَلاَثَةٌ لاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: مُدْمِنُ الخَمْرِ، وقَاطِعُ الرَّحِمِ، ومُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ**»[2]. رَوَاهُ أَحْمَدُ وابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ.

الوقفة الأولى :

(التنجيم): مصدر نجّم بتشديد الجيم، أي تعلم علم النجوم أو اعتقاد تأثير النجوم على الإنسان والحياة.

الوقفة الثانية :

ما حكم تعلم علم التنجيم؟

إنه ينقسم إلى قسمين:

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب بدء الخلق، باب في النجوم .

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٩٩/٤) وابن حبان كما في الموارد (رقم ١٣٨٠، ١٣٨١) والحاكم (١٤٦/٤) وصححه ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٩/٢ رقم ٦٧٨).

١ - **علم التأثير** : وله ثلاثة أقسام :

أ - أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة تخلق الحوادث والشرور، فهذا شرك أكبر؛ لأنه جعلها خالقاً مع الله.

ب - أن يجعلها سبباً يدعي به علم الغيب، وهذا اتخذ النجوم وسيلة لادعاء علم الغيب، وادعاء علم الغيب كفر أكبر.

ج - أن يعتقد أنها سبب لحدوث الخير والشر، فإذا وقع شيء نسبه إلى النجوم، وهذا شرك أصغر، مثلاً ولد مولود أو مات أحد جعل سببه أحد هذه النجوم، فهو على حسب نيته كما سبق تفصيله.

٢ - **علم التسيير** : وله قسمان:

أ - أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية، فهذا مطلوب بل قد يكون واجباً كمعرفة جهة القبلة وغير ذلك.

ب - أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية وله نوعان:

١ - أن يستدل بها على الجهات كالشمال وغيره، فهذا جائز لقوله تعالى:﴿**وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ (١) .

٢ - أن يستدل بها على الفصول، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر، وهذا فيه خلاف دائر بين الكراهة والإباحة ساقه المصنف - رحمه الله -، وسبب الكراهة خشية أن ينسب البرد وغيره للنجم الفلاني، والصحيح -إن شاء الله- الجواز إذا اتقي مثل هذا المعنى .

---

(١) سورة النحل ، (١٦) .

الوقفة الرابعة:

أورد المصنف في هذا قول قتادة - رحمه الله - **بأن للنجوم ثلاث فوائد** :

١ - زينة للسماء قال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ**﴾ (١) .

٢ - رجوم للشياطين كما قال تعالى : ﴿**وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ**﴾(٢) .

٣ - علامات يهتدى بها كما قال تعالى:﴿**وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾(٣). فهي علامات يستدل بها على الجهات، ويستدل بها على معرفة الفصول الأربعة.

الوقفة الخامسة :

تحتوي على عدة نقاط وهي:

١ - المسلم قوي الإيمان بالله، لا يلتفت إلى ما يقوله مدعي الغيب وإن اختلفت أسماؤهم أو تغيرت أشكالهم، فالمنجم وغيره ممن يدعي الغيب يجب أن لا يلتفت المسلم إليه؛ لأنه يعلم علم اليقين أنه لا عالم للغيب إلا الله ﴿**قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ**﴾ (٤) .

٢ - من حكمة الله - عز وجل - في مخلوقاته أن جعل هناك أسباباً، وهذه الأسباب تربط بمسبباتها؛ مثال ذلك : وقت البذور لزروع معينة لا تكون

---

(١) سورة الملك ، الآية (٥) .

(٢) سورة الملك ، الآية (٥) .

(٣) سورة النحل ، الآية(١٦) .

(٤) سورة النحل ، الآية (٦٥).

إلا في فصل من فصول السنة عندما يظهر نجم معين، فإذا علم ذلك وربط السبب بالمسبب جاز من هذا الوجه دون أن يعتقد أن النجم فاعل بنفسه.

٣ - الناس في الأحوال الفلكية ككسوف الشمس وخسوف القمر وغيره بين إفراط وتفريط، فهناك من يجعل لها تأثيراً في الحوادث الأرضية وأنها مؤثرة أو سبب في ذلك، وهذا إفراط .

ومنهم من إذا عرف وقوع الكسوف قبل حدوثه خف لديه تأثير هذا الكسوف، وهذا تفريط ، فإذا علم أن الشمس ستكسف أو سيسقط المطر من خلال التجربة في معرفة المطر مثلاً فهذا لا يعني أنها ليست من آيات الله، بل هي آية من آيات الله، ولو علم من علمها علماً إجمالياً.

الوقفة السادسة :

مع حديث أبي موسى ﷺ :

(ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن خمر، وقاطع رحم، ومصدق بالسحر)

الشاهد قوله: "ومصدق بالسحر".

مناسبة الحديث للباب أن التنجيم من السحر؛ كما قال ﷺ **(ومن اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر)** .

هذه الأعمال الثلاثة هي من كبائر الذنوب، وصاحبها تحت مشيئة الله إن شاء عذبه في النار على قدر معصيته وإن شاء غفر له وأدخله الجنة بفضله ورحمته، ولكن إن عذب في النار لم يخلد فيها، ومن تاب تاب الله عليه فإن الله غفور رحيم .

٢٩- بابُ ما جاءَ في الاستِسْقَاءِ بالأنْوَاءِ

وقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ ﷺأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، والطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، والاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، والنِّيَاحَةُ» وقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ ودِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

ولَهُمَا عَنْ زَيْدِ بنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ ﷺقَالَ: صَلَى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاَةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هل تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبادِي مُؤْمِنٌ بِي وكَافِرٌ. فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوكَبِ»(٢).

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ وفِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وكَذَا، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَاتِ: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨٤٦) ومسلم (رقم ٧١).

﴿٨٢﴾ (١) [الواقعة: ٧٥ - ٨٢].

الوقفة الأولى :

شرح مفردات الباب:

(الاستسقاء) : هو طلب السقيا والغيث .

(الأنواء) جمع نوء وهو النجم، والمقصود به طلب السقيا من النجوم .

قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢) قال أهل العلم : تجعلون نصيبكم من شكر نعم الله بإنزال المطر؛ فتكذبون بحيث تنسبون النعم إلى غير الله من النجوم والكواكب .

(أربع): ليس للحصر؛ لأن هناك أشياء تشاركها في المعنى.

(الجاهلية) نسبة إلى الجهل، والجاهلية إذا أُطلقت بأل تنسب إلى ما كان قبل بعثة النبي ﷺ، ويوصف بها من فعل شيئاً من أفعالهم؛ كما قال ﷺ لأبي ذر : (**إنك امرؤ فيك جاهلية**) (٣) .

(الفخر بالأحساب) : أي الفخر بالآباء والأجداد بأفعالهم وأحوالهم .

(الطعن في الأنساب): المراد السب إما بعيب أو تنقيص أو قدح في الأنساب .

(النياحة) هي : رفع الصوت بتعديد محاسن الميت .

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٣).

(٢) سورة الواقعة ، الآية (٨٢).

(٣) رواه البخاري في كتاب : الإيمان ، باب: المعاصي من أمر الجاهلية ، برقم (٢٩).

(النائحة إذا لم تتب): لأن أكثر ما تصدر النياحة من النساء .

(السربال من القطران): هو الثوب من النحاس المذاب .

(الدرع): هو الثوب المنسوج من الحديد .

(الجرب): مرض جلدي معروف يظهر على الإبل خاصة .

(صلى لنا) : أي صلى بنا .

(بمواقع النجوم): أي مطالعها .

الوقفة الثانية :

بعد أن بين المصنف - رحمه الله - في الباب السابق ما يتعلق بالتنجيم من ادعاء علم الغيب، وعرفنا ما يتعلق بذلك من أنه منافٍ للتوحيد، بين المصنف - رحمه الله - أن من طلب السقيا من النجوم من دون الله فقد جانب التوحيد أيضاً، على تفصيل سيأتي ذكره إن شاء الله. وبهذا يتبين مناسبة الباب لكتاب التوحيد .

الوقفة الثالثة :

ذكر النبي ﷺ عدداً من صفات الجاهلية في حديث أبي مالك وهي:

الصفة الأولى: الفخر بالأحساب؛ كما سبق معنا هو التفاخر بالآباء والأجداد، ولاشك أن هذا من عمل الجاهلية، وهذه الصفة موجودة، فالناس حين يضعف ارتباطهم بربهم فإنهم يرتبطون بذكريات الآباء والأجداد، فتصل هذه الذكريات إلى أن تكون محل التفاخر بينهم ، وتجد أحياناً هذا الشخص ليس له اعتبار عند الناس لا في فعله ولا في قوله ولا في سلوكه ولا في تعامله معهم، فيتعلق بهذه الأنساب ويفخر ، نعم إذا كان يفخر بفعل

أحد آبائه وكان يعمل بهذه الميزة التي اشتهروا بفعلها فلا بأس دون أن تؤثر على واجباته الشرعية..

ويقابل هذه الصفة الصفة الثانية وهي: صفة الطعن في الأنساب، فمن المعلوم أن الإنسان لا صناعة له في نسبه من حيث وجوده وعدمه، فالإنسان يُخلَقْ وينسب لأبيه وجده، فيأتي شخص ويقدح ويتنقص بهذا الرجل لأجل نسبه، فما الذي فعله حتى يقدح فيه ويسب؟

وعلى مدار التاريخ كم من الذين قيل في أنسابهم ما قيل وكانوا محلاً لفخر هذه الأمة إما بالنصر العام أو العلم الشرعي أو مكارم الأخلاق وغير ذلك مما يفخر به .

الصفة الثالثة : الاستسقاء بالنجوم، وهي موضوعنا وسيأتي الكلام فيه .

الصفة الرابعة: النياحة: وهي تدل على الاعتراض على أقدار الله، ومعلوم أن سنة الله في خلقه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (١) و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (٢) فالحزن والبكاء على الميت لا بأس به في حدود المعقول، والذي لا يصل الأمر إلى مثل هذه الأفعال، ثم على من وقع في مثل هذا الفعل وزاد عليه الحزن أن يعلم أن حزنه لن يرجع له ميته، فعليه بالصبر والتحلي به، فقد مات خير الخلق أجمعين محمد ﷺ .

وهذا الحديث يدل على أن ما ورد فيه من الكبائر لا تخرج من الملة إلا الاستسقاء بالنجوم على التفصيل الآتي:

---

(١) سورة الزمر ، الآية (٣٠).

(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٨٥).

الوقفة الرابعة :

في حديث زيد ذكر القصة التي وقعت في الحديبية، وكانت سنة ست من الهجرة، وكانوا محرمين بالعمرة، فذات ليلة نزل مطر، فلما صلى الرسول ﷺ ذكر قولَ الله عز وجل في من شكره بعد هذا المطر ومن كفر به، فمن نسب المطر لله فهو مؤمن به، ومن نسبه للكوكب فهو كافر بالله . والكفر المذكور في الحديث هو الكفر الأصغر .

والواجب على المسلم إذا نزل المطر أن يقول: مطرنا بفضل الله ورحمته أو يقول: اللهم صيباً نافعاً.

وفي حديث ابن عباس؛ لما نزل المطر نسبه بعضهم إلى رحمة الله ونسبه بعضهم إلى النجم، فكأنه جعل النوء هو الذي أنزل المطر أو بسببه نزل، وهذا شرك أصغر أو أكبر بحسب قصد قائله .

الوقفة الخامسة :

ما حكم الاستسقاء بالنجوم؟ الجواب أن نقول: فيه تفصيل.

١ – إذا اعتقد المسلم بأن النجوم هي التي تسقي ودعاها من دون الله فهذا بلا شك شرك في الربوبية الألوهية والعبادة .

وإذا اعتقد أن حصول الأمطار والأرزاق يعود إلى هذه النجوم فهي الفاعلة من دون الله فهو شرك في الربوبية . وكلاهما شرك أكبر .

٢ – أما إذا اعتقد أن الله هو الذي ينزل المطر، ولكن النجوم سبب بذاتها فهذا شرك أصغر قد يؤدي إلى الشرك الأكبر.

فالواجب الابتعاد عن هذا، وأن ينسب المطر إلى الله، وأنه هو المقدر، وأنه

هو الذي إذا شاء أنزل المطر وإذا لم يشأ لم ينزله، وإذا كان مما جرت العادة به كوناً وقدراً مثل: إذا طلع النجم الفلاني فيزرع زرع كذا ونحو هذا، فالمحذور هنا أن لا يعلق الأمر على هذا الشيء ويجعله هو الفاعل، وإنما نزول المطر هو سبب في إنبات الزرع فلا يُعلقه على هذا الفعل، وإنما يعلقه بالله سبحانه .

*** *** ***

٣٠- بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

وقَوْلِهِ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤]

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(١) أَخْرَجَاهُ.

ولَهُمَا عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَد بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَا سِوَاهُمَا، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(٢). وفِي رِوَايَةٍ: «لا يَجِدُ أَحَدٌ حَلاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى» إِلَى آخِرِهِ(٣).

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ، وأَبْغَضَ فِي اللهِ، ووَالَى فِي اللهِ، وعَادَى فِي اللهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلاَيَةُ اللهِ بِذَلِكَ، ولَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ ـ وإِنْ كَثُرَتْ صَلاتُهُ وصَوْمُهُ ـ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ. وقَدْ صَارَتْ، عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٥) ومسلم برقم(٤٤).
(٢) أخرجه البخاري برقم(١٦) ومسلم برقم(٤٣).
(٣) أخرجه البخاري برقم(٦٠٤١).

عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وذَلِكَ لا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا»[١]. رَوَاهُ ابنُ جَرِيرٍ.

وقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ذ [البقرة: ١٦٦] قَالَ: المَوَدَّةُ[٢].

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(أنداداً) : جمع ند ، وهو الشبيه والنظير .

(يحبونهم كحب الله): أي أن هؤلاء الكفار يحبون الأنداد كمحبة الله، فيجعلونهم شركاء لله في المحبة .

(عشيرتكم) : أقرباؤكم الأدنون.

(اقترفتموها): اكتسبتموها .

(كسادها): عدم رواجها .

الوقفة الثانية :

المحبة تنقسم إلى قسمين :

أ - **محبة عبادة**: وهي التي توجب التذلل والتعظيم للمحبوب، ومن ثم يُنفِذ أوامره ويجتنب نواهيه، وهذا القسم لا يكون إلا لله سبحانه، فمن

---

(١)أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/٤١٧ رقم ١٣٥٣٧) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٣٧) وأبو نعيم في الحلية (١/٣١٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما. قال الهيثمي في المجمع (١/٩٥): رواه الطبراني في الكبير، وفيه ليث بن أبي سليم، والأكثر على ضعفه. وانظر السلسلة الصحيحة (٤/٣٠٦ ـ ٣٠٧ رقم ١٧٢٨).

(٢)أخرجه الحاكم (٢/٢٧٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

أحب مع الله غيره محبة عبادة فقد أشرك شركاً أكبر .

ب - محبة ليست عبادة في ذاتها : وهي أنواع :

النوع الأول: محبة إشفاق ورحمة : كمحبة الوالد لولده ، والكبير للصغير .

النوع الثاني: محبة تقدير واحترام: كمحبة الولد لوالده ، والصغير للكبير.

النوع الثالث: محبة مودة ورحمة: كمحبة الزوجين لبعضهما .

النوع الرابع: محبة طبيعية : كمحبة الطعام واللباس والمسكن .

وهذه الأنواع يمكن أن تسمى "محاب ذاتية" والأصل فيها الإباحة ، ولكن قد تكون طاعة لله سبحانه بالنية الطيبة واحتساب الأجر عند الله ، وقد تكون معصية لله إذا غلا المحب في محبوبه ، بل قد يصل به إلى الشرك إذا ساوى بها محبة الله سبحانه .

الوقفة الثالثة:

من الأخطاء التي يقع بها بعض الناس محبة القبر أو صاحبه أكثر من محبة الله أو مثله، إما صراحة بلسانه أو ضمناً بحاله؛ بأن يقدّم لهذا القبر عبادات وقربات لا تقدم إلا لله سبحانه، بل إن بعضهم يقدم لهذا الميت عبادات لا يقدمها لله سبحانه عياذاً بالله، فقد تجد بعضهم يقرب الذبائح والأموال لهذه القبور ويتعلق بها إما رغبة وطلباً منها أو خوفاً من شرها، وهذا خطأ عظيم، فالعبادات لا تصرف إلا لله تبارك وتعالى ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (١) .

وجاء في صحيح مسلم قوله ﷺ : (**من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل**

---

(١) سورة البينة ، الآية (٥) .

الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار) [١] .

❖ ومن الأخطاء في المحبة الغلو في محبة الرسول ﷺ، وفاعله يخشى عليه من الشرك، إذ إنه ﷺ نهى أمته عن الغلو فيه فقال: (**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبدالله ورسوله)** [٢]. لاشك أن محبة النبي ﷺ فوق كل محبة سوى محبة الله تعالى، وهي من أوجب الواجبات، ولكن المحذور أن تصل إلى محبة الله.

❖ومن الخطأ جعل مناسبات معينة لذكرى ميلاده عليه الصلاة والسلام أو هجرته أو بعثته أو ليلة إسرائه ، فالعبد مأمور باتباعه عليه الصلاة والسلام الذي هو مقتضى محبته عليه الصلاة والسلام ، ولم يرد عن أصحابه السلف الصالح رضوان الله عليهم فعل شيء من ذلك، فإذا كانوا هم أعلم الناس فليسعنا ما وسعهم، بل إن القرون الثلاثة المفضلة لم يفعلوا ذلك، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)**[٣].

❖كذلك من الأخطاء أن بعض الناس يخلط بين المعاملة الحسنة

---

(١) رواه مسلم في باب: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار، برقم (٩٣).

(٢) سبق تخريجه في الباب (١٨).

(٣) رواه البخاري في كتاب : الصلح ، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، برقم (٢٥٥٠)، رواه مسلم في كتاب : الأقضية ، باب : نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، برقم (١٧١٨).

للكافر وبين محبته ومودته المنهي عنها، فيظن أن مقتضى عدم المحبة له أن يعامل بجفاء وغلظة، وهذا غير صحيح ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (١) ، كما أمر سبحانه هارون وموسى بذلك حينما أرسلهما لفرعون بقوله : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٢) . وزار النبي ﷺ يهودياً في مرضه رجاء أن يُسلم .

فهنا يجب أن نعلم أن المحبة القلبية لا تكون إلا للمؤمن ولا تكون للكافر ، أما التعامل الحسن فهذا يكون لعامة الناس حتى الكفار منهم، هذا هو الطريق الوسط ، الذي لا إفراط ولا تفريط فيه .

الوقفة الرابعة :

أن محبة الله ومحبة رسوله ﷺ سبب لحصول حلاوة الإيمان، والإيمان المقصود به الإيمان بالله عز وجل، ويكون بتصديق القلب ، وبالتحدث باللسان، والعمل بالجوارح، ولهذا الإيمان حلاوة في القلب وراحة نفسية تطرد الهموم والغموم ، والقلق والاكتئاب .

والعنصر الثاني الذي يجلب الحلاوة الإيمانية أن يحب المسلم أخاه المسلم في الله لأجل صلاحه الديني؛ من كثرة عبادة أو أعمال خيرية قام بها أو علم أو صلة للناس أو خلق رفيع ملك به القلوب ، وهذه المحبة لها ثواب كبير كما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله، وذكر منهم (**رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه**)، وكذا الرجل الذي ذهب

---

(١) سورة النحل ، الآية (١٢٥).

(٢) سورة طه، الآية (٤٤).

لزيارة أخ له في الله فجاء ملك فبشره بالجنة لأجل ذلك .

العنصر الثالث هو أن يكره أن يرتد عن الإسلام ويرجع عنه إلى الكفر مثل كرهه أن يلقى في النار، ومعنى هذا أن يكره الكفر. ولهذا يقول سبحانه: ﴿**لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ**﴾ (١) وهنا نكته ذكرها ابن حجر عن أبي محمد بن أبي حمزة أنه قال: "إنما عبر بالحلاوة في هذا الحديث لأن الله شبه الإيمان بالشجرة في قوله تعالى : ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ**﴾ (٢) فالكلمة هي كلمة الإخلاص ، والشجرة أصل الإيمان، وأغصانها اتباع الأوامر واجتناب النواهي ، وورقها ما يهتم به المؤمن من الخير، وثمرها عمل الطاعات ، وحلاوة الثمر جني الثمرة، وغاية كماله تناهي نضج الثمرة، وبه تظهر حلاوتها" (٣) .

الوقفة الخامسة :

الأسباب الجالبة لمحبة الله لعبده، ومحبة العبد لربه - كما ذكرها ابن القيم في مدارج السالكين - على النحو التالي:

١ - قراءة القرآن بالتدبر لمعانيه وما أريد به .

٢ - التقرب لله تعالى بالنوافل، كما في الحديث القدسي : (**ولا يزال**

---

(١) سورة المجادلة ، الآية (٢٢).

(٢) سورة إبراهيم ، الآية (٢٤).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١/ ٦٠).

عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه) رواه البخاري [1] .

٣ - دوام ذكر الله باللسان والقلب والعمل والحال .

٤ - إيثار محابه على المحاب كلها عند غلبة الهوى .

٥ - مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها.

٦ - مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة .

٧ - وهو أعجبها : انكسار القلب بين يدي الله سبحانه وتعالى .

٨ - الخلوة بالله وقت النزول الإلهي آخر الليل ، وتلاوة كتابه ، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة .

٩ - مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، ولا يتكلم العبد إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلم أن فيه مزيداً لحاله ومنفعة لغيره .

انتهى كلام ابن القيم - رحمه الله — بشيء من التصرف .

الوقفة السادسة :

من علامات محبة الرسول ﷺ ما يأتي:

١ - اتباعه ﷺ فيما أمر ، واجتناب ما نهى عنه ، وألا يعبد الله إلا بما شرع، والشاهد قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾[2] ولهذا يقول الشاعر :

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقائق ، باب التواضع ، برقم (٦١٣٧) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (٣١).

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في الخصال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

ولهذا من ادعى محبة الرسول ﷺ وهو يخالف أمره فهو كاذب في محبته .

٢ - تصديق أخباره عليه الصلاة والسلام .

٣ - الصلاة والسلام عليه حين ذكره، بأن يقول: صلى الله عليه وسلم، ومن الجفاء عدم الصلاة عليه ؛ لأن الله أمرنا بذلك فقال في كتابه : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (١) .

والبخيل هو من ذكر عنده الرسول ﷺ ولم يصلِّ عليه، كما جاء في الحديث.

٤ - نصر سنته عليه الصلاة والسلام والذب عن شريعته بكل ما يملك الإنسان ، من علم أو لسان أو قلم أو مال أو وجاهة ، وتكون هذه النصرة أيضاً بتعليم الدين للجاهل وتذكير الغافل .

٥ - الدفاع عن شخصه عليه الصلاة والسلام بكل ما يملك المسلم من وسيلة في ذلك ، ولاسيما في هذا الزمان الذي تطاول فيه بعض المغرضين والطاعنين في الدين.

٦ - محبة أصحابه وآل بيته رضوان الله عليهم، إذ هم الذين نشروا سنته، وهم الذين اصطفاهم الله سبحانه وتعالى وعدّهم في كتابه العزيز ونهى ﷺ عن مسبتهم .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٥٦) .

٣١- باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥].

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٨].

وقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية [العنكبوتذ:١٠].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ اليَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ، وأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، ولا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ»(١).

وعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، ومَنِ الْتَمَسَ رِضَى النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ»(٢) رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ.

الوقفة الأولى:

أورد المصنف قول الحق تبارك وتعالى : ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/١٠٦) (١٠/٤١) والبيهقي في شعب الإيمان (١/٥٢٦ رقم ٢٠٣).

(٢)أخرجه ابن حبان (رقم ١٥٤١ ـ ١٥٤٢) كما في الموارد والترمذي (رقم ٢٤١٤).

أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [(١)] في هذا الباب الذي يمكن أن يسمى باب الخوف من الله سبحانه بعد باب المحبة، وسبب هذا الإيراد أن عبادة المسلم ترتكز على أركان من أهمها المحبة لله تبارك وتعالى والخوف منه سبحانه، وهذه الآية تفيد أن الشيطان يخوف أولياءه وأتباعه، ويرهبهم ويوهمهم أنه ذو بأس شديد وذو قدرة فائقة، كل ذلك من الشيطان لأجل أن يخالف هؤلاء أوامر الله سبحانه وتعالى .

الوقفة الثانية:

أنواع الخوف:

الأول: خوف من الله سبحانه وتعالى. خوفَ تأله وتعبد لله سبحانه وتعالى وتقرب إليه، فهذا الخوف واجب بل من أعظم الواجبات .

الثاني: الخوف المقابل لهذا الخوف وهو الخوف من الأصنام والأوثان، والخوف من السحرة والكهان ونحوهم، فيخاف الإنسان من هؤلاء خوفاً حقيقياً بأن يصيبوه بمكروه؛ وإذا وصل إلى هذه الدرجة فهو شرك بالله سبحانه وتعالى شركاً أكبر ينافي أصل التوحيد.

الثالث: أن يترك الإنسان ما وجب عليه خوفاً من بعض الناس، مثاله: ألا يصلي في المسجد خوفاً من بعض الناس، فهذا لا يجوز إلا إذا غلب على الظن ضرره.

الرابع: الخوف الطبعي، كأن يخاف الإنسان من عدو أو يخاف من الظلام ونحوه، فهذا خوف طبيعي يولد مع بعض الناس، وينقلب إلى مذموم

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٧٥) .

وإلى ممدوح بحسب حال الخائف .

الوقفة الثالثة :

قال تعالى : ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ﴾ (١) .

هذا فيه بيان أن الخوف من الله والخشية بمعنى واحد، لكن إذا أطلقت الخشية فمعناها خوف تعظيم لله سبحانه وتعالى .

وأراد أن يبين المصنف أن الخوف والخشية من الله صفة من صفات المهتدين، فكما أن المهتدي يصلي ويؤمن بالله عز وجل ويؤمن باليوم الآخر ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة؛ أيضاً لا يخشى إلا الله .

والمقصود (ولم يخش إلا الله) : أي لا يخاف إلا من الله. فالخوف من الله سبحانه وتعالى سبب لهداية الله جل وعلا . والخوف من الله أن يخشى الإنسان عقاب الله جل وعلا لارتكابه محرماً، أو يخشى ألا يقبل

الوقفة الرابعة:

حديث أبي سعيد ﷺ مرفوعاً : (**إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله**...) الذي أورده المصنف يبين أن من الخلل في إيمان الإنسان أن يتعلق الإنسان بالناس دون الله سبحانه وتعالى، فإذا تعلق الإنسان بالناس صار يرضي الناس وإن جر هذا الرضا إلى سخط الله عز وجل ، وصار يبالغ في الثناء على الناس لأنهم تسببوا في جلب الرزق أو الشفاء ونحو ذلك لهذا الشخص، ومثله في المقابل أن يذم الناس لأنهم لم يساعدوه في جلب هذا الرزق، فهذه العواقب إذا وصلت بالإنسان إلى هذا المستوى فهذا من

(١) سورة التوبة ، الآية (١٨).

ضعف الإيمان . وجاء في الأثر: (**إن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص ولا يرده عنك كراهية كاره**) [1] فمهما زاد حرص الإنسان ومهما فعل في المقابل الآخر أن يرد الرزق عن هذا الإنسان فإن رزق الله جل وعلا حاصل.

الوقفة الخامسة :

حديث عائشة رضي الله عنها الذي أورده المصنف أن رسول الله ﷺ قال: (**من التمس رضا الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**).

هذا الحديث عظيم جداً ويضع للمسلم العاقل الميزان الذي يزن به علاقته بالله جل وعلا وعلاقته بالناس ؟

وهذا الميزان هو رضا الله سبحانه وتعالى بهذا الفعل، فالعبد قبل أن يقدم على فعل من الأفعال فعليه أن ينظر ما هدفه من هذا ؟ هل هو رضا الله سبحانه وتعالى سواء رضي الناس بذلك أو لم يرضوا أو غير ذلك وبناءً عليه يحرص المسلم على تحرير هذا الهدف في جميع أموره وأعماله .

الوقفة السادسة :

هنا سؤال ما الذي يرضي الله تعالى؟ والجواب الواضح أنه ما دل عليه الدليل الشرعي من القرآن الكريم والسنة المطهرة من دون زيادة أو نقصان؟

مثاله أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالصلاة وشرعها وأوجب على المسلم خمس صلوات في اليوم والليلة وندب إلى مندوبات في الصلاة، ولكن لو جعل الإنسان ليله ونهاره صلاة، أو جعل صلاة الظهر بدلاً من

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٤٦/٧) .

أربع ركعات خمس ركعات هل يرضي الله ولو كانت صلاة؟ لا شك أن هذا لا يرضي الله تعالى؛ لأنه خلاف ما شرع، وقس على هذا بقية الأعمال، وبناء عليه يخطئ بعض الناس في هذا الميزان فلا يحرر ما يرضي الله سبحانه وتعالى، وتحرير ما يرضي الله هو ما دل عليه الدليل الشرعي من القرآن ومن السنة.

الوقفة السابعة :

إذا تعارض الأمران عند الإنسان - الخوف من الله والخوف من الناس - فلا شك أنه يقدم الخوف من الله تعالى، لكن إذا وصل الأمر لدى العبد إلى أن يمتنع من فعل الخير بسبب الناس فهو قد خاف منهم ولم يخف من الله فوقع في المحظور، وعلاج هذا أن يتذكر هذا الإنسان الخائف من الناس أن مدبر هؤلاء الناس هو الله سبحانه وتعالى الذي يجب أن يخافه، ويقوي هذا المعنى لديه حتى يستقر في نفسه.

الوقفة الثامنة :

من أهم العوامل التي تجلب الرزق وتأتي به :

أولاً: أن يتوكل الإنسان على الله، ولهذا جاء في الحديث الصحيح : **(لو أنكم توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً)** [1] .

---

(١) رواه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: في التوكل على الله ، برقم (٢٣٤٤)، ورواه ابن ماجه في كتاب الزهد ، باب: التوكل واليقين، برقم (٤١٦٤) . وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٣٤٤).

ثانياً: يعمل الأسباب الشرعية دون أن يتجاوزها إلى رضا الناس بما لا يرضى الله تعالى .

ثالثاً: المداومة على الاستغفار، ولهذا قال سبحانه وتعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً**﴾ (١) .

رابعاً: الإنفاق والصدقة في سبيل الله، وجاء في الحديث القدسي : (**قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم أنفق، أنفق عليك**) (٢) .

خامساً: شكر الله سبحانه وحمده على ما رزق من النعم، ودليله قوله تبارك وتعالى : ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ (٣) .

سادساً: صلة الرحم ، قال رسول الله ﷺ : (**من أراد أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه**) (٤) .

سابعاً: عموم الطاعات: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾ (٥) .

---

(١) سورة نوح ، الآية (١٠-١٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب : النفقات ، باب : فضل النفقة على الأهل، برقم (٥٠٣٧)، ورواه مسلم في كتاب الزكاة ، باب : الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، برقم (٩٩٣).

(٣) سورة إبراهيم ، الآية (٧) .

(٤) رواه البخاري في كتاب : الأدب ، باب :من بسط له في الرزق بصلة الرحم ، برقم (٥٥٢٧) .

(٥) سورة الطلاق ، الآية (٢-٣) .

الوقفة التاسعة :

في حديث أبي سعيد ﷺ حقائق مهمة إذا تعامل معها المسلم في هذه الحياة قادته إلى ساحة النجاة بإذن الله - عز وجل - .

الحقيقة الأولى: على الإنسان في هذه الدنيا أن يعمق يقينه بالله عز وجل؛ بمعنى أن يحاول الوصول إلى كمال الإيمان بالله سبحانه وتعالى، فاليقين درجة عليا من الإيمان بالله جل وعلا، فإذا وصل إلى هذه الدرجة انفتحت له خيرات الدنيا والآخرة، ولكن إذا ضعف هذا اليقين بدأت الأمور تختلط عليه، ولذلك يبين لنا الرسول ﷺ أن يضعف الإيمان وضعف اليقين علامات إذا اتصف الإنسان بإحداها، فهي تدل على ضعف يقينه وضعف إيمانه، ومن هذه الصفات وهو -محل الشاهد- : (إرضاء الناس بسخط الله سبحانه وتعالى).

والمؤمن في هذه الدنيا مأمور بإرضاء الله سبحانه وتعالى، وإرضاء الله - سبحانه وتعالى - قد يسخط بعض الناس بلا شك، لماذا؟!

لأنه ينظر إلى الأمر العاجل ولا ينظر إلى الأمر الآجل، ينظر إلى الدنيا ولا ينظر إلى الآخرة، فمثلاً في التعامل في الأمور المالية قد يكون الربا أعظم كسباً ظاهرياً من التعامل بالأمور الحلال، فمن السهل على الإنسان أن يضع جملة من أمواله في مصرف ربوي ويجلس دون عمل ويقول له البنك: لك ١٠% مثلاً ويتعامل بالربا، ويضمن له هذا المصرف ضماناً أن يعطيه في العام القادم هذه النسبة من المال، فيظن الإنسان أنه إذا منع من هذا التعامل

خسر ماله وكتمت حرية تصرفه، وهذا ليس بصحيح؛ لأن الأمور لا تقاس بلحظتها العاجلة، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يمحق الربا ويربي الصدقات مع أن الظاهر أن الربا يزيد المال والصدقة تنقص المال لكن الله سبحانه وتعالى قرر هذه الحقيقة الصادقة التي لا تتخلف، وهي يمحق الله الربا ويربي الصدقات.

ومعنى ذلك: أن المال المتصدق به يزيد، وأن المال الذي يتعامل فيه صاحبه بالربا ينقص، وهذا يخالف ظاهر الحال، ولذا فهو يحتاج إلى قوة في علاقته مع ربه عز وجل، فمن ضعف اليقين أن تسخط الله بهذا التعامل وترضي نفسك بهذا الكسب .

والأمثلة على هذا أكثر من أن تحصر في تعامل الناس بعضهم مع بعض في إرضاء غيرهم مع سخط الله عز وجل، فيجب على المسلم أن يكون شعاره رضا الله سبحانه وتعالى؛ رضي الناس أو سخطوا.

الحقيقة الثانية: قد يفهم بعض الناس ألا تشكر الناس على ما يؤدون إليك من معروف، ليس المقصود هذا بل أُمر الإنسان أن يشكر من أدى إليه معروفاً، وجاء في الحديث (**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**) [(١)] فليس المقصود عدم الشكر، إنما المقصود التعلق؛ يعني أن تعلق رزقك بهؤلاء الناس فتعلم أن هذا الرزق معلق بفلان، وبناء على هذا التعلق تسخر أقوالك وأعمالك وتصرفاتك لأجل أن يرضى فلان، فإذا أعطاك شيئاً من المال

---

(١) رواه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: الشكر لمن أحسن إليك ، برقم (١٩٥٥) وصححه الألباني في الترغيب ، برقم (٩٧٦).

شكرته وأثنيت عليه ومدحته بعيداً عن التعلق بالله سبحانه وتعالى، ولا شك أن الثناء الأول لله سبحانه وتعالى هو الذي سخر فلاناً لكي يقوم بشيء من العمل الذي يجلب لك شيئاً من المال، فالمقصود في الذم الثناء على هذا الإنسان بالتعلق به، وليس المقصود شكره على هذا المعروف، بل من الآداب العظيمة في هذا الدين أنك ترد المعروف إلى صاحبه، فإن لم تستطع فلا أقل من شكره والدعاء له بقولك (جزاك الله خيرا)، وكما أشرنا في الحديث الصحيح (**من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل**) .

الحقيقة الثالثة: (أن تذمهم على ما لم يعطِك الله) وذلك لتعلق قلبك بالرزق من فلان، فإذا عملت له وخدمته ولم يعطِك شيئاً من المال الذي تأمله فتذمه على ذلك، تذمه على ما لم يقدر الله، فهذا يدل على أن الإنسان تعلق بفلان، ولم يعلق القلب بالله سبحانه وتعالى ويعلم أن فلاناً من الناس ما هو إلا سبب؛ فإن شاء الله جل وعلا أن يسخر فلاناً سخره . وإن شاء الله سبحانه وتعالى منعه من ذلك؛ لأنه لم يكتب لك الرزق من هذا الطريق وإنما كتبه لك من طريق آخر، ولذلك أكد الرسول عليه الصلاة والسلام هذا المعنى بقوله : (**إن رزق الله لا يوجده حرص حريص ولا يرده كراهية كاره**) رزق الله مكتوب للإنسان وهو في بطن أمه، ولكن أمر الإنسان بالعمل، كما قال الرسول ﷺ: (**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**) [(١)] فالحرص الشديد لا يوجد الرزق. فرزق الله آتٍ وإن كرهت الخليقة كلها وأرادت أن لا يأتيك الرزق، سيأتيك رزق الله مهما كان، ومعنى ذلك لا تعلق القلب بفلان ولا

(١) رواه البخاري في كتاب : التفسير ، باب : سورة الليل، برقم (٤٦٦٦)، ورواه مسلم في كتاب : القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه ، برقم (٢٦٤٧) .

بفلان أخذاً ولا رداً، إعطاءً ولا منعاً، وإنما علق القلب بالله سبحانه وتعالى، وتعامل بهدي الله سبحانه وتعالى، وبما أمر الله سبحانه وتعالى واعمل وجد في العمل ولكن بدون حرص، ولا يقع في قلبك أدنى خوف من أن يمنع رزقك فلان من الناس، فرزق الله سيأتي حتماً، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام هنا يعلمنا التعامل الوسط: اعمل وتعلق بالله سبحانه وتعالى قبل ذلك وسيأتيك هذا الرزق، فلا تضعف اليقين بالتعلق بفلان أو علان من الناس، سواء لطلب ما لديه أو خشية أن يرد ما كان مكتوباً لك .

الوقفة العاشرة:

في تعامل الناس اليوم أخطاء كثيرة جداً في هذا المعنى الدقيق، فمثلاً تجد بعض الناس يثني على فلان أمامه ويذكر من حسناته ويمدحه بما ليس فيه لأجل أن يرقيه مرتبه، وإذا جلس في مجلس آخر ذكر سلبياته وسيئاته وبما فيه من العيوب، فهذا تعلق قلبه بفلان، فلا شك أن هذا من التعامل الخاطئ عند كثير من الناس .

ومن التعاملات الخاطئة أيضاً في هذا الباب تلبس الإنسان بما ليس فيه، يجلس عند إنسان ويقول: أنا عملت وعملت، ويلوح بالقدح بالآخرين بأنهم لم يعملوا وأنا أديت ولم يؤدوا، وإن لم يسمِّهم ولكنهم لدى هذا المسؤول معروفون، فكل ذلك لا يجلب رزقاً ولا يمنع رزقاً، فاعلم أن الذي يعطي ويمنع هو الله سبحانه وتعالى .

ومن التعاملات الخاطئة التفريط في بعض الواجبات بسبب طلب الرزق؛ فمثلاً يخرج من بيته في الصباح الباكر وقد تفوته صلاة الجماعة كثيراً بحثاً عن هذا الرزق ويترك أولاده وأسرته، وقد يأتي في منتصف الليل

وأولاده قد ناموا، ويخرجون وهو نائم ثم يخرج بعدهم وهكذا دواليك، يهمل أسرته وأولاده وما يتعلق ببيته ليبحث عن كسب معين، فالله سبحانه لم يأمر بهذا، فعلى الإنسان أن يعمل بقدر ما يستطيع من دون أن يخل بواجب، وهذه الواجبات سواء كانت لله مباشرة كالصلاة والصيام، أو كما في الواجبات الأسرية وغيرها، فلا يمكن أن ينال المال بمثل هذا، ولو أخذ أو جاء شيء من المال ولهث وراءه من أجل هذا فقد أهمل واجبات عظيمة، قد يخسر أشياء كثيرة من هذا المال بسبب هذا الإهمال وبسبب ترك هذه الواجبات، فهذا الكلام هو تقرير لهذه الحقيقة التي ذكرها النبي ﷺ أن رزق الله لا يوجده حرص حريص ولا يرده كراهيته كاره .

٣٢- بابُ قَوْلِ اللهِ تعَالَى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

وقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال:٢].

وقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال:٦٤].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ» قَالَها إِبْرَاهِيمُ - عليه السلام - حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وقَالَها مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣][١] رَواهُ البُخَارِيُّ والنَّسَائِيُّ.

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب :

(التوكل) لغة : التفويض والاعتماد.

اصطلاحاً: هو الاعتماد على الله في حصول مطلوب ودفع مكروه مع الثقة به، وفعل الأسباب المأذون فيها [٢] .

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٦٣).

(٢) القول المفيد ٢/٨٧ .

(وجلت قلوبهم) : الوجل هو الخوف .

(حسبك الله): الحسب هو الكافي.

الوقفة الثانية:

أورد المصنف - رحمه الله - هذا الباب بعد باب الخوف من الله، وذلك أن الإنسان إذا خاف الله - عز وجل - توكل عليه، ولذلك جاء الأمر بالتوكل والحث عليه في آيات عديدة منها آية الباب ، ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [المائدة: ٢٣] .

الوقفة الثالثة:

مع آية الباب ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [المائدة: ٢٣].

معنى الآية : وعلى الله فتوكلوا أي اعتمدوا على الله وفوضوا أموركم إليه، ثم ربط هذا التوكل بالإيمان "إن كنتم مؤمنين" فالتوكل من الإيمان بل هو أساس الإيمان .

ولا يكون الإيمان باللسان فقط بل لابد من العمل القلبي، وعلامته أن يظهر أثر هذا على الجوارح .

دلت هذه الآية الكريمة على وجوب التوكل على الله عز وجل حيث جعل الله تعالى التوكل شرطاً للإيمان ، وعلامة ظاهرة عليه .

فمن جعل التوكل منهجاً له في هذه الحياة اطمأن قلبه وارتاح باله وسُعِد في الدنيا والآخرة؛ لأن القائم بشؤون هذا الكون هو الله - عز وجل - فأنت اعتمدت على عظيم لا يتعاظمه شيء سبحانه .

ويظهر هذا عملياً في الإنسان بالمقارنة والتشبيه، ولله المثل الأعلى،

فلو أن إنساناً له حاجة دنيوية عند آخر قيل له: لا يقضي حاجتك إلا فلان من الناس، فإذا ذهب إليه تجده لا يناديه إلا بأفضل الأسماء إليه ولا يصفه إلا بجميل الصفات ويتقرب إليه، وإذا رجع تجده معلقاً قلبه بفلان ماذا فعل وماذا سيحدث، فإن سمع اتصالاً ظن أنه هذا الرجل، وإن طُرق الباب ظن أنه هو، وقد يصلي ولا يزال يفكر بهذا الرجل، فلو جعل توكله على الله وليس على فلان لكان أولى به وأحرى، بل هو الواجب الذي لا يجوز غيره.

ولهذا جعل الله التوكّل عليه جزءاً من مقتضيات عقيدة المسلم وشرطاً في الإيمان كما هو في هذه الآية .

الوقفة الرابعة:

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فقد وصف الله عز وجل المؤمنين في هذه الآية بعدة صفات؛ **فالصفة الأولى:** وَجَلُ القلب إذا ذكر الله، أي الخوف والخشية عند ذكر الله - عز وجل -، سواء كان ذكر الله بالقول، أو ذكر الله بالفعل، أو ذكر أقدار الله عز وجل، أو ذكر عظمته، فالقلوب تخشع وتخاف، وهذا هو قلب المؤمن الصادق .

الصفة الثانية: ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا﴾ فإذا سمع المؤمن آيات الله تتلى توقف عندها وتأمل وتدبر فيزيد عنده الإيمان ويقوى بذلك، فإذا مرت به آية وَعْد بالجنة سأل الله من فضله، وإذا مرت به آية وعيد بالعذاب والنار استعاذ الله منها، وإذا مرت به قصص الأمم السابقة وكيف كان انتقام الله جل في علاه منهم وقف وتأمل .

الصفة الثالثة: ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ وهذا هو الشاهد، وأيضاً هنا

ربط التوكل بالإيمان حيث جعله صفة من صفات المؤمنين، فمن توكل على غير الله - عز وجل - ضعف في إيمانه، على تفصيل سيأتي ذكره في أقسام التوكل.

الوقفة الخامسة:

في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنفال:٦٤] وقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٣].

في هاتين الآيتين بين الله سبحانه أنه كافٍ نبيَّه وكافٍ مَن اتبعه من المؤمنين، فالحسب هو الكافي، فمتى ما توكلوا عليه سبحانه وعلقوا رجاءهم به فهو ينصرهم ويقويهم.

والمتأمل في القرآن الكريم يجد أن آيات التوكل كثر تكرارها مما يدل على عظم أمر التوكل، فعلى المؤمن أن يتذكر أن الأمور بيد الله مهما تكالبت الخطوب وعظمت المحن ففرجها من الله، فليتوكل عليه ويحسن الرجاء فيه.

الوقفة السادسة :

حديث ابن عباس الذي أورده المصنف فيه قصتان: **القصة الأولى** قصة خليل الله إبراهيم عليه السلام لما ألقاه قومه في النار ليحرقوه بها. كان موقفه عليه السلام التوكل على الله تعالى بقوله : ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾[1] فكانت النتيجة تغيير السنة الكونية بقدرة الله بأن تحولت النار المحرقة إلى نار باردة وسلام؛ لتبقى دليلاً على أن عاقبة قوة التوكل على الله للمؤمن مهما

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٧٣) .

كانت الحال.

والقصة الأخرى في غزوة أحد بعد أن هُزم المسلمون أراد أبو سفيان -وكان مشركاً آنذاك- أن يرجع إلى المسلمين في المدينة ليقضي على الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة بذلك، أذن مؤذن بالمدينة أن ألحقوا المشركين، فلما وصل المسلمون إلى حمراء الأسد جاءهم رسول من أبي سفيان بأنه راجع إليهم هو ومن معه ليستأصلهم، فازداد الصحابة ثباتاً وإيماناً وقالوا : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [1] .

وكانت النتيجة أن المشركين رجعوا إلى مكة وقد ألقى الله في قلوبهم الرعب، وأما المسلمون فقال الله عنهم: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [2] .

الوقفة السابعة :

أقسام التوكل [3] :

١ - **توكل عبادة وخضوع** ، وهو الاعتماد المطلق على من توكل عليه بحيث يعتقد أن بيده جلب النفع ودفع الضر، فيعتمد عليه اعتماداً كاملاً مع شعوره بافتقاره إليه، فهذا يجب إخلاصه لله تعالى، ومن صرفه لغير الله فقد أشرك.

٢ - **الاعتماد على شخص في رزقه ومعاشه** وغير ذلك مع التعلق

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٧٣).

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٧٤).

(٣) ينظر: القول المفيد (٢/٨٩).

بهذا الشخص، وهذا من الشرك الأصغر.

مثاله: اعتماد كثير من الناس على وظيفته في حصول رزقه، فتجده يعتمد على هذا السبب اعتماد افتقار ، ويحابي من يكون عنده هذا الرزق من مدير ومسؤول، فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب بل جعله فوق السبب، وأنه إذا فقد هذه الوظيفة فكأن رزقه انقطع .

٣ - **أن يعتمد على شخص ويوكِّله في التصرف** في أمر معين فلا بأس بهذا .

مثاله : توكل شخص في بيع شيء أو شرائه .

الوقفة الثامنة:

أسباب معينة على زيادة التوكل عند المسلم:

١ - أن يربط العبد جميع أموره بالله سبحانه بحيث يستشعر رقابة الله عليه وأن الأمر كله بيد الله.

٢ - أن يكثر بقدرما يستطيع من الطاعات والعبادات، فالإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فمتى ما ضعف الإيمان وقلت الطاعة ضعف التوكل على الله .

٣ - العيش مع كتاب الله، فمن تدبر كلام الله وأخذ العبرة مما فيه من قصص ودروس زاد الإيمان عنده فيزيد توكله .

٤ - كثرة الذكر لله عز وجل والتأمل والتوقف مع هذه الأذكار، فإذا قال العبد: حسبي الله ونعم الوكيل أو لا حول ولا قوة إلا بالله واستشعر معناها وتأمل ما فيها يقوى بذلك توكله على الله.

٥ - أن يربط الأسباب بمسبباتها، والعمل في ضوء السنن الكونية ، فإن أصابه فقر أو مصيبة ونحوه ينظر ما هو الميزان الشرعي في مثل هذا، فلو أصيب بمرض مثلاً يسأل نفسه هل يتداوى أو لا؟ فهو يعلم أن التداوي سبب من الأسباب ولكن الشفاء بيد الله، فلا يبالغ في اعتماده على هذا السبب، وفي المقابل لا يترك السبب، فهذا يخالف السنن الكونية والشرعية ، فالسنة الكونية أنه ما من داء إلا له دواء، والسنة الشرعية أن الله أمر بالأخذ بالأسباب كالتداوي بالقرآن والعسل وغير هذا .

٦ - إذا أصيب بمصيبة فليعمل السبب ولا يتركه ويميل إلى العجز والتواكل، فترك السبب تواكل وليس توكلاً على الله، فلا يجلس في بيته ويقول: سأرزق المال ولا يعمل السبب، بل قال الله تعالى: ﴿**فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ**﴾ [الملك: ١٥].

ويترك الزواج ويقول: سأرزق الذرية والولد، فلا يقول هذا عاقل فكيف بالمؤمن العاقل؟!

٧ - القراءة في السير والأخبار لمن عظم صبرهم وتوكلهم على الله كالأنبياء والصالحين، ويتأمل في مصائبهم، وكيف جازاهم الله سبحانه على صبرهم وتوكلهم.

الوقفة التاسعة:

ثمرات التوكل على الله :

١ - زيادة الإيمان، فكلما زاد التوكل على الله زاد الإيمان به .

٢ - ما يحصل للمتوكل من سعادة وطمأنينة في قلبه، و راحة في

صدره، واستقراره في معيشته .

٣ - الرضى بما قضاه الله وقدره، وهذه غاية كان يطلبها النبي ﷺ بقوله: (**اللهم أسألك الرضا بعد القضاء**) فمن وصل إلى هذا المستوى كانت المحن التي تمر به منحاً ونعماً .

الوقفة العاشرة :

من مظاهر ضعف التوكل :

١ - انتشر عند الناس كلمة "الخوف من المستقبل"، لا شك أن الإنسان يعمل ويكد ويكدح وهذا هو المطلوب، ولكن لا يصل إلى درجة أنه يخاف من المستقبل، فلو فرضنا أن رجلاً يملك الملايين فالله قادر بلحظة أن يذهبها، فالأمر كله بيد الله ، فالمسلم عليه أن يعمل الأسباب الكونية والشرعية، وأن يترك المستقبل لمن يملك التصرف فيه وهو الله عز وجل، ويسأله ويدعُوه أن يلطف به وأن يعطيه من فضله، فهو الرزاق ذو القوة المتين.

٢ - الخوف على الأولاد من نقص الرزق، فتجد الأب يكد ويكدح ويقول: أنا أعمل ليل نهار حتى إذا كبر الأولاد أغنيهم .

فيقال له : كم من غني افتقر آخر عمره والعكس، والحل: عليك أن تتوكل على الله وتعلم أن الأمور بيد الله، ثم بعد هذا افعل الأسباب ولا حرج .

والمصيبة في من كانت هذه حاله قد تجده يفرط في الحقوق الشرعية لأجل زيادة الكسب، كأن يترك الزكاة الشرعية والإنفاق الواجب لهذا السبب .

٣ - التعلق حال المصيبة بمن يظن أنه يحل له هذه المصيبة، كالمريض الذي يتعلق بالطبيب ويرجوه أن يشفيه من مرضه ويهتم به، ونسي أن الشفاء بيد الله، وأن هذه أسباب إن لم يأذن الله بالشفاء بها فلن تنفعك حتى لو ذهبت تطلبها في أقصى الدنيا، فالواجب أن تعمل الأسباب المشروعة مع التعلق بالله، وابتهل له بالدعاء.

٤ - الذهاب إلى السحرة والمشعوذين، ويظن أنهم أسباب مشروعة، وأن لديهم الحل لمشكلته أو علاج مرضه، فالحذر كل الحذر من هؤلاء، فقد يخرجون عن عبادة الله تعالى.

٥- بعض الناس يمتنع عن العمل بسبب الخوف من النتيجة، مع أنه عمل شرعي، كأن يترك الحج بحجة أنه يخشى أن يموت إن ذهب، أو يخشى أن يصيبه مرض، فمثل هذا يحتاج إلى معالجة أمر التوكل بالرجوع إلى ما ذكرناه من الأسباب التي يقوى بها التوكل عند المسلم، والله أعلم .

٣٣- بابُ قَوْلِ اللّهِ تعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٩].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر:٥٦].

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ؟ فَقَالَ: «**الشِّرْكُ باللهِ واليأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ والأمْنُ مِنْ مَكْرِ الله**»(١).

وعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «**أَكْبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، والأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، والقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ**»(٢) رَواهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.

الوقفة الأولى :

شرح مفردات الباب:

(مكر الله) : استدراجه العبد بالنعم إذا عصى وإملاؤه له حتى يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

(يقنط) : القنوط: أشد اليأس واستبعاد الفرج .

(اليأس من روح الله): أي قطع الرجاء والأمل من الله فيما يأمله ويقصده و(الروح): بفتح الراء قريب من معنى الرحمة، وهو الفرج والتنفيس .

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٩/١): رواه البزار والطبراني ورجاله موثقون. وقال المناوي في فيض القدير (٦١/٥): رمز المصنف لحسنه. قال الزين العراقي في شرح الترمذي: إسناده حسن. وحسنه الألباني في الأحاديث الصحيحة برقم (٢٠٥١).

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٩/١): وإسناده صحيح.

(الكبائر) : جمع كبيرة والمراد بها : كبائر الذنوب، وقد حدها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بأنها : "كل ما رتب عليه عقوبة خاصة ، سواء كانت في الدنيا أو في الآخرة، وسواء كانت بفوات محبوب أو بحصول مكروه" .

الوقفة الثانية:

أراد المصنف - رحمه الله - بهذه الترجمة أن ينسبها إلى أمرين عظيمين:

الأول : الأمن من مكر الله .

الثاني: القنوط من رحمة الله، وكلاهما طرفا نقيض .

وقد ذكر سابقاً ما يتعلق بالخوف من الله وما يتعلق برجاء رحمة الله عز وجل وما أعده الله للطائفتين من عباده، فالذي يقابل الخوف من الله هو الأمن من مكر الله عز وجل، والذي يقابل الرجاء هو اليأس والقنوط من رحمة الله ، وهذان الأمران عظيمان وكبيران وهما من أعظم الذنوب، فالأمن من مكر الله أن يتمادى الإنسان في المعاصي والذنوب مع استدراج الله له بالنعم، فيأمن عذاب الله سبحانه وتعالى وعقوبته، وهذا بحد ذاته مرض من الأمراض منافٍ لأصل من أصول التوحيد؛ وهو الخوف من الله سبحانه وتعالى .

لذلك افتتح المصنف - رحمه الله - هذا الباب بقوله تعالى : ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾.

فهذا استفهام انكاري على العصاة الذين يأمنون مكر الله سبحانه

وتعالى ويأمنون عقوبته، وهم يوالون الذنوب تلو الذنوب ، ويقترفون المعاصي تلو المعاصي ، ثم قال سبحانه: ﴿ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فهؤلاء هم القوم الخاسرون أي الهالكون، والله سبحانه وتعالى حكم عليهم بالخسارة والهلاك يوم القيامة، وقد تأتيه هذه العقوبة بفتنة ــوالعياذ بالله- ومن ثم يهلك في الدنيا والآخرة .

الأمر الثاني الذي اشتمل عليه هذا الباب وهو في مقابل الأمن من مكر الله سبحانه، ألا وهو القنوط من رحمة الله سبحانه وتعالى، ويستدل المؤلف بقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: من الآية٥٦] والمعنى لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون، وهم المخطئون لطريق الصواب الذين فقدوا الهداية وضلوا عن الصراط المستقيم، والقنوط أيضاً مرض من الأمراض منافٍ لأصل من أصول التوحيد، وهو رجاء رحمة الله سبحانه وتعالى .

الوقفة الثالثة:

يستفاد من هذه الآيات والأحاديث تحريم الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله سبحانه .

أما الأمن من مكر الله فمن وجهين :

١ - أن الجملة وهي (أفأمنوا مكر الله) على صيغة الاستفهام الدال على الإنكار والتعجب .

٢ - قوله تعالى ﴿ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ . ففي هذه الآية تعليق الخسارة على الأمن من مكر الله تعالى، وهذا سبب من أسباب

التحريم.

وأما القنوط من رحمة الله فهو محرم أيضاً من وجهين:

١ - أنه طعن في قدرته سبحانه ؛ لأن من علم أن الله على كل شيء قدير لم يستبعد شيئاً على قدرته .

٢ - أنه طعن في رحمته سبحانه؛ لأنه من علم أن الله رحيم لا يستبعد أن يرحمه الله سبحانه وتعالى، ولهذا كان القانط من رحمة الله ضالاً .

فالمؤمن يسير إلى الله تعالى بين الرجاء والخوف، ولذلك قال ابن القيم - رحمه الله - "القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه ، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومن فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر" (١) .

فينبغي للمسلم أن يتجنب هذين الأمرين اللذين عدهما الشارع من الكبائر، **ومن أهم الأمور التي تساعده على تجنبهما :**

أولاً: ألا يلين ولا يستلم لوساوس الشيطان ، فالشيطان يبذل كل جهده ليدخل على قلبه القنوط من رحمة الله عز وجل ، فيجب على العبد أن يحذر منه، وأن يغلق الأبواب التي يدخل معها، وأن يعزز نفسه تعزيزاً قسرياً إذا رأى أن القنوط قد دخل قلبه بأن الله سبحانه سيرحمه، وأن رحمة الله وسعت كل شيء وأنه أرحم الراحمين .

ثانياً: أن يعمل بقدر استطاعته - وإن كان العمل قليلاً - مبتدئاً

---

(١) مدارج السالكين (٤١٥/١).

بالفرائض، ثم ما استطاع من النوافل والمستحبات، فإذا عمل الإنسان بفرائض الله وسننه فجزاؤه أن يتغمده الله جل وعلا برحمته .

ثالثاً: الحذر من المعاصي والذنوب ، حتى لا يصل إلى الأمن من مكر الله ؛ لأن المعصية نقطة سوداء تقع في قلب المسلم، فإذا أصر عليها اتسعت دائرة هذا السواد حتى تتغشى قلبه كله، والعياذ بالله .

فعلى العبد إذا رأى في نفسه الخلل والتقصير أن يبادر بالتوبة والإنابة إلى الله عز وجل، وإذا كان الرسول ﷺ أفضل الخلق على الإطلاق الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة، فكيف بسواه من العباد الضعفاء المساكين؟!

رابعاً: الارتباط دائماً وأبداً بالله سبحانه، فيستثمر وقته بذكر الله من قراءة القرآن، وكثرة الأذكار المقيدة بوقت أو زمان والمطلقة في سائر الأوقات، والإكثار من نوافل العبادات؛ كصلاة النافلة وصوم النافلة وصدقة النافلة، ومختلف الأعمال النافعة في الدنيا والآخرة. وهكذا يجد نفسه بإذن الله لا يقنط من رحمة الله، فيرجو رحمة الله ويخشى عقاب الله، ثم يحمي هذا وذاك بالدعاء والتوجه لله سبحانه بأن يكون من الراجين الخائفين، وسيصل إلى هذه النتيجة والبغية بإذن الله تعالى.

الوقفة الرابعة :

أن الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته سبحانه أمران نجدهما للأسف عند كثير من الناس ، فنجد عند بعض العُبّاد وبعض أصحاب الطاعة يغلب عليهم اليأس والقنوط من رحمة الله سبحانه ، وفي الوقت نفسه نجد

أن كثيراً من العصاة قد أمنوا مكر الله سبحانه وتعالى وعقوبته، فيمنّ على الله بعمل الفرائض وما أدرى هذا المسكين أن عمله مقبول؟ وما أدراه أن سيئاته التي عملها لم تطفئ حسناته؟ وما أدراه أنه يموت على طاعة من طاعات الله سبحانه؟ فتجده يهون من أمر المعاصي والذنوب ويقلل من شأنها بأنها صغائر، أو لا يعلم أن الإصرار على الصغائر يصيرها كبائر، فالإصرار على الصغائر قد يصيرها كبائر، والمؤمن يجب أن لا ينظر إلى صغر المعصية ولكن ينظر إلى عظم من يعصيه وهو الله سبحانه رب الأولين والآخرين .
ولكن الله سبحانه صاحب الحمد والمنة والفضل يكفر السيئات بعمل الطاعات كما يكفرها بالتوبة إليه، فالإنسان يجب أن يعيش بين طاعة الله فيرجو قبولها، وبين إذا عمل معصية أو أذنب أن يبادر بالتوبة ولا يأمن مكر الله سبحانه وتعالى . وحينئذٍ يسلم في الدنيا والآخرة.

٣٤- بابٌ مِنَ الإيمَانِ باللهِ الصَّبْرُ عَلَى أقْدَارِ اللهِ

وقَوْلِهِ تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [التغابن: ١١].

قالَ عَلْقَمَةُ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ[(١)].

وفِي صَحيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيرةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، والنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ**»[(٢)].

ولَهُمَا عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وشَقَّ الجُيُوبَ، ودَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ**»[(٣)].

وعَن أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ بالعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[(٤)].

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٨/١٨٣ ـ ١٨٤) إلى عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٢٩٤) ومسلم (رقم ١٠٣).

(٤) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦) والحاكم (٤/٦٠٨) (١/٣٤٩) وسكت عنه في الموضع الأول، وقال في الموضع الثاني: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وحسنه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٠٨).

وقَالَ ﷺ : «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ، وإِنَّ اللهَ تَعالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، ومَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»[1]. حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(الإيمان) في اللغة : التصديق .

واصطلاحاً: هو قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالجنان أي القلب. يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

(الصبر) في اللغة : الحبس .

واصطلاحاً : حبس النفس عن الجزع ، واللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب .

(كفر): المقصود بالكفر هنا الكفر الأصغر، وهو من كبائر الذنوب، فهاتان الخصلتان كفر أصغر.

(الطعن في النسب): عيبها وتنقصها .

(النياحة على الميت) : رفع الصوت بالندب بتعديد شمائله؛ لما في ذلك من التسخط على القدر .

(ضرب الخدود): المقصود التسخط على المصيبة بالضرب سواءً كان

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦) مكرر، وابن ماجه برقم (٤٠٣١) وحسنه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢١١٠).

للخد أو غيره، وإنما ذكر الخد لكونه هو الذي في العادة يضرب .

(شق الجيوب): الجيب هو مدخل الرأس من الثوب .

(دعوى الجاهلية): هو كل ما ينافي التوحيد في الندب على الميت والنداء بالويل والثبور.

(إن عظم الجزاء مع عظم البلاء) : أي من كان ابتلاؤه أعظم كان جزاؤه أعظم .

(عجل له العقوبة في الدنيا): تنزل به المصائب لما صدر عنه من الذنوب، فيخرج من الدنيا وليس عليه ذنب .

(أمسك عنه بذنبه) : أخر عنه عقوبة ذنبه .

(يوافي به) : يجيء يوم القيمة مستوفى الذنوب فيستوفي ما يستحقه من العقاب .

الوقفة الثانية:

أراد المصنف في هذا الباب بيان وجوب الصبر على الأقدار وعدم التسخط منها؛ لأن ذلك ينافي كمال التوحيد، **وقد قسم العلماء الصبر إلى ثلاثة أقسام** :

الأول: الصبر على طاعة الله ؛ لأن الله أمر الناس بطاعته، ففرض لهم فرائض، وسن لهم سنناً تحتاج إلى الصبر والمجاهدة؛ كالصلاة والصيام والزكاة والحج والعمرة الخ . وهذا القسم أعلا الأقسام وأفضلها .

الثاني: الصبر عن معصية الله؛ لأن كثيراً من المعاصي تهواها النفوس وتشتهيها لما يحصل فيها من اللذة العاجلة التي تنقلب إلى أمراض، فإن

النفس تميل عادة إلى ما تشتهيه وإن كان فيه ضرر .

الثالث : الصبر على أقدار الله ، وهو الذي ذكره المصنف هنا؛ لأن الصبر على أقدار الله يحتاج إلى قوة في مقابل هذه المصائب، فتظهر هذه القوة بالصبر عن التشكي والتسخط، وحبس الجوارح عن عمل ما ينافي الإيمان من لطم الخدود وشق الجيوب، لذلك خصه المصنف - رحمه الله - هنا.

الوقفة الثالثة :

الناس حال المصيبة على أربع مراتب:

الأولى : التسخط ، وهو إما أن يكون بالقلب؛ كأن يسخط على ربه ويعترض على قدر الله عليه ، وقد يكون باللسان من الدعاء بالويل والثبور ورفع الصوت بالنياحة ، وقد يكون بالجوارح كلطم الخدود وشق الجيوب وغير ذلك . وكل هذا من الكبائر، والعياذ بالله.

الثانية: الصبر، فيحبس نفسه ولسانه وجوارحه لكنه يرى هذا الشيء ثقيلاً عليه ويكرهه لكنه يتحمله ويتصبر، فوقوعه وعدمه ليس سواء بل يكرهه لكن إيمانه يحميه من التسخط . وهذه المرتبة واجبة، وهي الصبر والتصبر .

الثالثة : الرضا، وهو أعلى من الصبر، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقدره، فهو ينظر إليها باعتبارها قضاء لربه فهو راضٍ بها، وهذا الفرق بين الرضا والصبر .

الرابعة : الشكر، وهو أعلى المراتب، وذلك أن يشكر الله على ما

أصابه من المصيبة؛ حيث يرى أن هناك مصائب أعظم منها، وأن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه المصيبة سبب لتكفير السيئات وزيادة الحسنات وزيادة الإيمان كما في الصحيحين عن النبي ﷺ : (ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها) .

وهذه الدرجة هي درجة الأنبياء، كما ذكر الله تعالى عن الخليل عليه السلام : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠،١٢١.]

الوقفة الرابعة:

إن للصبر على أقدار الله المؤلمة آثاراً إيجابية عظيمة منها:

١- تكفير السيئات كما سبق في الحديث السابق .

٢- رفعة الدرجات.

٣- قوة الإيمان بالله سبحانه.

٤- الطمأنينة في هذه الحياة الدنيا.

٥- استمرار الإنتاج في هذه الحياة؛ مما يكفل عمارة الكون التي يتحقق بها الخلافة في الأرض، وغيرها كثير.

٣٥- بَـابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

وقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: قَالَ اللهُ تَعَالَى: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ**»[1]. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**» قَالُوا: بَلَى يا رسول الله قَالَ: «**الشِّرْكُ الخَفِيُّ، يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**»[2]. رَوَاهُ أَحْمَدُ.

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(الرياء) : مصدر من راءى يرائي، مشتق من الرؤية ، وهو أن يعمل عبادة ليراه الناس فيحمدوه عليها ، ويدخل فيه من عمل عملاً ليسمعه الناس، وجاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: (**من راءى راءى الله به، ومن سمّع سمّع الله به**) [3] فالأول يقال له رياء، والثاني هو السُمعة.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم(٢٦٠٧).

(٣) رواه البخاري في كتاب: الرقائق ، باب: الرياء والسمعة ، برقم (٦١٣٤)، ورواه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله ، برقم (٢٩٨٦).

وعكس الرياء الإخلاص لله تعالى ويعني : إفراده تعالى بالقصد في الطاعة ، وتصفيته من ملاحظة المخلوقين.

الوقفة الثانية:

في قوله تعالى : ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**﴾ (١) استنبط العلماء من هذه الآية أن **العمل لا يكون مقبولاً عند الله إلا بشرطين**: **الأول**: الإخلاص له سبحانه، بألا يشرك معه غيره في العبادة، ولهذا الكفار لا ينكرون وجود الله بدليل قوله تعالى : ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ (٢) ولكنهم يشركون معه بالأصنام وغيرها، وكذا المرائي الذي لا يعمل العمل إلا للناس فلا يكون مقبولاً عند الله، كما في حديث الباب.

الثاني: أن يكون وفق ما جاء به رسول الله ﷺ ، فلا يبتدع أمراً يتقرب به لله لم يرد في الشرع . ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**) (٣) أي مردود عليه غير مقبول .

الوقفة الثالثة:

جاءت النصوص العديدة بالأمر بالإخلاص لله وحده في العبادة،

---

(١) سورة الكهف ، الآية (١١٠).

(٢) سورة الزخرف ، الآية (٨٧).

(٣) رواه البخاري في كتاب: البيوع ، باب: النجش، برقم (٢٥٣٠)، ورواه مسلم في كتاب: الأقضية ، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ، برقم (١٧١٨).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (١) وقال في آية أخرى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (٢) قال الفضيل: أي أخلصه وأصوبه.

وجاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى...**) (٣).

ومما ينبغي أن يعلم أن المسلم قد يعمل عملاً يسيراً مخلصاً لله عز وجل يكون سبباً لدخوله الجنة كما جاء في حديث البطاقة، وفي الرجل الذي أماط الشوك عن طريق الناس، وفي البَغِيِّ التي سقت الكلب، فهي أعمال يسيرة عظمها الإخلاص.

وفي المقابل ثمة أعمالٌ ظاهرها العظم، ولا يستطيعها كثير من الناس لمشقتها نجدها لا تنفع أصحابها لما خالطها الرياء، ومن أظهر الشواهد على ذلك ما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها ؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلّمه ، وقرأ القرآن فأتي به فعرّفه نعمه، فقال: ما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك**

(١) سورة البينة ، الآية (٥).

(٢) سورة الملك ، الآية (٢).

(٣) رواه البخاري في كتاب : بدء الوحي، برقم (١).

القرآن، قال: كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال: عالم ، وقرأت القرآن ليقال: قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: فما عملت فيها؟ فقال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فيها لك قال: كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار) (١) .

وفي بعض روايات الحديث : أن معاوية ﷺ لما بلغه هذا الحديث بكى حتى غشي عليه ، فلما أفاق قال: صدق الله ورسوله ، قال الله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢) فعلم من ذلك أن صرف المقاصد في الأعمال الشرعية لغير الله مُحبِط للعمل ومفوِّت للأجر .

الوقفة الرابعة :

ما حكم العبادة إذا خالطها الرياء؟

وللجواب عن هذا السؤال يقال: إن الأمر لا يخلو من ثلاثة أحوال:

الحال الأولى: أن يكون قصده في العبادة ابتداءً هو أن يراه الناس، فهذا شرك بالله تعالى والعبادة باطلة.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة ، باب : من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، برقم (١٩٠٥).

(٢) سورة هود، الآيتان (١٥، ١٦).

الحال الثانية: أن يكون قصده في العبادة إخلاصها لله، ولكن طرأ عليه في أثنائها الرياء، فهنا يجب عليه مدافعة هذا القصد الجديد الفاسد، ولا يسكن إليه بل يعرض عنه، ولا يؤثر في عمله إن دفعه بلا خلاف كما ذكره ابن رجب [١] لقوله ﷺ : (**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم**) [٢] . أما إذا لم يدافع هذا الرياء وسكن له فحينئذ تكون كالحالة الأولى فتبطل العبادة، ودليلها حديث الباب: (**من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**) .

الحال الثالثة: ما يطرأ بعد الانتهاء من العبادة ، فلا يؤثر عليها بشيء، إلا إن كان فيها عدواناً، كالمَنّ بالصدقة؛ كما قال سبحانه : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى**﴾ [٣] .

وليس من الرياء فرح الإنسان بعلم الناس بعبادته بعد الانتهاء منها، لما جاء في مسلم عن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير فيحمده الناس عليه فقال ﷺ : (**تلك عاجل بشرى المؤمن**) [٤] .

---

(١) ينظر: جامع العلوم والحكم (١/٨٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب الطلاق، باب: الطلاق في الإغلاق والكره والنسيان برقم (٤٩٦٨) ورواه مسلم في كتاب: الإيمان ، باب: تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب برقم (١٢٧).

(٣) سورة البقرة ، الآية (٢٦٤).

(٤) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره (٢٦٤٢).

الوقفة السادسة :

هناك عدة أمور يمكن أن تكون وقاية بإذن الله عن الوقوع في الرياء ، وهي أيضاً علاج لمن وقع فيه وهي كالتالي:

١ - أن يعلم الإنسان أنه مخلوق في هذه الدنيا لعبادة ربه جل شأنه ، ولم يخلق ليرائي الناس.

٢ - أن يجزم أن البشر الذي يرائي من أجلهم عبيد مثله، ولا يملكون شيئاً إلا بإذن الله ، وأن لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء أو يضروه فلا يملكون ذلك إلا إن قدّره الله تبارك وتعالى، كما جاء في الحديث الصحيح: (**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**) [(١)].

٣ - أن يدرك حقيقة الشيطان بأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، ويسعى لإغواء بني آدم، فيحذر أشد الحذر من مزالقه، فالمسلم أقوى منه، ولكن قد يكون الشيطان أطول نفساً.

٤ - أن يستشعر المسلم أن العمل إذا خالطه الرياء وسكن له لم يقبل منه عند الله، وقد لا يحمده الناس عليه ، ويغفلون عنه، فلم يحصّل في الحالين شيء .

٥ - أن يشتغل المرء بعيوب نفسه وتقصيرها في الواجبات والمستحبات ، ولا يسكن لمراءاة الناس ومديحهم وهو يعرف

---

(١) رواه الترمذي في سننه في صفة القيامة والرقائق، برقم (٢٤٤٠).

خاصة نفسه، وليعلم أن العمر قصير والمطلوب كثير .

٦ - الحرص على عبادة الخلوات حيث لا يراه الناس، كقيام الليل، وقراءة القرآن، والبكاء من خشية الله، فهي تدرب المسلم على تعلقه بخالقه وطلب ما عنده في الآخرة.

٧ - الحرص على مجاهدة النفس في ذلك ، ودفعه ما أمكن، ومن المجاهدة الدعاء لله بأن يجعله مخلصاً له تعالى في أعماله وأن يجنبه كيد الشيطان ، جاء في الحديث: (**الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل، وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره ، تقول : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم**)[1].

---

(١) رواه أبو يعلى عن أبي بكر الصديقﷺ برقم(٥٨) وصححه الألباني في الجامع الصغير برقم(٦٠٤٤) .

٣٦- بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ إِرادةُ الإنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

وقَوْلُ اللهِ تَعالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥- ١٦].

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وانْتَكَسَ، وإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ. طُوبَى لِعَبْدٍ آخذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّة قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ**»(١).

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(تعس) : بفتح العين أو كسرها بمعنى خاب وخسر .

(الخميصة): كساء له أعلام .

(الخميلة) : الفراش الوثير.

(انتكس) : أي انتكست عليه الأمور بحيث لا تتيسر له .

(شيك) : أصابته شوكة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٨٨٧).

(فلا انتقش) : لم يستطع إخراج الشوكة بالمنقاش إن أصابته .

(طوبى):طابت حياته وحسنت، وقيل:هي شجرة في الجنة، وقيل:هي مكان في الجنة.

(العنان) : هو الحبل الذي يقاد به الفرس .

(أشعث) : لم يسرح شعره ولم يمشطه .

(الحراسة) : هي حماية الجيش من هجوم الأعداء .

(الساقة) : مؤخرة الجيش .

الوقفة الثانية:

في الباب السابق ذكر المؤلف ما يتعلق بالرياء، وهو أن يعمل عملاً من الأعمال الصالحة ليراه الناس ويمدحوه عليه، ولا يريد به النفع المادي، وهذا الباب في المرائي الذي يعمل عملاً مما يُبتغى به وجه الله والدار الآخر لا يعمله إلا لنفع دنيوي مادي؛ كالمال والجاه وعامة ما في الدنيا من زينة ، وبهذا يتبين أن هذا الباب أعم من الباب السابق ، فإذا أراد الإنسان بعمله الدنيا فهذا شرك ؛ لأنه أشرك مع الله في غايته وهدفه من عمله، ولم يرد ما أعده الله سبحانه وتعالى لمن عمل صالحاً.

الوقفة الثالثة:

في الآية التي ذكرها المصنف إشارة إلى أن غايات الأعمال لا تخلو من إحدى غايتين، إما أن يبتغي العامل بعمله ما عند الله سبحانه من رضاه ونعيم الجنة ، وإما أن يبتغي هذه الدنيا وما فيها من زينة وبهرج ، ومهما عمل الإنسان من عمل فلا يخرج عن هاتين الغايتين.

فقال سبحانه : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ (١) أي من أراد بعمله شيئاً من الدنيا من النساء والبنين والأموال وغيرها ، فهنا يقول سبحانه: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ أي فسنعطيهم ما يريدون دون أن يظلموا أو ينقصوا مما طلبوه من هذه الدنيا، ولكن النتيجة النهائية هي الخسران في الآخرة، فقال جل شأنه فيهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢) .

وهذه الآية صريحة في الدلالة على أن الغاية من العمل يجب أن تكون لله سبحانه وتعالى، ومن عمل عملاً ليقال له : خاشع أو قارئ مجيد أو حسن الصوت أو جواد وكريم أو حاج... وغيرها من العبارات فإن عمله باطل لا ينفع في الآخرة، بل هو نقمة عليه، يعذب في النار بسببه .

الوقفة الرابعة :

أورد المصنف هذا الحديث العظيم الذين يبين في الجملة خسارة من كانت الدنيا غايته وهدفه، فقال ﷺ : (تعس) أي خاب وخسر عبدالدينار وعبدالدرهم وعبدالخميصة وعبدالخميلة ، وسمي عبداً لهذه الأمور لأنه جعلها غايته، فيسعى ويكد ويكدح ويجتهد من أجلها ، فهي أغلى عنده من متاع الآخرة.

---

(١) سورة هود ، الآية (١٥).

(٢) سورة هود ، الآية (١٦).

ولكن ما علاقة المال واللباس والأثاث بالعبودية ؟

الجواب : أنه إن أُعطي منها رضي، وإن لم يعطَ سخط، فالعلاقة هي في الرضا والغضب والسخط، فهذه علامة عبوديته لهذه الأشياء.

ثم قال ﷺ مؤكداً للمعنى السابق (تعس وانتكس) أي خاب وخسر وانتكست إليه الأمور بحيث لا تتيسر له، فصار فقيراً من الجانبين، في الآخرة لأنه كان عبداً للدنيا، وفقيراً في الدنيا لأن الأمور قد لا تتيسر له على أن يعيش حياة رغدة ومترفة ، فقد يخسر في تجارته أو تأتيه آفة من الآفات، وهي إن سلمت له ولم يعطِ حقها من الشكر والزكاة فإنه سيحاسب عليها في الآخرة، و يُسأل من أين اكتسبها؟ فهذه الأشياء انتكست عليه.

وقوله ﷺ : (**وإذا شيك فلا انتقش**) أي إذا أصابته شوكة لا يستطيع أن يزيلها من نفسه، وهذه الجملة إما من باب الإخبار عن حاله ، وإما من باب الدعاء عليه لأنه لا يهتم إلا بالدنيا، وكلا الأمرين وبال عليه.

ثم ختم النبي ﷺ هذا الحديث بمقارنة بين صاحب الدنيا وبين إنسان ظاهر حاله أن لا قيمة له ، ولكنه عند الله سبحانه في الدرجات العُلى فهو مجاهد في سبيل الله أشعث رأسه ومغبرة قدماه من الأرض، إن وضع في حراسة الجيش فهو فيها، وإن وضع في ساقة الجيش أي أمامه كان كذلك ، وإذا شفع لأحد أو استأذن لم يؤبه به فليس له شرف ومكانة عند الناس ، فهذا الشخص عمل عملاً يبتغي به وجه الله فأثابه عليه بطوبى، وهو مكان في الجنة . ومن هذا يستفاد إكرام واحترام المسلم الصالح وإن كان ضعيف الشأن عند الناس.

الوقفة الخامسة :

الذي يريد بعمله الدنيا لا يخلو من حالين:

أ - أن يكون شركاً صريحاً:، وهو الذي يجعل الدنيا غايته ويجعلها تسيره ، فيترك الصلاة مثلاً من أجل الاتّجار بالمال.

ب - أن يكون وسيلة إلى الشرك: وهو أن تكون الدنيا مؤثرة عليه وعلى حياته، فيؤخر الصلاة من أجل أمر دنيوي، ولا يزكي خشية نقص ماله، ولا ينفق على والديه وأولاده وزوجه من أجل الدنيا ، فهذا ليس شركاً، ولكن صاحبه على خطر إذ أن فعله هذا من وسائل الشرك ، وهذه الحالة توجد عند بعض المسلمين، والواجب على المسلم أن يتفكر في قول النبي ﷺ : **(ومن كانت الدنيا همه فرّق الله أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة)** (١) .

وبناءً على ذلك يجب على المسلم أن يصوغ حياته كلها للوصول إلى الهدف الأسمى وهو العمل للآخرة وما فيها من النعيم المقيم، فيتيسر له أمر الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب : الزهد ، باب : الهم في الدنيا، برقم (٤١٠٥)، ورواه الترمذي بنحوه في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع برقم (٢٤٦٥)، وصححه الألباني في السلسلة برقم (٩٥٠).

٣٧- بابُ مَنْ أطاعَ العُلَماءَ والأمَراءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أحلَّ اللّهُ أوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أرْبَاباً من دون اللّه

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وتَقُولُونَ: قَالَ أَبو بَكْرٍ وعُمَرُ!

وَقَالَ الإمام أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ، ويَذْهَبُونَ إِلى رَأْيِ سُفْيَانَ، واللهُ تَعالَى يَقُولُ: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور:٦٣]. أَتَدْرِي ما الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ: الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إِذا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلَكَ.

وَعَنْ عَدِيِّ بنِ حَاتِمٍ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ **ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾** ﴾ [التوبة: ٣١]. فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، قَالَ: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ، فَتُحِلُّونَهُ؟**» فَقُلْتُ: بَلَى. قَالَ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**»(١) رَواهُ أَحْمَدُ والتِّرْمِذيُّ وحَسَّنَهُ.

---

(١)أخرجه الترمذي (رقم ٣٠٩٥) والحديث حسنه الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي. وأخرجه أيضاً البيهقي في السنن الكبرى (١١٦/١٠)، وأخرجه بسنده عن أبي البختري قال: سئل حذيفة رضي الله عنه عن هذه الآية ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أكانوا يصلون لهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا يحلون لهم ما حرّم الله=

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(الإسناد وصحته) : المراد هنا رجال السند ؛ لأن صحة الإسناد تدل على صحة الحديث في الغالب إلا إذا كان في المتن نكارة ظاهرة.

(الزيغ): العدول عن الحق وفساد القلب .

(أحبارهم): الأحبار علماء اليهود .

(رهبانهم): الرهبان علماء النصارى .

(أرباباً من دون الله): أي شركاء لله في التشريع حيث اتبعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله .

الوقفة الثانية:

ذكر المصنف - رحمه الله - هذا الباب لبيان نوع من أنواع الشرك، وأن الشرك ليس خاصاً بدعاء الأموات وعبادة الأشجار والأحجار وإنما يكون بأشياء أخرى ، ومنها طاعة غير الله في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله.

فنبه المصنف - رحمه الله - على وجوب اعتقاد اختصاص الخالق تبارك وتعالى بالطاعة، وأنه لا يطاع أحد من الخلق إلا إذا كانت طاعته في

=عليهم فيستحلونه. ويحرمون عليهم ما أحل الله لهم فيحرمونه، فصاروا بذلك أرباباً. السنن الكبرى (١٠/١١٦).

غير معصية الله، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وجاء النص على العلماء والأمراء لأن لهم الطاعة ، والمراد بالعلماء هنا العلماء بشرع الله ، وبالأمراء المنفذون له، وهذان الصنفان هما المذكوران في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (١) ، والمفسرون ذكروا أن أولي الأمر هنا هم العلماء والأمراء، وكلٌّ في اختصاصه؛ فالأمير له الأمر والنهي فيما يتعلق بشؤون البلاد، والعالم له الأمر والنهي في اختصاصه، مع أن هذه الطاعة مقيدة بطاعة الله عز وجل، وكذلك لما قال سبحانه: ﴿ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ عطفها على طاعة الرسول ﷺ مما يدل على أن الطاعة هنا مقيدة في غير معصية الله، فإن أطاعهم في معصية الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله .

الوقفة الثالثة:

أورد المصنف - رحمه الله - بعض الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا الباب والتي تبين أن مصدر التشريع ومصدر التلقي هو الوحي وهو الكتاب والسنة، وبناءً على ذلك الطاعة المطلقة لله سبحانه ولرسوله ﷺ ، فمن صرف هذه الطاعة لغير الله فقد أشرك بالله.

والتفصيل في ذلك:

أن طاعة غير الله إما أن تكون هذه الطاعة فيما جاء عن الله سبحانه وهذه الطاعة هي التي أمر الله بها، بأن يطيع الرجل ولاة أمره من العلماء والأمراء ما دام في طاعة الله، وفي ذلك صلاح العباد والبلاد .

(١) سورة النساء ، الآية (٥٩).

وإما أن تكون الطاعة في غير طاعة الله سبحانه بل في معصيته، **هذه تنقسم إلى ثلاثة أقسام** :

القسم الأول: أن تكون هذه الطاعة في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، فيتابعهم في ذلك راضياً بقولهم مقدماً له، ساخطاً لحكم الله، فهذا شرك وكفر؛ لأنه كره ما أنزل الله فأحبط عمله.

القسم الثاني: أن تكون الطاعة مع بقاء الحكم ، فيتابعهم في ذلك راضياً بحكم الله عالماً بأنه أحكم وأمثل، وأصلح للعباد ولكنه لهوى في نفسه اختاره، كأن يريد منصباً أو وظيفة، فهذا كبيرة من الكبائر العظيمة ويعاقب بقدر معصيته، ولكنه لا يصل للشرك ولا للكفر بالله، وله حكم غيره من العصاة .

القسم الثالث:أن يتابعهم جاهلاً فيظن أن ذلك حكم الله، فينقسم هذا الصنف إلى قسمين:

أ - أن يمكنه أن يعلم الحق بنفسه ، فهذا مفرط ومقصر فهو آثم بذلك؛ لأن الله سبحانه أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم .

ب - أن لا يكون عالماً ولا يمكنه التعلم، فيتابعهم تقليداً ويظن أن هذا هو الحق، فهذا لا شيء عليه لأنه فعل ما أُمر به وكان معذوراً بذلك .

الوقفة الرابعة:

الأخطاء والمخالفات العقدية في هذا الباب :

١ - يعتقد كثير من الناس ويتبادر إلى أذهانهم أن الشرك يتعلق بالسجود للأصنام ودعاء الأموات وعبادة الأشجار والأحجار فقط ، أما

الأمور الأخرى فلا تتعلق بالشرك، وهذا خطأ بل هناك أمور أخرى يصبح الإنسان فيها مشركاً ولو لم يعبدها ويدعُها ويتقرب إليها، ومنها طاعة غير الله في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله ، فهذه الطاعة عبادة لهم، فمفهوم العبادة أشمل مما يعتقد البعض؛ لذلك قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم : (**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرّم الله فتحلونه؟ قال: بلى، قال: فتلك عبادتهم**).

٢ - تقديم أقوال الناس على الكتاب والسنة وعدم العلم بأن أقوال الناس لا عبرة لها مع معارضة قول الرسول ﷺ مهما كانت منزلتها ، وابن عباس اعترض على الذين يوردون قول أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على قول رسول الله ﷺ ، فكيف بمن ترك قول رسول الله ﷺ لمن هو دونهم؟ ولذلك قال الإمام الشافعي : "أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد" .

وما زال العلماء يجتهدون في الوقائع، فإذا استبان لهم الدليل أخذوا به وتركوا اجتهادهم .

٣ - رجوع بعض الناس إلى العقل وجعله مصدراً للتشريع ومقدماً على الكتاب والسنة، وهذا من أعظم الضلال، وما ضلّت الطوائف قديماً ولا حديثاً إلا لأنها خالفت مصدر التشريع (الكتاب والسنة) وانتقلت إلى مصادر أخرى، فيعبدون الله بما دلت عليه عقولهم وأفكارهم ، لكن العقل السليم هو الذي يدلك على أن ما جاء عن الله سبحانه هو الحق وأنه الشرع، ويدلك

على أن ما جاء عن الله يُعمل به ولو خالف الأفكار والعقول السقيمة؛ لأن الخالق هو أعلم بحال خلقه وقد أتم لهم الدين وأكمل لهم النعمة، قال سبحانه : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[1].

٤ - ومن الأخطاء اتباع الهوى والرغبات الشخصية وتقديمها على شرع الله تعالى، فتضعف نفس هذا الإنسان عن العمل بشرع الله ويتبع هواه، كمن يقدم أكل الحرام والتعامل به ويدّعي أن الناس كلهم يعملون ذلك، فمثل هذا أوقع نفسه في شر مستطير. وهذا كثير في أحوال الناس . قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾[2].

---

(١) سورة المائدة، الآية (٣) .

(٢) سورة المؤمنون، الآية (٧١) .

٣٨- بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [النساء:٦٠- ٦٢].

وقَوْلِهِ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [البقرة:١١].

وقَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف:٥٦].

وقَوْلِهِ: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة:٥٠].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عمرو رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تَبعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ»(١) قَالَ النَّوَوِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ «الحُجَّةِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

---

(١)أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (رقم ١٥) والخطيب البغدادي في تاريخه (٣٦٩/٤) وقال ابن رجب الحنبلي رحمه الله في جامع العلوم والحكم:(٣٩٤/٢ ـ ٣٩٥) تصحيح هذا الحديث بعيد جدًّا من وجوه. وذكرها، ثم قال: وأما معنى الحديث فهو أن الإنسان لا يكون مؤمناً كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها، فيحب ما أمر به، ويكره ما نهى عنه. وقد ورد القرآن بمثل هذا في غير موضع. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

وقَالَ الشَّعْبِيُّ: كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ المُنَافِقِينَ ورَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ خُصُومَةٌ؛ فَقَالَ اليَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ ـ لأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ لا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ ـ وقَالَ المُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى اليهُودِ ـ لِعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ – فَاتَّفَقَا عَلَى أَنْ يَأْتِيا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ، فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾ الآية[1].

وقِيلَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وقَالَ الآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بنِ الأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا القِصَّةَ. فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ : أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ[2].

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري (رقم ٧٨١٦). وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٣٧/٥): فروى إسحاق بن راهويه في تفسيره بإسناد صحيح عن الشعبي قال: ... وذكره. ثم قال: وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد نحوه، وروى الطبري بإسناد صحيح عن ابن عباس: أن حاكم اليهود يومئذ كان أبا برزة الأسلمي قبل أن يسلم ويصحب. وروى بإسناد آخر صحيح إلى مجاهد: أنه كعب بن الأشرف.

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره (٤٤٦/١). وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٣٨/٥): وهذا الإسناد وإن كان ضعيفاً، لكن تقوى بطريق مجاهد، ولا يضره الاختلاف لإمكان التعدد، وأفاد الواحدي بإسناد صحيح عن سعيد عن قتادة أن اسم الأنصاري المذكور: قيس. ورجح الطبري في تفسيره وعزاه إلى أهل التأويل في تهذيبه: أن سبب نزولها هذه القصة ليتسق نظام الآيات كلها في سبب واحد، قال: ولم يعرض بينها ما يقتضي خلاف ذلك.
وورد أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان أبو برزة الأسلمي كاهنًا، يقضي بين اليهود فيما يتنافرون إليه، فتنافر إليه أناس من المسلمين، فأنزل الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾ الآية. أخرجه الطبراني في الكبير (٣٧٣/١١ رقم ١٢٠٤٥).وقال=

الوقفة الأولى :

شرح مفردات الباب:

(يزعمون) : يدعون الإيمان بذلك وهم كاذبون .

(الطاغوت): كل ما تجاوز العبد به حده من متبوع أو معبود أو مطاع ، والمراد به هنا كعب الأشرف .

(يصدون عنك صدودا) : يعرضون عنك إعراضاً .

(لا تفسدوا في الأرض): يتضمن الفساد الحسي من هدم البيوت وغيرها ويتضمن الفساد المعنوي، وذلك بالمعاصي وهذا من أكبر الفساد .

(بعد إصلاحها): ببعث الأنبياء وشرع الأحكام وعمل الطاعات.

(الجاهلية) : نسبة إلى الجهل وكل ما خالف الإسلام فهو جاهلية .

(يبغون) : يطلبون .

(لا يؤمن أحدكم) : أي إيماناً كاملاً، إلا إذا كان لا يعمد الذب عن النبي ﷺ بالكلية فإنه ينتفي عنه الإيمان بالكلية .

(هواه) : ما يهواه وتحبه نفسه .

(الرشوة) : ما يعطى لمن يتولى شيئاً من أمور الناس ليحيف مع المعطي، ومن ذلك ما يعطيه أحد الخصمين للقاضي ليحكم له .

=الهيثمي في المجمع (٩/٧): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة (١٩/٤): سنده جيد.

الوقفة الثانية:

صدر المصنف - رحمه الله - هذا الباب بهذه الآية إشارة منه إلى التحذير من التحاكم لغير الله سبحانه وتعالى ، وصلته بالذي قبله أن الباب الذي قبله هو تحريم طاعة غير الله سبحانه، فلا يجوز طاعة غير الله في معصية الله سبحانه، فإذا تعارضت الطاعتان قدمت طاعة الله سبحانه، وهنا التحذير الشديد من التحاكم إلى غير الله سبحانه، وأن هذا التحاكم من صفات المنافقين، وقد ذكر المصنف في آخر الباب سبب نزول الآية من اختصام رجل من المنافقين ورجل من اليهود، فالمنافق يريد أن يتحاكم إلى اليهود، واليهودي يريد أن يتحاكم إلى النبي ﷺ؛ لأنه يعلم أن النبي ﷺ متصف بالعدل ولا يأخذ الرشوة ليغير حكم الله سبحانه، أما المنافق يريد حكم اليهود؛ لأنهم يمكنهم أن يلبسوا الحق بالباطل والباطل بالحق، فلذلك أنزل الله سبحانه، هذه الآية:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ...﴾ فهنا استفهام إنكاري، ينكر الله سبحانه على من يفعل هذا الفعل ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ وسبق معنى الطاغوت ، والآمر هو الله سبحانه؛ لأن مصدر الأمر والنهي هو الله سبحانه وقد أمرنا سبحانه بالكفر بالطاغوت، فلا نعبد إلا الله ونكفر بما سواه .

وقال سبحانه: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾ والضلال هو البعد عن الحق وهو ضد الحق.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً﴾ فيعرضون ولا يريدون حكم الله ولا حكم رسوله

ويعرضون إعراضاً شديداً .

ثم قال سبحانه : ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً﴾ فالآية هنا تذم من عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواه، وقد سماه الله هنا الطاغوت .

ثم ذكر المؤلف بعدها قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وقوله : ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ وهذا توجيه من الله سبحانه بأن الإفساد في الأرض معصية من المعاصي التي يُعصَى الله بها، ومن عصى الله سبحانه بأي معصية فقد أفسد في الأرض ولم يقم بأي إصلاح؛ لأن الإصلاح لا يتم إلا بطاعة الله. وطاعة رسوله ﷺ، ويعني هذا أن التحاكم إلى غير الله أو الرضا بحكم غير الله من الإفساد في الأرض .

وأما قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ فهذا استفهام إنكاري بمعنى أن لا حكم أحسن من حكم الله، وهذا فيه التحذير الصريح من حكم الجاهلية، وقد سبق معنى الجاهلية.

الوقفة الثالثة:

إذا علمنا أن التحاكم إلى غير الكتاب والسنة من أعظم الذنوب وهو من صفات المنافقين، فهل هو مخرج من الإسلام إلى الكفر؟

فيه تفصيل:

إن كان يعتقد أن حكم غير الله أفضل من حكم الله أو مساوٍ لحكم الله فهذا بلا شك كفر يخرج من الإسلام، أما إن كان لهوى في قلبه أو لغلبة

شهوة أو خوف من عقاب مع اعتقاد قلبه أن حكم الله أفضل من حكم غيره فهذا على خطر عظيم، ولكن لا يخرج من الإسلام إلى الكفر .

الوقفة الرابعة:

نرى ضعف كثير من المسلمين وتساهلهم في تحكيم شرع الله ويظنون أن الأمر يسير، والأمر عظيم والعياذ بالله، فيتنبه لهذا الأمر الخطير ، وهو في المجتمعات المسلمة كثير كالذي يرضى بالسفور، ويرضى بالاختلاط بين الرجال والنساء، والذي يريد إشاعة المنكرات العامة ، والذي يريد أن يلبس على الناس الباطل ويظهره مظهر الحق، أو الذي يريد التحاكم إلى غير المحاكم الشرعية ونحو ذلك، هذا كله من صفات المنافقين ، وفيه تلبيس على الناس بإظهار الباطل مظهر الحق، وقد ارتكب جرائم عدة فيتنبه لهذا الأمر الخطير، وقانا الله ومجتمعات المسلمين شر ذلك .

٣٩- بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد: ٣٠].

وفي صَحِيحِ البُخَارِيِّ: قَال عَلِيٌّ: حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورَسُولُهُ؟[1]

ورَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ ابنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ، اسْتِنْكَاراً لِذَلِكَ فَقَالَ: مَا فَرَقُ هَؤلاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، ويَهْلَكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ[2]؟ انتهى.

ولَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ (الرَّحْمَنَ)، أَنْكَرُوا ذَلِكَ. فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾[3].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٢٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١/٤٢٣ رقم ٢٠٨٩٥).

(٣) فقد ثبت عن أنسٍ: أن قريشًا صالحوا النبي ﷺ فيهم سهيل بن عمرو. فقال النبي ﷺ لعليٍّ: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» قال سهيل: أما بسم الله، فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم. ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم.... أخرجه مسلم (رقم ١٧٨٤).

الوقفة الأولى :

شرح مفردات الباب:

(جحد) : الجحد الإنكار .

(الأسماء) : جمع اسم، والاسم مأخوذ من السمو والرفعة، وقيل: العلامة، والمراد بالأسماء هنا أسماء الله التي تسمى بها .

(الصفات) : المراد بها هنا صفات الله التي اتصف بها .

(وهم يكفرون بالرحمن): أي كفار قريش يجحدون هذا الاسم لا المسمى، قال تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1].

(توكلت) : فوضت أموري كلها واعتمدت عليه .

(إليه متاب): أي مرجعي وتوبتي.

(انتفض) : أي اهتز جسمه وارتعد .

(رقة) : ليناً وقبولاً.

(محكمة): أي محكم القرآن، وهو ما وضح معناه فلم يلتبس على أحد .

(متشابهة): أي متشابه القرآن، وهو ما اشتبه وخفي معناه فلا يعلمه كثير من الناس. وإنما يعلمه العلماء.

---

(١) سورة لقمان، الآية (٢٥).

الوقفة الثانية:

في هذا الباب بيَّن المصنف - رحمه الله - حكم من جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته وأنه يكفر بذلك ، ولما كان التوحيد ثلاثة أنواع ؛ توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، وكان الإيمان لا يحصل إلا بتحقيق هذه الثلاثة، بيَّن حكم من جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته .

والتفصيل في ذلك :

أن الجحد وهو الإنكار كما سبق نوعان:

الأول: إنكار تكذيب ، وهو أن ينكر اسماً من أسماء الله أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة؛ مثل أن يقول: إن الله غير سميع وإن الله غير بصير، أو يقول: ليس لله يد أو أنه لم يستو على عرشه، فهذا كفر بإجماع المسلمين .

الثاني: إنكار تأويل: وهو أن لا ينكرها ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها، وهو نوعان:

أ - أن يكون للتأويل مسوغ في اللغة، فتكون للكلمة عدة معانٍ فيأخذ المعنى المرجوح، فهذا لا يوجب الكفر.

ب - أن لا يكون له مسوغ في اللغة فيأتي بمعنى من عنده قاصداً هذا المعنى فهذا مثل من جحد مكذباً ؛ لأنه في الحقيقة تكذيب، مثل أن يقول المراد بقوله تعالى : ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾ [1] المراد بيديه : السماوات والأرض فهذا كافر؛ لأنه نفاها مطلقاً فهو مكذب .

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٦٤).

الوقفة الثالثة :

بعد أن تبين لنا معنى الجحد وأنواعه نبين **بعض القواعد والأمور المهمة في أسماء الله وصفاته :**

أولاً: أن أسماء الله أعلام وأوصاف وليست أعلاماً محضة، فهي من حيث دلالتها على ذات الله تعالى أعلام ومن حيث دلالتها على الصفة فهي تتضمن أوصافاً بخلاف أسماء الناس ، فالإنسان قد يسمي ابنه (صالح) ، دون أن يلحظ معنى الصفة ، قد يكون من أفسد الناس ، فاسم الشخص هنا علم ولا يشتق منه صفة ، بخلاف أسماء الله ؛ لأنها متضمنة للمعاني ، فالله هو العلي لعلو ذاته وصفاته، و(الرحيم) يدل على رحمته، و(العزيز) يدل على العزة وهكذا .

ثانياً: أسماء الله مترادفة من حيث دلالتها على ذات الله جل وعلا ومتباينة من حيث المعنى ، فالمترادف ما اختلف لفظه واتفق معناه .

فمترادفة لأنها تدل على مسمى واحد، فالرحمن الرحيم السميع البصير العليم هذه كلها تدل على الذات، ومتباينة باعتبار المعنى؛ لأن معنى (الرحيم) غير معنى (العليم) وغير معنى (الحكيم) وهكذا .

ثالثاً: صفات الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ - **صفات ذاتية**، يعني ملازمة لذات الله عز وجل، وهي التي لم يزل ولا يزال متصفاً بها؛ مثل السمع والبصر .

٢ - **صفات فعلية**، وهي التي تتعلق بفعله ومشيئته إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها؛ مثل النزول إلى السماء الدنيا والاستواء على العرش وغير

ذلك .

٣ - **صفات خبرية**، وهي أبعاض وأجزاء بالنسبة لنا، أما بالنسبة إلى الله فلا يقال هكذا بل يقال صفات خبرية ثبت بها الخبر من الكتاب والسنة، وهي ليست معنى ولا فعلاً مثل الوجه واليد والعين .

رابعاً : أن صفات الله سبحانه يوصف بها حقيقة مثل ما وصف الله به نفسه فهي على حقيقتها، فإذا وصف الله سبحانه بالسمع والبصر وبالعلم والقدرة، واتصف بالنزول إلى السماء الدنيا وبالاستواء على العرش هذه صفات حقيقية ، لكن ننزه الله سبحانه عن التمثيل والتكييف، فلا نقول: كيف سمع الله؟ وهل هو مثل سمع المخلوقين ؟ وكيف بصر الله؟ وهل هو مثل بصر المخلوقين؟ لأننا لا ندرك الكيفية؛ لذلك قال الإمام مالك فيمن سأله عن الاستواء قال: الاستواء معلوم ، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، يعني السؤال عن الكيفية، لذلك قال سبحانه : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [1] .

الوقفة الرابعة :

١ - يعتقد كثير من الناس أن أسماء الله سبحانه محصورة وأن لله تسعة وتسعين اسماً، والصحيح أن أسماء الله سبحانه ليست محصورة ولا محدودة بعدد معين .

والدليل على ذلك قوله ﷺ في حديث ابن مسعود ﷺ : (**اللهم إني**

(١) سورة الشورى ، الآية (١١) .

عبدك ابن عبدك ابن أمتك ... أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك) [١] .

وما استأثر به في علم الغيب لا يمكن أن يعلم به، وما ليس بمعلوم ليس بمحصور.

وأما قوله ﷺ : **(إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة)** [٢] فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة ، مثل من قال: عندي عشرة كتب أعددتها في الصلاة فليس، معناه أنه ليس عنده إلا هذه العشرة، بل معناه أن هذه العشرة معدة لهذا لا غير .

٢ - غفلة كثير من الناس عن التعبد والدعاء بأسماء الله وصفاته والاتجاه لغير الله سبحانه وتعالى ، فيقول للطبيب: يا طبيب اشفني، ويقول للساحر: يا ساحر أنت تعلم الغيب فارزقني، ولا يعلم أن الله هو الشافي وهو الرزاق وهو علام الغيوب، فهذا جحد عملي للتعبد بأسماء الله وصفاته ، فإذا عرف الإنسان أسماء الله وصفاته تعبّد الله بها فيقول لله سبحانه: يا رحيم ارحمني، ويا عليم علمني، ويا رزاق ارزقني وهكذا .

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن ابن مسعود، برقم (٣٧١٢)، وصححه ابن حبان.

(٢) رواه البخاري في كتاب: التوحيد، باب : إن لله مائة اسم إلا واحداً ، برقم (٦٩٥٧)، ورواه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله وفضل من أحصاها ، برقم (٢٦٧٧) .

٤٠- بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الآية [النحل:٨٣].

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي. وقَالَ عَوْنُ بنُ عَبْدِ اللهِ: يَقُولُونَ: لَوْلاَ فُلانٌ لَمْ يكُنْ كَذَا. وقَالَ ابنُ قُتَيْبَةَ: يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا.

وَقَالَ أَبو العَبَّاس بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بنِ خَالِدٍ الذِي فِيهِ: «أنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وكَافِرٌ..» الحَدِيثُ، وقَدْ تَقَدَّمَ: وهَذَا كَثِيرٌ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ، يَذُمُّ سَبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ، ويُشْرِكُ بِهِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، والمَلاَّحُ حَاذِقًا، ونَحْوِ ذَلِكَ مِمَا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ.

الوقفة الأولى :

شرح مفردات الباب:

(يعرفون) : يدركون بحواسهم أن النعمة من عند الله .

(نعمت الله) : المقصود جميع نعم الله سبحانه فهي لا تحصى .

(ينكرونها) : أي ينكرون إضافتها إلى الله، لأنهم يضيفونها للسبب متناسين المسبب الذي هو الله سبحانه .

(الكافرون) : الجاحدون أنها من عند الله سبحانه وتعالى .

(وقد تقدم) : يعني في باب الاستقاء بالأنواء .

(الملاح) : قائد السفينة .

(حاذقاً): عالماً بصنعته مجيداً للقيادة .

الوقفة الثانية:

ترجم المصنف بهذه الآية حضاً وترغيباً على التأدب مع جناب التوحيد، والبعد عن الألفاظ الشركية الخفية كنسبة النعم إلى غير الله ، ومناسبة ذكره في التوحيد أن من أضاف نعمة الخالق إلى غيره فقد جعل معه شريكاً في الربوبية، وهذا من وجهين:

الأول : لأنه أضافها إلى غير الله وهو السبب على أنه الفاعل.

الثاني: أنه لم يقم بالشكر الذي هو عبادة من العبادات، وترك الشكر منافٍ للتوحيد، لأن الواجب أن يشكر العبدُ الخالقَ المنعم سبحانه؛ فصارت له صلة بتوحيد الربوبية، من حيث إضافتها إلى غير الله وهو السبب على أنه الفاعل، وله صلة بتوحيد الألوهية من حيث ترك القيام بالشكر الذي هو العبادة .

وأما قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ بين المصنف أن جحد نعمة الله من الكفر، وقد قسم أهل العلم الكفر إلى كفرين : كفر أكبر، وهذا يخرج من الملة وسموه أكبر، الثاني: وهو الكفر الأصغر، وهو الذي لا يخرج من الملة، ولا يعني أنه صغير بل هو من أكبر الذنوب والمعاصي، ولكنه صغير نسبة إلى ما هو أكبر منه المخرج من الملة.

فإن كان هذا الجحود للنعمة جحوداً كلياً بمعنى أن يقول إن هذه النعمة ليست من نعم الله إنما هي من فلان، أو هذه النعمة من جهدي

وعملي ليس لله فيها شيء ولم يقدرها، فهذا كفر مخرج من الملة .

أما النوع الثاني وهو الكفر الأصغر وهو أن يعتقد أن المنعم هو الله سبحانه، ولكن ينسبه إلى غيره فيقول: هذا المطر نزل بسبب النجم الفلاني ولم ينسب إلى الله، فهذا كفر أصغر.

الوقفة الثالثة:

إن شكر الله سبحانه وتعالى هو الأصل العظيم والمقام الرفيع، ولا يكون هذا الشكر إلا بثلاثة أمور:

الأمر الأول: الشكر بالقلب بمعنى أن يعتقد أن هذه النعمة من الله سبحانه وقد قدَّرها الله له ، فلو جاءه مثلاً مال كثير ومكسب لم يكن يتوقعه فيجب عليه أن يشكر الله، وشكره بأن يعتقد أن هذا المال الذي حصل عليه جاءه من الله سبحانه، وإنما كان فلان وفلان سبباً، كما يكون الزواج بين الرجل والمرأة سبباً لحصول الولد، فالولد نعمة سماه الله سبحانه نعمة ولو لم يحصل الزواج ما جاء الولد، لكن هذا الزواج سبب من الأسباب ، فيعتقد المسلم أن هذه النعمة من الله سبحانه، وكل ما يحصل عليه الإنسان في هذه الدنيا هو من نعم الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ (١) .

الأمر الثاني: الشكر باللسان ، فيلهج لسانه بشكر الله سبحانه كما أمر الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (٢) فيظهر الشكر لله سبحانه بالتحميد ونحوه، ومن ذلك ما ورد عن عبدالله بن مغفل أن النبي ﷺ قال: (من قال

(١) سورة النحل، الآية (١٨) .

(٢) سورة الضحى، الآية (١١).

حين يصبح: **اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر، وقال ذلك حين يمسي فقد أدى شكر يومه وليلته)** (١) .

الأمر الثالث: الشكر بالجوارح وهو أن يعمل الإنسان بهذه النعم بطاعة الله سبحانه وتعالى ولا يستعملها فيما يكرهه الله ويبغضه ، فليس من الشكر بل من كفر نعمة الله أن يعطيه الله سبحانه وتعالى مالاً وينفقه في الحرام، فهذا بالإضافة إلى أنه معصية من المعاصي فهو أيضاً كفر بنعمة الله.

فالمسلم مأمور أن يستعمل هذه النعم في طاعة الله سبحانه، لذلك قال ابن القيم: "الشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمه، وثناؤه عليه، وألا يستعملها فيما يكره" .

الوقفة الرابعة :

يجب على المسلم أن يبذل كل الطرق لكي لا يقع في كفران هذه النعم ، وأن يسير إلى الله سبحانه معترفاً بنعمه شاكراً له بها، **ومما يعين على ذلك أمور:**

أولاً: معرفة الموقف من نعم الله سبحانه ، وهو ما أشرنا إليه قبل قليل بإسنادها إلى الله سبحانه وتعالى، وألا يتعامل معها بغير طاعة الله سبحانه .

ثانياً: أن يلهج لسانه بدعاء الله سبحانه بأن يعينه **على** الشكر، ولذلك قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : **(يا معاذ إني أحبك فلا تدعن دبر كل**

---

(١) رواه أبو داود في كتاب : الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح ، برقم (٥٠٧٣)، وصححه ابن حبان برقم (٨٦١).

صلاة أن تقول: **اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)** [(١)] . فلابد من دعاء الله سبحانه لأن الشكر درجة ومرتبة عالية لا يصلها إلا القليل، لذلك قال سبحانه : ﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ [(٢)] .

ثالثاً: أن يعرف مصارف هذه النعم ، وكيف يصرفها ومقتضيات هذا الشكر، فمثلاً: نعمة الولد، فالله سبحانه أعطاك ولداً ولم يعط هذا مثله ، فإن شكرت الله سبحانه كان نعمة عظيمة لك وامتداداً صالحاً لك، وإن كفرت بهذه النعمة كان وبالاً عليك ونقمة، ويكون ذلك بأن تربيه تربية حسنة صالحة على الاعتقاد السليم ، والخلق القويم، وإذا تربى على ذلك أعانك على شكر الله سبحانه، فينفعك هذا الولد في الدنيا والآخرة، ومثال آخر: نعمة الجوارح، فنعمة العين مثلاً هذه نعمة عظيمة فلا تطلق فيما حرمه الله سبحانه وهكذا ...

رابعاً: القراءة في سيرة رسول الله ﷺ الذي كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه من طول القيام ، فتقول له عائشة رضي الله عنها: ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيقول رسول الله ﷺ : **(أفلا أكون عبداً شكوراً)** [(٣)]

---

(١) رواه أبو داود في كتاب: سجود القرآن، باب في الاستغفار ، برقم (١٥٢٢)، ورواه النسائي في كتاب صفة الصلاة ، باب نوع آخر من الدعاء، برقم (١٣٠٣) ، وصححه الألباني في الترغيب ، برقم (١٥٩٦).

(٢) سورة سبأ ، الآية (١٣).

(٣) رواه البخاري في كتاب : التفسير ، باب سورة الفتح ، برقم (٤٥٥٧)، ورواه مسلم في كتاب : صفات المنافقين وأحكامهم، باب : إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة ، برقم (٢٨١٩).

فجعل العمل لطاعة الله شكراً لله تعالى، فإذا قرأ الإنسان سيرة النبيﷺ وسيرة أصحابه وسير أهل العلم، وعرف كيف تعاملوا مع هذه النعم، فهذا يعينه بإذنه سبحانه على شكر الله جل وعلا .

خامساً : أن ينظر في أمور الدنيا إلى من هو أسفل، فقد قال النبي ﷺ: (**انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم**)[1]. كما أنه في أمور الطاعات ينظر إلى من هو أعلا منه لكي ينافسه في الخير ويحثه عليه فيعينه ذلك على شكر الله تعالى.

(١) رواه مسلم في كتاب : الزهد والرقائق ، برقم (٢٩٦٣).

٤١- بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢].

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ: «الأَنْدَادُ: هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ؛ وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: واللهِ، وحَياتِكَ يَا فُلانُ وحَيَاتِي، وتَقُولَ: لَوْلاَ كُلَيْبَةُ هَذَا لأَتَانَا اللُّصوصُ، ولَوْلاَ البَطُّ فِي الدَّارِ لأَتَى اللُّصُوصُ، وقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وشِئْتَ، وقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلاَ اللهُ وفُلانٌ. لا تَجْعَلْ فِيهَا فُلاناً، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ»(١) رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وعَنِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»(٢) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وحَسَّنَهُ، وصَحَّحَهُ الحَاكِمُ.

وقَالَ ابنُ مَسْعُودٍ: «لأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِباً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا»(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (رقم ٢٢٩). وقال الشيخ سليمان في تيسير العزيز الحميد ص٥٨٧: وسنده جيد.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ١٥٣٥) وأحمد (٦٩/٢، ٨٧، ١٢٥) والحاكم (١٨/١، ٥٢) (٢٩٧/٤). قال الترمذي: هذا حديث حسن. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد احتجا بمثل هذا الإسناد، وخرجاه في الكتاب وليس له علة ولم يخرجاه. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٢٠٤).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠٥/٩ رقم ٨٩٠٢). وقال الهيثمي في المجمع (١٨٠/٤): رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح. قال الألباني في السلسلة الضعيفة

وعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لا تَقُولُوا: ما شَاءَ اللهُ وشَاءَ فُلانٌ، ولَكِنْ قُولُوا: ما شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلانٌ**»[1] رَوَاهُ أَبو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ : «أَنَّهُ يُكْرَهُ: أَعُوذُ بِاللهِ وبِكَ، ويَجُوزُ أَن يَقُولَ: بِاللهِ ثُمَّ بِكَ». قَالَ: «ويَقُولُ: لَوْلا اللهُ ثُمَّ فُلانٌ، ولا تَقُولُوا: لَوْلا اللهُ وفُلانٌ».

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(أنداد) : الأنداد جمع ند ، والند لله سبحانه هو المثيل والشبيه والنظير .

(صفاة) : الصفاة هي الصخرة الملساء .

الوقفة الثانية:

أورد المصنف هذا الباب قاصداً به التحذير من الشرك ، وقد أورد في الأبواب المتقدمة شيئاً من ذلك ، ولكنه هنا أراد التحذير من نوع من الشرك يختلف عما أورده سابقاً، **فقد مر بنا أن الشرك نوعان:**

النوع الأول: الشرك الأكبر المخرج من ملة الإسلام ، وصاحبه مخلد

(١/١٣٠): كذلك رواه الطبراني في الكبير (٢/١٧/٣) بسند صحيح، ورجاله رجال الصحيح كما في المجمع (١٧٧/٤).

(١)أخرجه أبو داود (رقم ٤٩٨٠) وأحمد (٣٨٤/٥). والبيهقي في السنن الكبرى (٢١٦/٣). قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٤/١ رقم ١٣٧): وهذا سند صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين، غير عبد الله بن يسار وهو الجهني الكوفي، وهو ثقة، وثقه النسائي وابن حبان وقال الذهبي في مختصر البيهقي (٢/١٤٠/١): وإسناده صالح.

في نار جهنم والعياذ بالله، وفي الدنيا تطلق زوجته المسلمة، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يرث ولا يورث بينه وبين المسلمين ، وهذا النوع سبق الكلام عليه .

النوع الثاني: وهو الشرك الأصغر أو الشرك الخفي وهو الذي ركز عليه المصنف في هذا الباب، وهو في الحقيقة ليس صغيراً بل إن صاحبه على خطر عظيم، وإنما سمي بذلك بالنسبة إلى ما هو أكبر منه وهو الشرك الأكبر ، ولذلك جعلوا ضابط الشرك الأصغر هو ما كان وسيلة وطريقاً للشرك الأكبر، وهذا الباب فيما يتعلق بالشرك الأصغر في الأقوال، وقد أورد المصنف جملة منها للحذر من الوقوع فيها ، وليس لهذا النوع كفارة إلا التوبة وأن يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو على كل شيء قدير، كما ورد في الحديث .

الوقفة الثالثة:

أورد المصنف تفسير ابن عباس لقوله تعالى : ﴿**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً**﴾ وأنه الشرك الأصغر، ويسمى الشرك الخفي إذ قد يجري على الألسنة من حيث لا يشعر الإنسان ، فهو كما شبهه ﷺ بالنملة السوداء التي تدب على صخرة سوداء في ليلة ظلماء من شدة خفائه ودقته، ومثل لهذا الشرك الخفي بعدة أمثلة تجري في حياة الناس من ذلك:

القسم بغير الله تعالى بقوله : وحياتك وحياتي، وحياة فلان، مثل قول بعضهم: والنبي ﷺ .

وقد يقول الشخص : والله وحياتك، وهذا قد وقع في خطأين: الأول

الحلف بغير الله، والثاني : التسوية بين الخالق والمخلوق وهذا منكر عظيم، ولو اعتقده فقد أشرك بالله شركاً أكبر .

وقد يكون الإنسان صاحب تجارة كبيرة فيطلب منه أحدهم مالاً ، فيرد التاجر بأني لا أستطيع ولا أقدر، فيقول السائل: ما شاء الله وشئت يا فلان ، أي إذا شاء الله وشئت أنت حصل كذا ، فكأنه ساوى الله سبحانه وتعالى مع الرجل وهو لا يقصده ، ولكنها زلة لسان ، ومثله قول بعضهم: لولا فلان ما حصل كذا .

وفي هذه الألفاظ اعتماد على غير الله ، والله سبحانه هو مسبب الأسباب ، والواجب ألا يُعطف على لفظ الجلالة بالواو الدالة على المساواة، بل يقال: لولا الله ثم فلان، أو ما شاء الله ثم شئت ، لولا الله أمدنا بفلان ثم سهل لنا فلان لحدث كذا . فهذه عبارات صحيحة لأنه أسند الأمر إلى الله عز وجل في الأصل، وجاء بـ(ثم) الدالة على الترتيب والتراخي، وأنها أقل مرتبة من المعطوف عليه ، وهذا ما دل عليه حديث حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً، والذي أورده المصنف في نهاية هذا الباب.

الوقفة الرابعة :

(الحلف) : هو تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة، وحروف القسم ثلاثة : الباء، والتاء، والواو ، فتقول: والله ، وبالله، وتالله .

والحلف بغير الله نوعان :

النوع الأول: حلف صريح بالأصنام والأوثان وغيرها مما لم يعظمه الشارع ، مثل أن يحلف باللات والعُزى ، فهذا لا خلاف بين العلماء في

كونه شركاً أكبر.

النوع الثاني: الحلف بأشياء عظيمة في الشرع مثل: أن يحلف شخص بالنبي ﷺ فيقول: والنبي ، أو بالكعبة أو يحلف بالأمانة فيقول: وأمانتك، فهذه بلا شك معظمة في الشريعة، ولكن الحلف بها شرك أصغر وهي أخف من النوع الأول، مما ينبغي التنبيه له أن من العلماء من جعل ما يجري على لسان المتكلم من غير إرادة الحلف من لغو اليمين الذي لا يقصد عقده المتكلم، حتى وإن كان الحلف بغير الله كقول بعضهم : بلى والنبي ، وجعل هذا الفعل مكروهاً وليس محرماً ، ولكن الصحيح أنه لا يجوز كما قال به جماهير أهل العلم، ويدل على ذلك النص الصريح الذي أورده المصنف وهو قوله ﷺ : (**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**) وأيضاً ما الداعي لأن يحلف الإنسان بمخلوق ويترك الحلف بالخالق سبحانه وتعالى؟ وجاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**) [(١)] والذي اتفق عليه العلماء جميعاً أن من حلف بغير الله معظماً لهذا المخلوق كتعظيم الرب جل شأنه فقد أشرك شركاً أكبر مخرجاً من الملة.

ولكن بعض العامة عند إرشاده بتحريم الحلف بالنبي أو بحياته أو بالأمانة يقول : لقد تعودنا على هذا أو لا نقصد ، وهي في الحقيقة شرك أصغر غير مخرج من الملة ، وهو كما أخبر ابن عباس كدبيب النملة السوداء

---

(١) رواه البخاري في كتاب : الشهادات ، باب : كيف يستحلف، برقم (٢٥٣٣)، ورواه مسلم في كتاب : الإيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله ، برقم (١٦٤٦) .

في ليلة ظلماء على صخرة سوداء من دقته وخفائه ، والواجب الاعتياد على تركه كما اعتاد على فعله ، إذ أن الاعتياد على الحلف بغير الله قد يوقع في الشرك الأكبر إذا وصل إلى مرحلة تعظيم المحلوف به بالقدر الزائد عن مثله .

ولا يقل قائل: إن الله سبحانه وتعالى قد حلف بشيء من مخلوقاته كقوله تعالى : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ (١) وقوله : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ (٢) وقوله : ﴿وَالْعَصْرِ﴾ (٣) فالله تبارك وتعالى له أن يحلف بما شاء من مخلوقاته، ولكن ليس للمخلوق أن يحلف إلا بالله عز وجل.

الوقفة الخامسة :

أورد المصنف قول ابن مسعود رضي الله عنه : (لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً) وابن مسعود من فقهاء الصحابة وأجلائهم ومن السابقين للإسلام، وهو لا يريد رضي الله عنه أن يهوّن من شأن الحلف بالله كاذباً حاشا وكلا ، ولكن من المعلوم أن الحلف بالله كاذباً أمر محرم وكبيرة من كبائر الذنوب، ويدل عليه حديث عبدالله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: (**الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**)(٤) وهي التي تغمس صاحبها في النار، وأما الحلف بغير الله وإن كان صادقاً فهو شرك بالله، والشرك بالله حتى الأصغر منه أعظم جرماً من الكبيرة ، بدليل أن

---

(١) سورة الشمس ، الآية (١).

(٢) سورة الليل، الآية (١).

(٣) سورة العصر، الآية (١).

(٤) رواه البخاري في كتاب : الأيمان والنذور ، باب : اليمين الغموس ، برقم (٦١٨٢) .

العلماء اتفقوا أن الكبائر التي يقترفها الإنسان على نفسه هي تحت المشيئة إن شاء غفر الله له برحمته سبحانه، وإن شاء عذبه بعدله سبحانه، أما الشرك الأصغر فقد اختلف العلماء في مغفرة الله لمن مات ولم يتب من هذا النوع من الشرك على قولين؛ والصحيح أنه كغيره من الذنوب تحت مشيئة الله تعالى؛ إن شاء غفر له برحمته وإن شاء عذبه وبقدر معصيته .

الوقفة السادسة :

قال النبي ﷺ : (**الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل ، ألا أخبركم بقول يذهب صغاره وكباره؟ أن تقول : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم**)[1] هذا القول وقاية بإذن الله من الوقوع في الشرك الأصغر ، وينبغي على المسلم المحافظة عليه، ولا سيما إن أحس من نفسه شيئاً من ذلك ، ودعاء المسلم لربه من أعظم الوسائل الجالبة لصفاء العقيدة من شائبة الشرك .

والمسلم إذا عظم الله في نفسه وعلم بقدرته سبحانه وأنه أكبر وأعظم من هذه المخلوقات هان عليه أمر الدنيا وما فيها، وقوي تعلقه بالرب سبحانه وتعالى، فدفع عن قلبه الشرك ووقي منه ، ومن تعلق بالله فقد كفاه سبحانه .

وعلى المسلم أن يعتاد على حفظ منطقه من اليمين، كما قال سبحانه:

---

(١) تقدم تخريجه في الباب (٤٥).

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [(١)] هذا في اليمين الصادقة الجائزة ، فكيف باليمين التي بها شرك بالله وتعظيم لغيره ، والواجب المحافظة على اليمين، وإنا لنرى بعض الناس يكثر من اليمين؛ حتى إنه ليحلف لأجل إكرام ضيفه أو دخوله منزله فيقول: والله لتدخلن لبيتي لتشرب القهوة، وقد يتجرأ بعضهم إلى أن يطلق زوجته ويحلف على طلاقها إن لم يدخل ضيفه، وهذا من الجهل والخطأ .

(١) سورة المائدة ، الآية (٨٩).

٤٢- بَابُ ما جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بالحَلِفِ باللّهِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حُلِفَ له بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ، ومَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ، ومَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ»[(١)]، رَوَاهُ ابنُ مَاجَه بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

الوقفة الأولى :

لما تحدث المؤلف - رحمه الله - في الباب السابق عن الحلف بغير الله وأنه شرك بالله كان من المناسب أن يردف هذا الباب بباب آخر يعتبر مكملاً للباب السابق، وهو هذا الباب (باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله) ، وكأن المصنف أراد أن يقول: إن الحلف لا يجوز إلا بالله عز وجل أو باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته، ولا يُحلف بالآباء ومن باب أولى ألا يحلف بالأصنام والأوثان وغيرها؛ فيقول المصنف: من حُلِف له بالله فليقبل هذا الحلف، لأن الاقتناع بالحلف بالله هو من تعظيم الله سبحانه وتعالى، ولا شك بأن له أثراً عظيماً على عقيدة المسلم وارتباطه بربه .

وبناءً على ذلك فمن لم يقنع بالحلف بالله فلا يخلو حينئذ من كونه غير مقتنع بالله سبحانه وتعالى، وهذا الشخص على خطر عظيم إن لم يدرك نفسه ، وإما أن يكون هذا الشخص غير مصدق لهذا الحالف فهو هنا يتهم

---

(١)أخرجه ابن ماجه (رقم ٢١٠١). وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٢٤٧).

الحالف باستهانته بالله وكذبه في اليمين .

الوقفة الثانية :

أورد المصنف حديث عبيدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (**لا تحلفوا بآبائكم، من حُلِف له بالله فليصدق، ومن حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرضَ فليس من الله) وفي هذا الحديث عدة أمور** :

الأمر الأول: النهي عن الحلف بالآباء الذي كان منتشراً في الجاهلية ، وقد ذكر في الباب السابق شيئاً من التفصيل في ذلك، وأنه ينقسم إلى قسمين [1] .

والذي ينبغي للمسلم في هذا المقام ألا يعوّد نفسه على كثرة الحلف بالله ومن باب أولى ألا يحلف بغير الله، والله سبحانه وتعالى أمرنا بحفظ الأيمان.

الأمر الثاني: أن من تعظيم الله سبحانه أنه إذا حلف شخص بالله أن يصدق ، والكذب إذا كان في الأمور العادية محرم، وهو أشد تحريماً إذا كان معه حلف بالله ، فلذلك ذكر النبي ﷺ من الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم المنفق سلعته بالحلف الكاذب ، وذكر ﷺ اليمين الغموس - وهي من الحلف بالله على أمر ماضٍ وهو متعمد يعلم الكذب فيه- فهذه الحلف يغمس صاحبه في الإثم والعياذ بالله، وذلك لأجل استهانته بالحلف بالله كاذباً.

---

(١) ينظر: الوقفة الرابعة من الباب السابق .

الوقفة الثالثة:

أخرج مسلم عن طلحة بن عبيد الله ﷺ أن رجلاً جاء لرسول الله ﷺ يسأله عن الإسلام، فقال له ﷺ : (**خمس صلوات في اليوم والليلة**، فقال : هل علي غيرهن؟ قال: لا إلا أن تطوع، وصيام شهر رمضان، فقال: هل علي غيره؟ قال: **لا إلا أن تطوع، وذكر له ﷺ الزكاة وأخبره بأن ليس عليه غيرها إلا أن يطوع** ، فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص فقال رسول الله ﷺ : **أفلح وأبيه إن صدق**)[١] .

هذا الحديث يشكل على البعض هل لفظ (أفلح وأبيه) حلف بغير الله، والجواب على هذا الإشكال من عدة وجوه:

الأول: أن هذه كلمة جرت بها عادة العرب في كلامهم وهم لا يقصدون حقيقة الحلف .

الثاني: يحتمل أن يكون هذا الحديث قبل النهي عن الحلف بالآباء ، فيكون منسوخاً بحديث الباب .

الثالث: ذكر بعض أهل العلم أنه يحتمل أن يكون هناك تصحيفاً من أحد الرواة، والأصل : (**أفلح والله إن صدق**)، وكانوا قديماً لا يضعون النقط على الأحرف، فحدث تشابه بين كلمة (أبيه) ولفظ الجلالة (الله) إذا حذف النقط السفلى من (أبيه).

وهناك أوجه أخرى ذكرها العلماء للجمع بين هذا الحديث وحديث

---

(١) رواه مسلم في كتاب: الصلوات ، باب: بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام ، برقم (١١).

الباب ولكن هذه أبرزها [١] .

الوقفة الرابعة :

الأصل في تعامل المسلم مع عامة الناس- سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين - أن يتعامل معهم بالصدق والأمانة بعيداً عن الغش والخداع ، والآيات والأحاديث في ذلك أكثر من أن تحصى، ويكفي في ذلك ما جاء في الصحيحين عن عبدالله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**) [٢] .

فعلى المسلم أن يلتزم بالصدق في سائر أحواله وإن كان إقراراً على نفسه بحق أو مال وهذا هو الأصل، ولكن قد يلجأ الناس في تعاملهم وخصوماتهم إلى الحلف بالله لإزالة قرينة من القرائن أو شبهة ألقاها الشيطان، فيحتاج الشخص الآخر أن يؤكد ما ذكره أخوه بهذا الحلف ، فإذا حلف فعليه أن يصدقه .

وإذا اختلت هذه الموازين اختلت تعاملات الناس فيما بينهم ، وهنا الواجب علينا أن نرجع إلى توجيهات الله سبحانه وتعالى وتوجيهات رسوله ﷺ ، وبذلك نزيل كثيراً من الإشكالات التي تجري في تعاملات الناس اليوم.

---

(١) ينظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١/١٤٠)، القول المفيد (٢/٢١٥).

(٢) رواه مسلم في كتاب: الأدب، باب: قوله تعالى: (**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**) برقم (٥٧٤٣).

٤٣- بابُ قَوْلِ: ما شَاءَ اللّهُ وشِئْتَ

عَنْ قُتَيْلَةَ، أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولونَ: ما شَاءَ اللهُ وشِئْتَ، وتَقُولونَ: والكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: «ورَبِّ الكَعْبَةِ، وأَنْ يَقُولوا: ما شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ»(١) رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وصَحَّحَهُ.

ولَهُ أَيْضاً عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : ما شَاءَ اللهُ وشِئْتَ، فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا ! بَلْ ما شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»(٢).

ولابْنِ مَاجه عَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عَائِشَةَ لأُمِّهَا قَالَ: «رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ، قُلْتُ: إِنَّكُمْ لأَنْتُمُ القَوْمُ، لَوْلاَ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ. قَالُوا: وَإِنكم لأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلاَ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: ما شَاءَ اللهُ وشَاءَ مُحَمَّدٌ. ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لأَنْتُمُ القَوْمُ، لَولا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: المَسِيحُ ابنُ اللهِ، قَالُوا: وَإِنكمْ لأَنْتُمُ القَوْمُ، لَوْلاَ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: ما شَاءَ اللهُ

---

(١) أخرجه النسائي برقم (٣٧٧١) والبيهقي (٢١٦/٣) والحاكم (٢٩٧/٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٣٦).

(٢) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٩٨٨) ورقم (١٣٩). والبخاري في الأدب المفرد برقم (٧٨٣) وأحمد (٢١٤/١، ٢٤٤، ٢٨٣، ٣٤٧) وابن ماجه برقم (٢١١٧) والبيهقي (٢١٧/٣) وأبو نعيم في الحلية (٩٩/٤) والخطيب في تاريخه (١٠٥/٨). وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٣٩).

وشَاءَ مُحَمَّدٌ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ. قَالَ: «**هَلْ أَخْبَرْتَ بها أَحَدًا؟**» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ وأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلاً رَأَى رُؤْيَا، أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا. فَلا تَقُولُوا: ما شَاءَ اللهُ وشَاءَ مُحَمَّدٌ، ولَكِنْ قُولُوا: ما شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[1].

الوقفة الأولى :

هذا الباب له علاقة بالأبواب السابقة ، وهي مساواة الخالق سبحانه وتعالى بغيره من الناس والمخلوقات، وهنا المؤلف لم يقل: باب من الشرك قول ما شاء الله وشئت، فلماذا؟

والجواب: لأن الحكم فيها يختلف ، فقد تكون شركاً أكبر إن اعتقد أن المعطوف هو مساوٍ لله سبحانه وتعالى.

وإن اعتقد أن المعطوف ليس بمساوٍ لله سبحانه ، وإنما كان هذا الشخص سبباً من الأسباب فهذا شرك أصغر، ووسيلة للشرك الأكبر، إذ أن هذا المتكلم سوّى بين مشيئة الخالق ومشيئة المخلوق ، بحرف الواو التي تقتضي المساواة والاشتراك ، فلما لم يعتقد هذه المساواة لم تكن اللفظة شركاً أكبر، بل صارت أقل وهي شرك أصغر في القول، على أن ظاهر كلمة:

---

(١)أخرجه ابن ماجه (رقم ٢١١٨) والدارمي برقم (٢٧٠٢) وأحمد (٧٢/٥، ٣٩٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٣٨).

(ما شاء الله وشئت) تعني مشيئتك ومشيئة الله سبحانه على حدّ سواء .

الوقفة الثانية:

حديث قتيبة الذي أورده المصنف يعطينا إشارة إلى أن بعض اليهود لديهم شيء من العلم، ويعرفون الشرك بالله وما هو مخرج من الملة، ولكن من عادتهم التشويش على المسلمين وإلقاء الشُبه عليهم، وذلك حسد من عند أنفسهم ، اليهود أنفسهم أشركوا بالله، فكذبوا فقالوا: عزير ابن الله، وعزير رجل صالح ادّعو أنه ابن لله سبحانه، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. والنبي ﷺ لم ينكر الذي قاله اليهودي وهو أن بعض المسلمين يشركون بالحلف بغير الله فيحلفون بالكعبة ، ويشركون بالمشيئة فيقولون: ما شاء الله وشئت ، وفي هذا درس للمحاورين، وهو أن يعترف الشخص بالحقيقة وإن كانت مرة، ولا تأخذه العزة بالإثم فينفخ فيه الشيطان ، فيحتقره الناس ولا يقبلون منه. ثم إن النبي ﷺ أرشد من وقع بهذا الخطأ أن يقول بدلاً منه : ورب الكعبة أو ما شاء الله ثم شئت ، وهذا الترتيب بـ(ثم) يفيد التعقيب وأن مشيئة العبد بعد مشيئة الله سبحانه، وهي من باب المسبب الذي يهيئه الله سبحانه لينال الإنسان بغيته، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) . وهذه الآية دليل على أن مشيئة العبد داخلة في مشيئة الله سبحانه .

ويستفاد من هذا الحديث أن الموجه سواء أكان والداً أو معلماً أو داعية أن يأتي بالبديل المناسب الذي يفرّج هذه المشكلة ويحلها، ولهذا من

---

(١) سورة التكوير، الآية (٢٩).

الخطأ أن يحذّر الإنسان من شيء ويسكت عن البديل الموجود والشيء الرافع للعنت والمشقة.

الوقفة الثالثة :

الحديث الذي أورده المصنف في الرجل الذي قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فنهاه النبي ﷺ وقال: (**أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده**)، هو تأكيد لما جاء في أول الباب، ولا شك أننا مأمورون بتعظيم النبي ﷺ ومحبته، وتقديم هذه المحبة على جميع المحاب سوى محبة الله سبحانه، بل إنه يجب علينا أن نحب الرسول ﷺ أحب من أنفسنا وأولادنا كما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**)[(١)] .

ولهذا حينما قال عمر رضي الله عنه : إنك يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي قال ﷺ : (**لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك**) فقال عمر: والله إنك أحب إلي من نفسي ، فقال ﷺ : (**الآن يا عمر**)[(٢)] .

ومحبته ﷺ واجب عقدي ، ومن أهم درجات محبته بعد تعظيمه في القلب اتباع ما أمرنا به واجتناب ما نهانا عنه ﷺ .

وهذا الرجل الذي قال هذه اللفظة في الحديث عرف واجب تعظيم النبي ﷺ، ولكنه أخطأ حينما زاد في تعظيمه ﷺ حتى جعله مساوياً في اللفظ

---

(١) رواه البخاري في كتاب: الإيمان ، باب : حب الرسول ﷺ من الإيمان، برقم (١٤)، ورواه مسلم في كتاب: الإيمان ، باب : وجوب محبة الرسول ﷺ من الإيمان ، برقم (٧٠) .

(٢) رواه البخاري في كتاب: الأيمان والنذور، باب : كيف كانت يمين النبي ﷺ ، برقم (٦٢٥٧).

لله عز وجل ، أما ما في قلبه فالله أعلم به، ولا ريب أن هذا غلو في تعظيم النبي ﷺ ، ولذلك أنكره عليه الصلاة والسلام حيث جعله لله نداً، والند : النظير والمثيل والمساوي، والرسول ﷺ أشرف عبد وأكرم رسول ولكنه لا يصل إلى منزلة الله تبارك وتعالى .

وهذا الاستفهام الوارد في الحديث هو للإنكار على هذا الفعل .

وهنا قد يقول قائل : إن النبي ﷺ قال: (**إنما الأعمال بالنيات**) فإذا كانت النية سليمة فلا إشكال . فيقال : النية وحدها لا تكفي دون حسن العمل وصوابه، ومن حسن العمل القول واللفظ ، فلا يمكن أن يشرك الإنسان بالله عز وجل ويقول: قصدي حسن ونيتي سليمة. ولهذا من شرط قبول العمل أن يكون على وفق ما جاء به النبي ﷺ مع إخلاص العمل لله سبحانه .

ولأن الألفاظ يحاسب عليها الإنسان، لم يقل ﷺ لهذا الرجل ماذا تقصد بهذه اللفظة؟ وما نيتك؟ فدلّ على أنهُ ينكر على من قال هذا وإن لم يقصد ظاهر العبارة، ودفعاً لإيهام الترتيب والمساواة بين الخالق والمخلوق.

الوقفة الرابعة:

أورد المصنف حديث الطفيل الذي رأى في المنام رؤيا حق، وجاء فيها أن اليهود يقولون: عزير ابن الله، تعالى الله عما يقولون ، وعزير هو رجل صالح يدعي اليهود كذباً وزوراً وبهتاناً أنه ابن الله عز وجل فأشركوا مع الله، والنصارى يدعون أن المسيح وهو عيسى بن مريم عليه السلام ابنٌ لله كذباً وزوراً وبهتاناً، ولذلك يقولون: إن الله ثالث ثلاثة مع المسيح ومريم، تعالى

الله وتقدس عما يقولون.

ثم ذكر المصنف هذا الحديث بتمامه، وفيه إقرار النبي ﷺ لهذه الرؤيا الصالحة ، وأمرهم أن يعملوا بمقتضاها، وهذا الأمر مبني في الأصل على التشريع الرباني وليس قائماً على هذه الرؤيا فقط ، لأن الرؤيا بعد انقطاع الوحي بموت النبي ﷺ لا يبنى عليها أحكام شرعية .

وفي هذا الحديث قوله ﷺ : (.. **وإنكم قلتم كلمة يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده**) وقد ذكر أهل العلم أن قوله ﷺ : (يمنعني كذا وكذا) أي الحياء بأن أخبركم بشيء لم أؤمر به ولم يوحَ إليّ شيء بشأنه، وإلا ما كان ﷺ ليسكت على خطأ في الأمة ومنكَرٌ قد وقع به بعضهم أمامه، إذ يعتبر سكوته ﷺ عن أي مسألة من المسائل إقراراً بما عمله الناس، ولو كان خطأ لبينه ﷺ أو بينه الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ حتى لو على سبيل العتاب كما في أول سورة عبس، والله أعلم .

الوقفة الخامسة :

الرؤى والأحلام التي تعرض للنائم على تنقسم- في الجملة – إلى ثلاثة أقسام

القسم الأول: الرؤيا، وهي التي تأتي بصورة واضحة ليس فيها تخويف، وليس فيها مزيج من الوقائع والأحداث التي لا أول لها ولا آخر ، فهذه رؤيا حق، وهي التي أخبر عنها النبي ﷺ أنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة؟ وهذا النوع يكون إما بشارة بخير أو تحذيراً من شر،

والواجب على المسلم هنا أن يحمد الله ويشكره أن هيأ له ما يبشره أو يحذره أو ينذره، وعليه ألا يخبر بهذه الرؤيا إلا من يحب ويعرف أن هذا المُخبَر يحب له الخير، وعليه ألا يسأل عنها إلا من يجيد التعبير لأجل ألا يصرفها عن تعبيرها الصحيح . ومثال هذا النوع رؤيا يوسف عليه السلام حينما قال: **(يا أبتِ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين)** (١) .

القسم الثاني : وهي التي يأتي بها تخويف أو ترويع للرائي، كأن يرى في المنام أن يسقط من مكان شاهق ، أو أن سيارة تصدمه أو أن شخصاً يريد قتله ... وهذا النوع لا عبرة به ، وعلى المسلم إن رأى شيئاً من ذلك أن ينقلب إلى جنبه الآخر، وينفث عن يساره ثلاثاً، ويتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شر ما رأى ، وإن زاد على ذلك وقام وتوضأ وصلى ركعتين فحسن، ومن قام بهذه الآداب فلا تضره هذه الرؤيا كما أخبر بذلك النبي ﷺ، وهنا ينبغي للمسلم أن يحرص على تحصين نفسه بالأذكار قبل أن ينام لتندفع عنه الرؤى المنغصة التي يكرهها .

القسم الثالث: وهي الأحلام التي تأتي على شكل قصص لا أول لها ولا آخر ، ويدخل في هذا ما يراه الإنسان في الليل مما عمله في النهار، وهذه أضغاث أحلام لا عبرة بها، وغالباً ما يكون النائم قد أكل أو شرب كثيراً، أو يكون مشغول الذهن في النهار بقضية ما فيراها في الليل، فهي صورة انعكست في الليل من عمل النهار.

هذه الأقسام هي مجمل ما يراه النائم . ولا شك أن تأويل الرؤى علم

---

(١) سورة يوسف، الآية (٤).

مستقل كما أخبرنا سبحانه بذلك فقال: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [(١)] ومن المعلوم أن للفراسة دوراً فيها، وهي تحتاج للممارسة وتركيب أجزاء هذه الرؤيا، ويدخل في ذلك ظروف الزمان والمكان وظروف الشخص نفسه، ولهذا يرى الإنسان الرؤيا ويراها آخر ويختلف التعبير ، لاختلاف حالهما، فرؤيا العالم غير رؤيا التاجر غير رؤيا الأم غير رؤيا الصبي، والرؤيا وقت الحرب غير الرؤيا وقت السلم، ولهذا من الأدب ألا يُسأل عن تعبير الرؤى إلا من عرف عنه التعبير الصحيح أو غلب على الظن ذلك، وليس كل من اشتهر أمره بين الناس صار معبراً.

ومما ينبغي التنبيه له في هذا المقام أن بعض الناس تعلقوا بهذه الرؤى ، بل إن بعضهم علق عليها أحكاماً عامة للأمة، وهذه للأسف فيها شيء من ضعف الإيمان وكيف يكون ذلك ؟!

والجواب عليه أن يقال: كأننا نقول للناس بلسان الحال لا تعملوا فنحن سننتصر يوم كذا، وسيحل العذاب بالعدو يوم كذا، وقد يرقد كثير من المسلمين ويقعدون عن تحصيل أسباب النصر والظفر على الأعداء، اعتماداً على مثل هذه الرؤى التي كثيراً ما تخطئ، وهذا العمل غير صحيح، بل علينا أن نأخذ بأسباب النصر مثلاً فقد أمرنا بذلك .

وهنا على المسلم ألا تشغل الرؤيا وقته فيكون همه السؤال عما رآه في المنام، ويفرح أشد الفرح بالتعبير المبشر ويغتم من ضده ، وكأن هذا التعبير سابق لقدر الله أو أن هذا التعبير واقع لا محالة، بل على المسلم أن يهتم بأمور دينه أولاً، ولا مانع من السؤال عن الرؤى أحياناً ، نسأل الله للجميع الإعانة والتوفيق .

---

(١) سورة يوسف ، الآية (٢١).

٤٤- بَابٌ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللهَ

وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: قَالَ تَعَالَى:﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وأَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ**»(١) وفِي رِوَايةٍ: «**لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ**»(٢).

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(الدهر) : هو الزمان والوقت .

(يؤذيني): أي يلحق الأذى بي، ولا تعني وقوع الضرر على الله تبارك وتعالى.

(يسب): السب هو : الشتم والذم والتقبيح .

(أنا الدهر): أي مدبر ومصرف الدهر .

الوقفة الثانية:

سب الدهر والزمان يأتي على ثلاثة أقسام :

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٢٦) ومسلم (رقم ٢/٢٢٤٦).

(٢) أخرجها مسلم (رقم ٥/٢٢٤٦).

القسم الأول: أن يكون السب لهذا الدهر اعتقاداً بأنه الفاعل للفعل، وأن الزمن هو الذي فعل هذا الشيء، فمثلاً يخسر في صفقة تجارية فيسب الوقت الذي خسر فيه معتقداً أن الزمن هو الفاعل لهذه الخسارة ، فاعتقاد أن الزمن هو المؤثر والمقلب للأمور شرك أكبر مخرج من ملة الإسلام ؛ لأن الله هو الفاعل والمقدر والخالق لهذه الأمور ، ومن اعتقد أن مع الله خالقاً فقد كفر .

القسم الثاني: أن يسب الدهر، ولكن يعتقد أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى ، لكنه سب هذا الزمن لأنه وقع له هذا المكروه في هذا الزمن، فهذا لا يصل إلى درجة الشرك وإنما هو محرم .

القسم الثالث: أن يصف الدهر بأوصاف غير محبوبة ولا طيبة، وقصده بذلك الخبر المجرد دون الاستنقاص؛ كقول القائل: هذا يوم شديد الحر، هذا يوم متعب ، ومنه قول لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [(١)] . فوصف ما وقع من الشدة في هذا اليوم بهذا الوصف، فهذا أمر جائز لا يصل إلى التحريم ، ولكن الأفضل للمسلم ترك ذلك، وأن يعلم أن جميع الأمور في تقدير الله عز وجل.

الوقفة الثالثة:

أورد المصنف - رحمه الله - قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ والقائل هم المشركون، وذلك حينما أمرهم النبي ﷺ باتباعه وبشرهم وأنذرهم، فلم يستجيبوا له

(١) سورة هود، الآية (٧٧).

عليه الصلاة والسلام ، وقالوا هذا القول ، والذي يعني - باعتقادهم - أن من طال عمره فمات فقد مات من الدهر، ومن مات قبل أن يطول عمره فقد أهلكته الهموم والأمراض، ولا ريب أن هذا الاعتقاد خاطئ، وشرك أكبر بالله عز وجل كما مر معنا في النوع الأول؛ لأنهم يعتقدون أن الزمن هو الفاعل والخالق، سواء كان بطوله و ما وقع فيه من المشكلات والمصائب وغيرها .

الوقفة الرابعة :

أورد المصنف حديث أبي هريرة ﷺ ، وهو حديث قدسي ، والمراد بالحديث القدسي ما كان معناه من الله عز وجل ، ولفظه من النبي ﷺ ، ولا يتعبد بتلاوته .

وقد جاء في هذا الحديث قوله تعالى : (**يؤذيني ابن آدم**) أي يُلحق الأذى بي، فالأذية ثابتة لله سبحانه وتعالى، فنحن نثبتها كما أثبتها لنفسه، لكن ما نوعها ؟ هل هي كأذية المخلوق؟ لا شك أنها ليست كأذية المخلوق، بدليل قول الله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [(١)]، فنحن نثبتها ونعلم معناها لكن لا ندري عن كيفية الأذى .

ولكن الذي ينبغي التنبيه له في هذا المقام أن الأذية لله لا تستلزم الضرر على الله تعالى وتقدس ، ولقد جاءت عدة نصوص تثبت هذه الأذية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**﴾ [(٢)] ولهذا -ولله المثل الأعلى- تجد الإنسان قد يتأذى من الصوت

---

(١) سورة الشورى ، الآية (١١).

(٢) سورة الأحزاب ، الآية (٥٧).

القبيح أو الرائحة الكريهة ولكن لا يضره، ولهذا قال تعالى في من حسد من المؤمنين: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلا أَذىً ﴾ [١] والإنسان يتأذى من أشياء كثيرة لا تصل به إلى درجة الضرر .

وقوله في الحديث : (**وأنا الدهر**) أي أنا مدبر الدهر ومصرفه، ولهذا فسره بما بعده فقال: (**أقلب الليل والنهار**) فلذلك أُول بهذا التأويل أنا مدبر الدهر ومصرفه، وتقليب الليل والنهار من الطول إلى القصر ، والحوادث والمقادير كلها تقع في الزمن والدهر، والله سبحانه هو الذي يغيرها .

وأما الرواية الثانية وهي قوله: (**فإن الله هو الدهر**) فهي بالمعنى نفسه، فإن الله هو مدبر الدهر ومصرفه، وهذا نهي عن سب الدهر .

الوقفة الخامسة :

الذي ينبغي على المسلم ألا يعود نفسه على الألفاظ التي يريد منها الإخبار ولا يقصد بها سب الدهر؛ كقوله: هذا يوم تعبت فيه ونحوه، ومن باب الأولى إن كان قصد السب؛ لأن من المعلوم أن الذي يوقع هذه الأشياء هو الله سبحانه وتعالى، ولذلك لا يخلو إما أن يقع على الإنسان ما ظاهره خير أو يكون ظاهره شرّاً، فإن كان ظاهره خيراً فليحمد الله ويشكره ويُسر بذلك، وإن كان ظاهره شراً فلا شك أن الواجب هو الصبر ومن ثم الرضا بما قسمه الله له وقدره ، فقد تقلب المحنة منحة من الله، ويتعامل معها التعامل الإيجابي ؛ **لأن كل حدث في الدنيا له وجهان:**

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١١١).

وجه إيجابي ووجه سلبي .

ولنأخذ على ذلك مثلاً وهو حادث السيارة : فقد يأخذه الإنسان من الوجه السلبي من الخسارة المادية أو حدوث إصابات في جسم هذا الشخص أو ابنه . ولكنه ينسى الوجه الإيجابي فقد يكون هذا الحادث درءاً لشر أكبر أو حادث أعظم ، ولربما كان سبباً ليقظته من غفلته، وسبباً لرجوعه إلى الله بعد أن أخذ العظة والعبرة من هذا الحادث، وقد يكون رفعة لدرجاته بسبب الأجر المترتب على صبره على هذه المصيبة . ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: (**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**)(١) .

---

(١) رواه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير، برقم (٢٩٩٩).

٤٥- بَابُ التَّسَمِّي بقَاضِي القُضَاةِ ونَحْوه

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ: «**إِنَّ أَخْنَعَ اسمٍ عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ، لا مَالِكَ إِلاَّ اللهُ**»(١)، قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ. وفِي رِوَايَةٍ: «**أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وأَخْبَثُهُ**»(٢). قوْلُهُ: «**أَخْنَعُ**» يَعْنِي أَوْضَعَ.

الوقفة الأولى :

أخنع : فسره المؤلف بأنه أوضع اسم عند الله سبحانه .

وقد أورد المصنف هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لأن التسمي بقاضي القضاة أو حاكم الحكام أو ملك الأملاك أو سلطان السلاطين ونحوها هو من باب الشرك بالله سبحانه وتعالى، إذ هو قادح في أصل التوحيد، فقاضي القضاة وحاكم الحكام هو الله تبارك وتعالى، ومن تسمى بذلك فقد جعل نفسه شريكاً مع الله تبارك وتعالى فيما لا يكون إلا لله .

الوقفة الثانية:

أورد المصنف حديث أبي هريرة وهو أصح الدلالة في تحريم التسمي بملك الأملاك ، فلا مالك إلا الله، ولهذا جاء في قراءة لآية الفاتحة: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ (٣) والقراءة الثانية (ملك) فلله الملك والخلق والتدبير،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٠٦) ومسلم (رقم ٢١٤٣).

(٢) أخرجها مسلم (رقم ٢١٤٣/٢١).

(٣) سورة الفاتحة ، الآية (٤).

فلا خالق ولا مدبر ولا مالك إلا الله سبحانه وتعالى، ولذا قال تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ (١) .

وقال سفيان - وهو ابن عيينة - رحمه الله : ومثل شاهان شاه ، وهذه بالفارسية تعني ملك الأملاك .

ولهذا يمكن أن يقال بدل قاضي القضاة ، رئيس القضاة أو مسؤولهم ، وفي ذلك إعطاؤه لقباً لا يختص بالله عز وجل ويدل على المعنى المراد به.

---

(١) سورة الملك، الآية (١).

٤٦- بَابُ احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللّهِ وتَغْيِيرِ الاسْمِ لأَجْلِ ذَلِكَ

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ: أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الحَكَمِ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : «**إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ، وإِلَيْهِ الحُكْمُ**» فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلا الفَرِيقَيْنِ. فَقَالَ: «**مَا أَحْسَنَ هَذَا! فَمَالَكَ مِنَ الوَلَدِ؟**» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، ومُسْلِمٌ، وعَبْدُ اللهِ. قَالَ: «**فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟**» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «**فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ**»[١]، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وغَيْرُهُ.

الوقفة الأولى:

هناك جملة قواعد وأسس في باب أسماء الله تعالى ينبغي لمسلم معرفتها واستحضارها، ومن هذه القواعد ما يلي :

١- أن لله سبحانه وتعالى أسماءً سمى بها نفسه أو سماه بها رسوله ﷺ ، وهذه الأسماء توقيفية بمعنى أن ليس لنا أن نخترع ونحدث اسماً لله سبحانه وتعالى لم يرد في الشرع، بل المرجع هو القرآن وأحاديث النبي ﷺ ، ولهذا قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾[٢] .

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٥٥) والنسائي (٨/٢٢٦ـ ٢٢٧ رقم ٥٣٨٤) والحاكم (١/٢٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٨٤٥).

(٢) سورة الأعراف (الآية:٣٣) .

٢- أن أسماء الله تبارك وتعالى في أعلى درجات الحسن، ولهذا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(١) .

٣- أن أسماء الله سبحانه بعضها معلوم لدينا والبعض الآخر مجهول، ولذلك جاء في حديث ابن مسعود مرفوعاً إلى النبي ﷺ في الدعاء: **(اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك...)**(٢) .

وأما قوله النبي ﷺ **(إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة)**(٣) ، فليس المقصود حصر أسماء الله سبحانه وتعالى في تسعة وتسعين اسماً فقط، بل فيه إثبات التسعة والتسعين اسماً لله، ولا ينفي غير هذا العدد، بل هي أزيد كما في حديث ابن مسعود، والظاهر من قوله ﷺ : **(من أحصاها)** أنه ليس المراد من عدّها بل المراد من عمل بدلالة هذه الأسماء ودعا الله بها، مثل اسم: الغفور، فنقول يا غفور اغفر لي، ثم تعمل بمقتضى هذا الاسم، فتعمل ما يقتضي رحمة الله سبحانه من الأعمال الصالحة، وتترك ما ينافي الرحمة من الشرك والمعاصي.

---

(١) سورة الأعراف (الآية:١٨٠) .

(٢) تقدم تخريجه في الباب رقم (٤١) .

(٣) رواه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: إن لله مائة اسم إلا واحداً، برقم (٦٩٥٧) ورواه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: في أسماء الله وفضل من أحصاها برقم (٢٦٧٧) .

٤- أن أسماء الله سبحانه وتعالى دالة على ذاته وهي دالة أيضاً على صفاته جلّ وعز، فالله سبحانه اسمه الرحمن وهو متصف بالرحمة، وأما المخلوق فاسمه يدل على ذاته فقط، فنقول مثلاً؛ فلان اسمه صالح لكن قد يكون غير صالح، فلا يدل الاسم للمخلوقين على الصفة [1].

الوقفة الثانية :

حديث أبي شريح الذي أورده المصنف يحمل جملة فوائد من أهمها :

١- أنه لا يجوز التسمي بالحكم، ولا باسم من أسماء الله سبحانه الأخرى، وإذا سمي الإنسان به فيجب تغييره .

٢- أن المراد بالحكم المستحق بأن يكون حاكماً على العباد، فلأجل ذلك غيره النبي ﷺ ، فالله هو الحكم .

٣- حسن الإنكار والدعوة، والتغيير، فالنبي ﷺ لم يعنفه بل لاطفه بقوله: (**ما أحسن هذا ؟**) أي الإصلاح بين الناس، ثم بدأ بالاشتراك معه لإعطاء البديل والمخرج لهذه القضية فقال ﷺ له: (**فما لك من الولد؟**) ولم يقل ﷺ : من أكبر أولادك؟ لأن الإنسان حينما يُسأل عن أولاده ويعددهم غالباً ما ينشرح صدره وتنبسط أساريره، ثم يسهل تغيير المنكر، وفي ذلك درس للآباء والأمهات والدعاة والمربين

---

(١) للاستزادة انظر: القواعد المثلي في صفات الله وأسمائه الحسنى، لابن عثيمين .

والمسؤولين في حسن التعامل مع الغلط والجهل ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[١]، وقال سبحانه لموسى وهارون في أمر دعوتهما لفرعون الطاغية: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[٢]، وبلا شك أن الله سبحانه علم أن فرعون لن يؤمن، ولكن ليعلم الدعاة أن هذا هو طريق الدعوة . وقال سبحانه في الآية الأخرى: ﴿ادعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٣]، وهنا نلاحظ كلمة (أحسن) وهي من صيغ التفضيل، وهي تعني أعلى درجات الحسن.

بل إنه ﷺ أمر أمراً عاماً بحسن الخُلق مع الناس حتى في غير أمور الدعوة فقال: (وخالق الناس بخلق حسن)[٤] .

وندب إلى الإصلاح بين الناس، ولهذا أثنى النبي ﷺ على صنيعه وشجعه عليه، وجاء في قوله تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[٥].

الأولى أن يكنى الإنسان باسم الأكبر من أبنائه فهو الأقدم، وقد كان لأبي شريح ابن أصغر اسمه (عبدالله) وكما هو معلوم أنه أحب

---

(١) سورة آل عمران (الآية:١٥٩) .

(٢) سورة طه (الآية:٤٤) .

(٣) سورة النحل (الآية: ١٢٥) .

(٤) رواه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: معاشرة الناس، رقم (١٩٨٧) .

(٥) سورة النساء (الآية: ١١٤) .

الأسماء إلى الله مع عبدالرحمن.

الوقفة الثالثة :

حكم الله سبحانه وتعالى ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: حكم **كوني قدري**، وهذا لا أحد من المخلوقين يستطيع رده، فلا أحد يرد المطر ولا يجلبه إذا منعه الله سبحانه، والله سبحانه حكم باختلاف الليل والنهار وتقلبهما، وحكمه أيضاً سبحانه بموت شخص لا رادَّ له، فهو حكم كوني قدري، كما جاء قول الله تعالى حكاية عن ابن يعقوب: ﴿**فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾[1] .

القسم الثاني: وهو **الحكم الشرعي**، وينقسم الناس فيه إلى قسمين: مؤمن وكافر، فالمؤمن ينفذ حكم الله ويرضى به؛ والكافر من يرد حكم الله سبحانه ولا يعترف به أو يقول: إن حكم غير الله مساوٍ لحكم الله عز وجل، فلو فرضنا أن شخصاً قال: إن الزنا أو الربا أو الخمر حلال، فهذا رد حكم الله، فإن جحده فقد كفر، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾[2] .

الوقفة الرابعة:

لا شك أنه يشكل على بعض الناس حكم تصغير اسم الله، فمثلاً:

---

(١) سورة يوسف (الآية:٨٠) .

(٢) سورة المائدة (الآية: ٤٤) .

عبدالرحمن هل يجوز أن تصغيره إلى رحومي ؟ أو عبدالمجيد إلى مجودي ؟ ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس.

الجواب: أن هذا لا يجوز، لأن التصغير توجه إلى اسم الله سبحانه وتعالى، ولكن ما درج عليه بعض الناس من تسمية عبدالله بعبود أو عبودي فهذا يتجه للعبودية فلا شيء فيه، ولذا لا بأس بتصغير بعض الأسماء التي ليس بها اسم الله مثل تصغير محمد إلى حميد أو محيميد وذلك من باب التمليح .

ومما ينبغي التنبه له أنه ينبغي للوالد أن يختار لولده من الأسماء أحسنها، لأنه عَلَمٌ عليه وسينادى به في الدنيا والآخرة، وإن سمي باسم غير حسن فينبغي أن يغيره كما فعله النبي ﷺ .

*** *** ***

٤٧- بَابُ مَنْ هَزَلَ بشيءٍ فيهِ ذِكْرُ اللهِ أو القرآنِ أو الرّسولِ

وقَولِ اللهِ تَعالى: ﴿ وَلَبِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [التوبة: ٦٥].

عنِ ابنِ عُمَرَ، ومُحمَّدِ بنِ كَعْبٍ، وزيدِ بنِ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةَ، دَخَلَ حَدِيثُ بَعضِهِمْ في بعضٍ: أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ في غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هؤلاءِ أَرْغَبَ بُطُوناً، ولا أَكْذَبَ أَلْسُناً، ولا أَجْبَنَ عِنْدَ اللقاءِ ـ يَعْنِي: رسولَ الله ﷺ وأَصْحَابَهُ القُرَّاءَ ـ. فَقَالَ لهُ عَوْفُ بنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، ولكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لأُخْبِرَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ . فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلى رسولِ اللهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ، فَوَجَدَ القُرآنَ قَدْ سَبَقَهُ. فَجَاءَ ذَلكَ الرَّجُلُ إِلى رسولِ اللهِ ﷺ وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رسولَ اللهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ، نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ. قَالَ ابنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقاً بِنِسْعَةِ نَاقةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ الحِجَارةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ – وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ، فَيَقُولُ لَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ : ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ ﴾ [التوبة: ٦٥ – ٦٦] ما يلتَفِتُ إِلَيْهِ ومَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ(١).

الوقفة الأولى :

شرح مفردات الباب:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦/١٨٢٩ ـ ١٨٣٠).

(الهزل): الاستهزاء وتنقص أمر من الأمور .

(نخوض): نتحدث حديث الركب الذي يتسامرون .

(قراؤنا): هم الرسول الله ﷺ وأصحابه .

(أرغب بطونا): أي أوسع بطوناً، فهم أكثرنا أكلاً.

(أجبن عند اللقاء): أي الخوف والخوار عند القتال.

(نسعة الناقة): الحزام الذي يربط به الحل .

(تنكب): أي تضرب الحجارة قدميه من سرعته إذ أن الناقة أسرع منه، وهو يحاول اللحاق بالرسول ﷺ لأجل الاعتذار .

الوقفة الثانية:

الهزل والاستهزاء والسخرية والتلاعب بالألفاظ ينقسم إلى قسمين.

القسم الأول: الهزل أو الاستهزاء بشيء فيه ذكر الله، ويدخل فيه الأحكام الشرعية وآيات الله سبحانه وتعالى، سواء الآيات الكونية أو الآيات الشرعية أو القرآن الكريم، وكذا الهزل بالنبي ﷺ أو سنته أو بأحد من الأنبياء والمرسلين، فمن هزل بشيء من هذا فهو كافر كفراً أكبر مخرجاً من ملة الإسلام، ودليل ذلك النصوص التي أوردها المصنف.

القسم الثاني: الهزل أو الاستهزاء بالناس، فهذا لا يصل إلى الكفر ولكنه كبيرة من كبائر الذنوب، كالسخرية من الأعور أو الأعرج أو قصير القامة وطويلها ونحو ذلك من الصفات، ودليل التحريم أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أشارت إلى إحدى زوجات النبي ﷺ بأنها قصيرة،

فغضب النبي ﷺ وقال: (**إنك قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته**)[١]، فهذه كلمة واحدة كان فيها استنقاص لو خلطت بماء البحر لغيرته من عظمها، فما بالك بمن تكون مجالسهم جلّها غمز ولمز وهمز وغيبة ونميمة .

وهذا القسم لم يتحدث عنه المصنف، بل تحدث عن القسم الأول .

الوقفة الثالثة:

أورد المصنف قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ**﴾[٢]، ذكر في سبب نزولها أنها كانت في غزوة تبوك في الشهر السابع من السنة التاسعة من الهجرة، وقد كان الجو شديد الحرارة، والثمار قد أينعت وطاب قطافها، فكان الأمر شاقاً على الناس، وأشعل المنافقون شعلتهم لتثبيط المسلمين عن الخروج للقتال مع رسول الله ﷺ، وهذه حالة المنافقين إذا اشتد الضيق بالأمة يستغلون الضعف الذي فيها ليفعلوا ما يريدونه، وقد كانوا يقولون أنترك النساء والذرية والثمار ونذهب لعدو بعيد في تبوك وفي هذا الحر ؟ وما علموا أن الله أكبر وأقوى، ولاسيما وأن الذي يناديهم للخروج هو النبي ﷺ الموحى إليه من ربه سبحانه، ويعلمون أن الوحي ينزل عليه بذلك، ومع هذا فلم يردعهم هذا الأمر عن تثبيط المسلمين، ولكن هذا لا يعني أنه لا يذهب بعض المنافقين مع رسول الله ﷺ للتخذيل، بل قد ذهبوا معه كما هي عادة

---

(١) رواه الترمذي في كتاب: صفة القيامة الرقائق والورع، برقم (٢٥٠٢)، ورواه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في الغيبة، برقم (٤٨٧٥) .

(٢) سورة التوبة (الآية:٦٦) .

المنافقين في إقامة الشعائر والعبادات الظاهرة؛ كما قال سبحانه عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إلا قَلِيلاً﴾[١] .

وكان سبب هذه الغزوة أن النبي ﷺ لما سمع أن الروم مع مجموعة من العرب النصارى قد عزموا أن يغزوا النبي ﷺ، فأراد النبي ﷺ أن يدرأ شرهم، فأشار للناس أن استعدو لغزو الروم، فلما علم الروم بذلك توقفوا عن الغزو، فلم يحصل قتال، وفي طريق العودة إلى المدينة وأثناء جلوسهم للراحة كعادة المسافرين في المسامرة، أخذ المنافقون في الاستهزاء بأهل الإيمان والسخرية بالرسول ﷺ وبالقرآن وتعاليم الإسلام، فقالوا: ما رأينا مثل قرائنا.... الخ، والمقصود بالقراء هنا العلماء ولكن من رأس العلماء ؟ هو علم العلماء رسول الله ﷺ، ثم وصفوهم بأوصاف سيئة من الأكل الكثير والكذب في الأخبار والجبن والخوف عند القتال .

ثم إن الصحابي الجليل عوف بن مالك أدرك فداحة وخطر ما قاله هذا المنافق، فذهب يخبر رسول الله ﷺ بما قاله فوجد أن الوحي قد سبقه .

وهنا جاء المنافق إلى النبي ﷺ يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، والرسول ﷺ لا يرد عليه إلا بما أنزل ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، بمعنى هنا انتهى عندكم كل شيء من الكلام إلا الاستهزاء بالله ورسوله ﷺ ؟!!

الوقفة الرابعة:

الاستهزاء بالله تبارك وتعالى أو برسوله ﷺ لا يختلف فيه اثنان أنه كفر مخرج من الملة، ولكن لابد أن يعلم أن من استهزأ بآية من كتاب الله، أو

---

(١) سورة النساء (الآية: ١٤٣) .

بشيء من تعاليم الإسلام وأوامره وشعائره؛ كالصلاة وإطلاق اللحية أو تقصير الثياب أو الحجاب للمرأة أن هذا قد يصل به إلى الكفر، لأن هذه الأمور قد شرعها الله من فوق سبع سماوات، ولو قيل له: إنك تستهزأ بالدين قال: إنما أنا أتحدث حديث الركب، ولكن يقال: إن مساحة الكلام والدعابة كبيرة جداً فاذهب لغير هذا الكلام.

وليعلم أن الاستهزاء ليس محصوراً بالكلام فقط، فقد يكون بالإشارة، وقد يكون شعراً منظوماً، أو نثراً مكتوباً، أو مسرحية، أو مسلسلاً متلفزاً، أو رسومات ونحوها.

ومما يدل على فضاعة الاستهزاء بالله ورسوله أن العلماء اختلفوا هل تقبل توبة من سب الله ورسوله ﷺ في الدنيا؟ والصحيح أن توبته تقبل ولا يقتل لذلك إن ظهرت توبته.

وهنا يلتبس على بعض الناس؛ فقد يقول: إن فلاناً رجل طيب خلقه يُصلي معنا فكيف يقع في مثل هذا الأمر ؟ فليعلم أن الشيطان يسهل على الإنسان أمر الاستهزاء فيقع له من حيث لا يشعر، فإن قيل له: إنك تسخر بالله قال: أعوذ بالله، ولكن السخرية بالشرع هي سخرية بالله، فمن أنزل هذا الشرع؟ إنه الله سبحانه وتعالى، ولذا جاءت الآية قوية وصريحة في قضية الاستنكار: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ﴾، ولهذا على الإنسان أن يحاسب نفسه وليتذكر قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1]، وقوله تعالى:

---

(١) سورة ق (الآية: ١٨).

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[١] .

الوقفة الخامسة:

إن ما حصل من الصحابي الجليل عوف بن مالك ﷺ هو من إنكار المنكر، والإنكار كما هو معلوم على درجات، فأعلاه التغيير باليد، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، ومن الإنكار عدم الجلوس في المكان، ولكن إذا كان لا يستطيع الإنكار ولا الانصراف فله الإنكار بقلبه.

قال عليه الصلاة والسلام : (**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان**)[٢] ولا شك أن الاستهزاء بالله تعالى أو برسوله ﷺ أو بما جاء عنهما من أعظم المنكرات.

---

(١) سورة الزلزلة (الآيتان:٧، ٨) .

(٢) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد، برقم (٧٠) .

٤٨- بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠﴾ [فصلت: ٥٠].

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي وأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ». وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: «يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي». وقولُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]. قالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المكَاسِبِ». وقَالَ آخرونَ: «عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ». وهَذَا مَعْنَى قَولِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ».

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللهَ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكاً ، فَأَتَى الأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ . قَالَ : فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، فَأُعْطِيَ لَوْناً حَسَناً وَجِلْداً حَسَناً قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ ، أَوْ الْبَقَرُ ، «شَكَّ إِسحاق» فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ : بَارَكَ اللهَ لَكَ فِيهَا قَالَ: فَأَتَى الأَقْرَعَ ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ، فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعَراً حَسَناً . فَقَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ: الْبَقَرُ أَو الإِبِلُ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً، قَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

قَالَ فَأَتَى الأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللهَ إِلَيَّ

بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ. قَالَ: فَمَسَحَهُ ، فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ .قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِداً، فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا. فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ .

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي ، فَلا بَلاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ، بَعِيراً أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي . فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ . فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيراً، فَأَعْطَاكَ اللهُ عزَّ وَجلَّ المَالَ؟فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ . فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللهَ إِلَى مَا كُنْتَ.

قال: ثم إنه أَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وهيئته ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا . فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ .

قال: وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وهيئته ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلا بَلاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلاَّ بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي . فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهَ إِلَيَّ بَصَرِي فَخُذْ مَا شِئْتَ ، وَدَعْ مَا شِئْتَ . فواللهِلا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئاً أَخَذْتَهُ للهِ. فَقَالَ : أَمْسِكْ مَالَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ الله عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»[١] أخرجاه.

---

(١)أخرجه البخاري (رقم ٣٤٦٤) ومسلم (رقم ٢٩٦٤).

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(يبتليهم) : أي يختبرهم .

(أبرص): البرص هو بياض يظهر على جلد الإنسان، إذ تزول الطبقة الأولى، وتأتي الطبقة التي تليها .

(أقرع) : من ليس له شعر في رأسه .

(ناقة عشراء) : أي حامل في شهرها العاشر، فهي قريبة الولادة .

(كابراً عن كابر): أي ورثته أباً عن أب، وقيل شريفاً عن شريف.

(لا أجهدك): أي لا أشق عليك برد شيء تأخذه من مالي.

الوقفة الثانية:

صدر المصنف - رحمه الله - هذا الباب بالآية الكريمة وهي قول الحق عز وجل : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أمر هام وهو أن شكر نعمة الله عز وجل والاعتراف بها وعدم كفرانها ونكرانها يؤدي إلى زيادتها ، ولذلك جاء في الآية الأخرى قوله سبحانه : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(١) .

وهذه النعم الواجبة الشكر تتنوع في جسد الإنسان من سمع وبصر ويد ورجل وقوة وصحة ونشاط في البدن، وتكون في الفكر والعقل، وتكون

(١) سورة إبراهيم ، الآية (٧).

أيضاً في المال والجاه والأبناء، ونعمة تسخير بعض الناس لبعضهم ، ونعمة العمل والإنتاج . هذه كلها من رحمة الله سبحانه وتعالى بالإنسان .

وهنا نجد التابعي الجليل مجاهد بن جبر رحمه الله فسر هذه الآية بأن ينكر هذا العبد نعمة الله عليه ويقول: إن ما حصل لي من نعمة فهو بكسبي وبعلمي وبطريقة تحصيله، وهذه النعم هي حق لي، وكلام ابن عباس ﵄ في تفسير الآية قريب منه يكمل بعضهما الآخر، ولذلك من قال بهذا القول فقد كفر، ولهذا قال سبحانه تكملة لهذه الآية : ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (١) .

الوقفة الثالثة:

قصة الثلاثة من بني إسرائيل التي جاءت في حديث أبي هريرة ﵁ تفيد أن كفران النعمة سبب لذهابها، فهذا الأقرع والأبرص لما نسبوا نعمة المال لآبائهم ، وجحدوا نعمة الله عليهم رجع إليهم المرض ومحق المال والعياذ بالله، أما الأعمى الذي شكر نعمة الله عليه فهذا بارك الله له في ماله واستمر في صحته وعافيته، ومن أهم الفوائد المستنبطة من هذا الحديث أيضاً:

- أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا ما يخالفه .
- أن الملائكة يتشكلون حتى على صورة بني آدم.
- جواز أن يدعو الإنسان لنفسه بالشفاء من المرض الذي أصابه،

---

(١) سورة فصلت ، الآية (٥٠).

ولا يكون هذا من الاعتراض على قدر الله.

- فضيلة الزهد في الدنيا، وأنها تجر لصاحبها النعيم والخير في الدارين ، فالأعمى لما زهد بارك الله له في الدنيا ورضي عنه في الآخرة [١] .

الوقفة الرابعة:

حكم كفران النعمة؟ فيه تفصيل على النحو الآتي:

قد يكون كفران نعمة الله على العبد قادحاً في أصل التوحيد ومخرجاً من الملة ، وقد يكون قادحاً في كمال التوحيد ولا يخرج من الملة، فإن كان كفران النعمة بإنكار ما أسداه الله سبحانه وتعالى لهذا الشخص أو بأن يشرك مع الله غيره فيقول : هذه النعمة ليست من الله وحده بل هي أيضاً من الولي الفلاني أو من القبر الفلاني أو هي من الشخص الفلاني والله سبحانه لا إرادة له في ذلك، فكل ذلك لا شك أنه كفر مخرج من الملة ويقدح في أصل التوحيد .

أما إن كان يقول : إن هذه النعمة من فلان، ولكن لا يقصد أن فلاناً صاحب هذه النعمة الأساسي، وإنما يقصد أنه هو الذي عمل وكد وجد وتكلم ثم أتت هذه النعمة دون أن يسندها إلى الله سبحانه وتعالى فهذا نوع من كفران النعمة ولكن لا يخرج عن الإسلام، وهذا خطره كبير لأنه وسيلة من الوسائل المفضية إلى الشرك الأكبر بالله عز وجل بعد مضي فترة من الزمن فينسى الإنسان ربه ، ولذلك كان قول القائل في النعمة : إنما حصلت

---

(١) ينظر: القول المفيد (٢/٢٩٣).

عليها بذكائي وعبقريتي، أو أعرف من أين أدخل ومن أين أخرج ، من كفران النعمة؛ وإن كان لا يخرج من الإسلام إن اعتقد أن المنعم هو الله، ولكن قد يصل به الغرور إلى جحود نعمة الله تبارك وتعالى وبذلك يخرج من الإسلام، كما قال قارون : ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨] وقد وصل بذلك إلى درجة كبيرة من الغرور والتكبر على الله عز وجل .

الوقفة الخامسة:

شكر الله تعالى على النعمة لابد أن يكون قائماً على أركان ثلاثة :

الركن الأول: أن يكون الشكر بالقلب، وذلك بأن يعترف بقلبه يقيناً أن هذه النعمة من الله سبحانه، فلم يستحقها بذكائه ولا بعبقريته ولا بحيلته ولا بشيء من هذا؛ كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾(١) .

الركن الثاني: أن يكون الشكر باللسان، وذلك بأن يحمد الله عز وجل بلسانه ، ولهذا قال سبحانه : ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾(٢) .

الركن الثالث: إشغال هذه النعمة بطاعة الله سبحانه، بأن تشترك الجوارح في شكر النعمة فلا تستعمل في محرم ، بل تسخر لطاعة المنعم عز وجل، فمن كفر النعمة أن ترى بعينك حراماً، أو تتكلم بلسانك في محرم، أو تمشي برجلك إلى محرم، أو أن تستخدم مالك في محرم ونحو ذلك.

---

(١) سورة النحل، الآية (٥٣).

(٢) سورة الضحى ، الآية (١١).

الوقفة السادسة :

كثيراً ما نشاهد اليوم مظاهر لكفران النعمة وعدم الاكتراث بها، ومن ذلك الإسراف في ولائم الأعراس والمناسبات، فتجد عدداً كبيراً من الذبائح تذبح ولا تؤكل ومن ثم ترمى في أماكن النفايات . ومن مظاهر الإسراف أيضاً الإسراف في الألبسة ولا سيما ملابس النساء في الحفلات فتدفع فيها الأموال الباهظة ، وتكون باباً من أبواب التباهي والتفاخر والتمايز بين الناس .

ومن ذلك أيضاً الإسراف في المنازل والمراكب في أمور لا داعي لها، وبأموال كثيرة ، ولو صرفت هذه الأموال في وجوه البر لكان أولى.

وهنا ينبغي أن يكون وجهاء الناس هم القدوة في ذلك، ولو قلصت التكاليف وعمل بالمبلغ المفترض إنفاقه في هذه الوليمة لمشروع بر للعائلة كلها لكان خيراً بلا شك .

وهنا ينبغي أن يُفَعّل دور الجمعيات الخيرية التي تستقبل فائض الطعام واللباس لتوزعه على الفقراء، وأن يوعى الناس بذلك حتى تشكر النعم فتدوم، نسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

الوقفة السابعة :

بعض أخطاء الناس في هذا الباب:

يقول بعض عامة الناس - هداهم الله - في معرض حديثهم عن النعمة أو النقمة والبلاء الذي يحل بشخص من الأشخاص : إن فلاناً يستاهل كذا ، أو لا يستاهل ... وعند التأمل بهذا القول نجد كأنهم احتجوا على الله تبارك وتعالى بأن أعطى فلاناً ولم يعطِ الآخر، ومن يقول هذا الكلام لا يستشعر

بأن هذه الكلمة فيها خطورة عظيمة، فالمفسرون قالوا عن قول قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي: على علم من الله أني له أهل، نسأل الله للجميع السلامة والعافية.

وبعض الناس يريد ألا يخبر الآخرين بما عنده من النعم التي أنعم الله بها عليه فيتجه إلى إنكارها، وهذا خطأ كبير.

والبعض الآخر راتبه الشهري جيد وإن كان آخرون أفضل منه ، فإذا سئل عن هذا أظهر علامات التأفف والضجر والتعب النفسي بأن فلاناً أفضل منه، وأن الجهة الفلانية تعطى أكثر راتباً، إلى غير ذلك مما يشعر أن الشخص لم يقتنع بما أعطاه الله سبحانه، وهذا يكون لديه نسبة قد تقل أو تكثر من جحود نعمة الله سبحانه ، والنبي ﷺ يرشد لعلاج مثل ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام : (**انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله**) (١) وذلك في الأمور الدنيوية، فَلِكَي تعمق شكرك لله تأمل هذا الحديث جيداً ، فإذا كان مرتبك خمسة آلاف ريال فلا تنظر إلى من راتبه عشرة وإنما تنظر لمن راتبه ألفا ريال، وهكذا انظر إلى من هو أدنى منك سكناً وصحة ونعمة. فيعينك ذلك على شكر الله تعالى.

---

(١) رواه مسلم في كتاب : الزهد والرقائق ، برقم (٢٩٦٣).

٤٩- بَابُ قَوْلِ اللّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٩٠﴾ الآية [الأعراف: ١٩٠].

قَالَ ابنُ حَزْمٍ: «اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ: كَعَبْدِ عَمْرٍو، وعَبْدِ الكَعْبَةِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدِ المُطَّلِبِ».

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ - فِي معنى الآيَةِ قَالَ: «لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجتكُمَا مِنَ الجَنَّةِ لَتُطِيعَنِي أَوْ لأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أَيِّلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكِ فَيَشُقُّهُ، ولأَفْعَلَنَّ ولأَفْعَلَنَّ - يُخَوِّفُهُمَا - سَمِّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيْتاً، ثُمَّ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا، فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيْتاً، ثُمَّ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾»[١] رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ.

ولَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، ولَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ»[٢].

ولَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ قَالَ: «أَشْفَقَا أَلاَّ يَكُونَ إِنْسَاناً»[٣]، وذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الحَسَنِ وسَعِيدٍ وغَيْرِهِمَا.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/١٦٣٤).
(٢) المرجع السابق (٥/١٦٣٤).
(٣) المرجع السابق (٥/١٦٣٤).

الوقفة الأولى :

سبب نزول قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾... وهو مجيء الشيطان إلى آدم وحواء عندما حملت بجنين فقال: سمّياه عبدالحارث، فلم يطيعاه، فوسوس لهما إنه قد يصيبه ما يصيبه. كما هي الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، ثم لما حملت مرة أخرى طغى عليهما حُب الولد فسمَّياه عبدالحارث: فنزل قوله سبحانه وتعالى بهذه الآية .

وهناك قول آخر: أن هذه الآية ليست في آدم ولا حواء وإنما هي في المشركين؛ لأنهم يصرفون النعم لغير الله سبحانه وتعالى، فيشركون مع الله جل وعز، ومن مواقع الشرك التسمية .

- ولذلك أراد المصنف هنا أن يبين بأن الشرك كما يكون في الحقيقة في التوجه لغير الله سبحانه وتعالى في أي نوع من أنواع الشرك يكون كذلك بالأقوال والتسمية، فلو سمي إنسان عبد العزى أو عبداللات فيثبت العبودية إلى هذه الأصنام والأوثان وغيرها، ومن ذلك نسبة العبودية إلى الأشخاص، فهذا نوع من الشرك بالله سبحانه وتعالى، وهذا الشرك بالله جل وعلا إما أن يكون شركاً أكبر إذا اعتقد عبودية هذا الإنسان لذلك المعبود، فهذا شرك صريح في عبادة الله جل وعلا ومخرج من الملة ومحبط للأعمال.
- أما إذا كان في التسمية فقط دون أن يكون معتقداً في عبوديته له وإنما مجرد اسم، فهذا شرك في الطاعة بمعنى أنه شرك أصغر .

فلذلك كان أفضل الأسماء ما تشرف للعبودية لله؛ كعبد الله وعبدالرحمن وعبدالعزيز وعبدالحق وعبدالقيوم ونحو ذلك، فهذه فيها عبودية لله عز وجل، وجاء في الحديث أن أفضل الأسماء عبدالله وعبدالرحمن، فلا تجوز العبودية إلا لله سبحانه وتعالى، ويتشرف هذا العبد بالعبودية لله جل علا الذي شرّف بها نبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾(١) . في أعظم مهمة شرفه الله تعالى بعبوديته جل وعلا، فإذا وصفت هذه العبودية في الاسم لغير الله فلا تجوز، وهذه ما عبر عنها بشرك الطاعة. ومن هنا اتفق أهل العلم على تحريم كل اسم معبد لغير الله حتى ولو كان عظيما كالنبي ﷺ أو بصفته أو من الملائكة كأن تقول عبدالنبي، أو عبدالرسول أو عبدجبريل فضلاً أن تكون هذه العبودية لأصنام فهذه لا تجوز .

الوقفة الثانية :

الفرق بين شرك العبودية وشرك الطاعة:

أهل العلم يفرقون بينهم:

١- شرك العبودية: أن تعبد غير الله جل وعلا .

٢- شرك الطاعة: بأن تعمل عملاً لغير لله جل وعلا .

ويمثلون في هذا (شرك الطاعة): أن يأمر شخصٌ آخرَ بمعصية الله عز وجل فينفذ هذا المأمور تلك المعصية، هذا لا يعني أنه عبد ذلك الشخص

---

(١) سورة الإسراء (الآية:١) .

فأشرك شرك الطاعة، فإذا وقف عند هذا الحد لا يخرج من الملة وإنما يبقى معصية كبيرة وذنباً عظيماً يستحق صاحبه العقوبة .

الوقفة الثالثة:

ذكر أهل العلم أن العمل لا يمكن أن يقبل وأن يكون حسناً إلا إذا اجتمع فيه شرطان:

الأول: أن يكون المقصود به وجه الله سبحانه وتعالى.

الثاني: أن يكون على منهج رسول الله ﷺ . قال تعالى: ﴿**خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾ قال أهل العلم : أحسنه: أخلصه وأصوبه.

٥٠- بَابُ قَوْلِ اللّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]

ذَكَرَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ «يُشْرِكُونَ».
وعنه: سَمَّوا اللاَّتَ مِنَ الإلهِ، والعُزَّى مِنَ العَزِيزِ.
وَعَنِ الأَعْمَشِ: «يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا».

الوقفة الأولى :

شرح مفردات الباب :

(يلحدون): يشركون، أو يدخلون فيها ما ليس منها .

والإلحاد في أسماء الله: الميل بها عما يجب فيها .

وهذا الباب يمكن أن يسمى باب الأسماء والصفات، وأورده المصنف ليبين أن أسماء الله كلها بالغة في الحسن، ويجب إثبات كل اسم ورد في الكتاب أو السنة وكذا كل صفة لله سبحانه الذي أثبتها لنفسه أو أثبتها له نبيه ﷺ، فنثبتها من غير تحريف ولا تكييف و لا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل إثباتاً يليق به سبحانه لا يشابهه أحد من المخلوقين .

الوقفة الثانية :

الإلحاد في أسماء الله جل وعلا يكون في عدة أمور:

الأول: إنكارها. فمن أنكرها فقد ألحد، والإنكار بها يؤدي إلى الكفر، العياذ بالله.

الثاني: إنكار ما دلت عليه الأسماء من الصفات؛ لأن كل اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى يدل على صفة .

الثالث: أن يشبه الإنسان أسماء الله جل وعلا بأسماء المخلوقين، وكذلك أن يشبه صفاته بصفات المخلوقين .

الوقفة الثالثة:

سبق معنا شيء من التفصيل فيما يتعلق بأسماء الله تعالى وصفاته في باب : من أنكر شيئاً من أسماء الله وصفاته، فليرجع إليه.

٥١- بَابٌ لا يُقَالُ: السَّلامُ عَلَى اللهِ

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلاةِ قُلْنَا: السَّلامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلامُ عَلَى فُلانٍ وَفُلاَنٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا تَقُولُوا: السَّلامُ عَلَى اللهِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلامُ**»(١).

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(السلام): له عدة معانٍ:

١- التحية كما يقال: سلَّم على فلان أي حَيَّاه بالسلام.

٢- الدعاء بالسلامة من النقص والآفات كقولك: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

٣- السلام اسم من أسماء الله ﴿**الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ**﴾(٢).

(كنا مع النبي ﷺ في الصلاة): يعني في صلاة الفريضة؛ لأن الصحابة رضوان الله عليهم إذا كانوا مع النبي ﷺ في الصلاة فالغالب أنها تكون صلاة فريضة.

(السلام على فلان وفلان): يعني جبريل وميكائيل.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٨٣٥) ومسلم (رقم ٤٠٢).

(٢) سورة الحشر (الآية:٢٣).

الوقفة الثانية:

لما ذكر المصنف رحمه الله في الباب السابق أسماء الله الحسنى، فهنا قد يرد على الإنسان أنه قد يعتقد أنه يمكن أن يسلم على الله عز وجل، وظاهر اللفظ هنا أنه يدعو لله بالسلامة من النقص والعيب، فلذا جيء بهذا الباب .

الوقفة الثالثة:

النهي في هذا الحديث الذي ذكره المصنف نهي تحريم؛ لأن قول القائل: السلام على الله، ظاهره الدعاء لله بالسلامة من النقص والعيب، تعالى الله عن ذلك، فهو الموصوف بالكمال لا يلحقه نقص ولا عيب؛ فإنه سبحانه هو السلام لا يحتاج إلى سلام، فالعبد لا يدعو له بالسلامة، وإنما يذكر ربه سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، فإذا أراد أن يدعو الله باسم السلام فيقول كما جاء في الحديث (**اللهم أنت السلام ومنك السلام**)[١].

(١) رواه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة باب: استحباب الذكر بعد الصلاة، برقم (١٣٥) .

٥٢- بَابُ قَوْلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، فَإِنَّ اللهَ لا مُكْرِهَ لَهُ**»[(١)]. ولِمُسْلِمٍ: «**ولْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لايَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**»[(٢)].

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(اللهم) معناه يا الله، ولكن لكثرة الاستعمال حذفت ياء النداء وعوَّض عنها بالميم.

(المغفرة): ستر الذنوب مع التجاوز عنه.

(ليعزم المسألة) أي لا يكون في دعائه تردد بل يعزم بدون تردد ولا تعليق.

(لا مكره له): أي لا أحد يكرهه على ما يريد فيمنعه منه، أو مالا يريد فيلزمه بفعله.

الوقفة الثانية:

الدعاء من مقتضيات التوحيد وألا يدعو إلا الله، ومن أهم الدعاء الدعاء بالمغفرة؛ لأن المسلم قد يرتكب ذنوباً وأخطاء في حق ربه عز وجل، وفي حق الآدميين من غيبة ونميمة وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٣٣٩) ومسلم (رقم ٩/٢٦٧٩).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٨/٢٦٧٩).

ومما يبين لنا أهمية الدعاء بالمغفرة أنه شرع في مواضع عدة، ومن أهمها في الصلاة والحج وفي كل عبادة من العبادات، بل شرع الدعاء بها مطلقاً، فالنبي ﷺ وهو الذي غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان يستغفر الله في المجلس الواحد أكثر من مائة مرة؛ كما روى ذلك عنه ابن عمر وعائشة رضي الله عنهما في أحاديث كثيرة [(١)] .

والواجب على المسلم عند الدعاء أن يعزم المسألة، ويلح ويكرر الدعاء، ولا يستعجل الإجابة، فالدعاء بحد ذاته عبادة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾[(٢)]، فسمى الدعاء عبادة ، وجاء في الحديث (**الدعاء هو العبادة**)[(٣)] .

والمسلم عليه أن يعظم الرغبة كما جاء في رواية مسلم (**وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**). وقال ﷺ: (**وإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس**)[(٤)] .

---

(١) رواه أبو داود في كتاب: سجود القرآن، باب: في الاستغفار، برقم (١٥١٦)، ورواه الترمذي في كتاب: الدعوات باب: ما يقول: إذا قام من المجلس برقم (٣٤٣٤) .

(٢) سورة غافر (الآية: ٦٠) .

(٣) رواه أبو داود في كتاب: سجود القرآن، باب: الدعاء برقم (١٤٧٩)، ورواه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: فضل الدعاء، برقم (٣٣٧٢)، وصححه الألباني في الترغيب، برقم (١٦٢٧) .

(٤) رواه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله، برقم (٢٧٩٠) .

الوقفة الثالثة :

(لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت) .

والنهي في الحديث نهي تحريم، وهو تعليق الدعاء عموماً بالمشيئة أو بما يدل على معناه كالإرادة ونحوها، **والمحظور في هذا من ثلاثة وجوه :**

١- أنه يشعر أن الله له مكره على الشيء، وأن وراءه من يستطيع أن يمنعه، فكأنه يقول: أنا لا أكرهك إن شئت فاغفر وإن شئت فلا تغفر .

٢- أن قول: إن شئت؛ كأنه يرى أن هذا أمر عظيم على الله فقد لا يشاؤه لكونه عظيماً عنده .

٣- يشعر أن الداعي مستغنٍ عن الله فكأنه يقول: إن شئت فافعل أو لا فأنا لا يهمني[1].

فالواجب على المسلم أن يجزم بالدعاء فيقول: اللهم اغفر لي اللهم ارحمني، ولا يعلّق الدعاء، هذا والله أعلم .

الوقفة الرابعة:

للأسف تجد كثيراً من الناس إذا أراد الدعاء لأحد قال: الله يوفقك إن شاء الله يدخلك الجنة إن شاء الله، وكما سبق معنا أن هذا منهي عنه، فعلى المسلم أن يعزم المسألة ولا يعلق ذلك بالمشيئة .

---

(١) ينظر: القول المفيد (٢/٣٣١) .

٥٣- بَابُ لا يَقُلْ: عَبْدِي وأَمَتِي

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وضِىءْ رَبَّكَ، ولْيَقُلْ: سَيِّدِي ومَوْلايَ، ولا يَقُلْ أحدكم: عَبْدِي وأَمَتِي، ولْيَقُلْ: فَتَايَ وفَتَاتِي، وغُلامِي»[١].

الوقفة الأولى :

شرح مفردات الباب:

(أطعم ربك): الرب في اللغة بمعنى الصاحب، فتقول: هذا رب الناقة كما قال عبدالمطلب: وللبيت رب يحميه وأنا رب الإبل، ويطلق الرب على مالك وسيد كقولك رب البيت.

أما في الاصطلاح الشرعي فهو اسم من أسماء الله، والرب بمعنى معبود.

(سيدي): السيادة في الأصل علو المنزلة لأنها من السؤدد والشرف والجاه، والسيد يطلق على معانٍ منها المالك والزوج والشريف المطاع .

(عبدي): الذكر من المماليك .

(أمتي): الأنثى من المماليك .

الوقفة الثانية:

ما حكم قول: سيدي ومولاي ؟

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٥٢) ومسلم (٢٢٤٩).

الجواب: أن في ذلك تفصيلاً وذلك بحسب قصد الشخص .

فإن أراد السيادة المطلقة والولاية المطلقة فهي لله عز وجل لا يجوز إطلاقها على غيره، ولهذا جاء النهي عنه في الحديث .

وإن أراد السيادة والولاية الجزئية فتجوز على بني آدم؛ كما قال ﷺ : (**أنا سيد ولد آدم**)[١] .

وقال تعالى: ﴿**وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ**﴾[٢]، فالسيادة التي لا تجوز إذا كانت مشتبهة بالسيادة المطلقة .

الوقفة الثالثة :

ما حكم قول: أطعم ربك ونحوه ؟

إضافة الرب إلى غير الله تنقسم إلى أقسام :

١- أن تكون الإضافة إلى ضمير المخاطب مثل: أطعم ربك فيكره للنهي عنه، وسبب النهي أنه يوهم معنى فاسداً بالنسبة لكلمة الرب؛ لأنها من أسماء الله والرب سبحانه يُطعم ولا يُطعَم، وإن كان الرب هنا غير رب العالمين ولكن من باب الأدب في اللفظ .

٢- أن تكون الإضافة إلى ضمير الغائب؛ كقول النبي ﷺ لما سئل عن ضالة الإبل قال: (دعها فإن معها حذاءها وسقاءها... حتى يجدها ربها)[٣]، وهذا لا بأس به .

---

(١) رواه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، برقم (٢٢٧٨) .

(٢) سورة يوسف (الآية:٢٥) .

(٣) رواه البخاري في كتاب: اللقطة، باب: ضالة الغنم، برقم (٢٢٩٦)، ورواه مسلم في

٣-أن تكون الإضافة إلى ضمير المتكلم مثل قول العبد: هذا ربي فهذا منهي عنه .

٤-أن تكون الإضافة إلى الاسم الظاهر مثل هذا رب الغلام فظاهر الحديث الجواز، وقد يمنع لو ظن السامع أن السيد رب حقيقي خالق ونحو ذلك [١] .

الوقفة الرابعة :

ما حكم قول عبدي وأمتي؟ .

الحكم في هذا ينقسم إلى قسمين :

١- أن يضيفه إلى غيره مثل أن يقول: عبد فلان أو أمة فلان، فهذا جائز قال ﷺ : (ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة)[٢] .

٢- أن يضيفه إلى نفسه، وله صورتان .

أ / أن يكون بصيغة الخبر مثل: أطعمت عبدي وكسوت أمتي، فإن قاله في غيبة العبد والأمة فلا بأس .

وإن قاله في حضرتهما فإن ترتب عليه مفسدة تتعلق بالعبد أو السيد منع وإلا فلا، وإن كان يقصد مذلة العبد فهذا ممنوع .

ب /أن يكون بصيغة النداء كأن يقول: يا عبدي يا أمتي، فهذا اختلف العلماء في النهي، وأقل أحواله الكراهة [٣] .

كتاب: اللقطة، برقم (١٧٢٢).

(١) ينظر: القول المفيد (٢/٣٤٠) .

(٢) رواه البخاري في كتاب : الزكاة ، باب : ليس على المسلم في عبده ، برقم (١٣٧١).

(٣) ينظر: القول المفيد (٢/٣٤٢) .

٥٤- بَابٌ لا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ

عَنِ ابنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **ومن سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ ومَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فأعِيذوُهُ، ومَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، ومَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفَاً فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تُرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ** »[(١)]. رَوَاهُ أَبو دَاوُدَ والنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

الوقفة الأولى :

شرح مفردات الباب:

(من سأل بالله فأعطوه): أي إذا قال: أسألك بالله أو بوجه الله فأعطوه ما سأل .

(من استعاذ بالله فأعيذوه): أي من استجار بالله فأجيروه .

(من دعاكم فأجيبوه): أي من دعاكم إلى طعام ونحوه فأجيبوه .

الوقفة الثانية:

قال المصنف -رحمه الله- : (باب لا يرد من سأل بالله)، وهذا الباب حدده المصنف بـ(لا) بمعنى أنه نهى الإنسان عن عدم الإجابة أو إجابة من سأل بالله عز وجل، وهذا النهي فيه تفصيل بحسب المقول؛ فإذا كان السائل سأل حقاً له كأجر مثلاً أو من مالٍ فيه حق له يعني يسأل شيئاً من المال له

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٦٧٢) والنسائي (٨٢/٥ رقم ٢٥٦٥) وأحمد (٦٨/٢، ٩٩) والحاكم (٤١٢/١) وابن حبان كما في الموارد (٢٠٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٠٢١).

حق فيه، مثل شريك يسأل شريكه أو مساهم يسأل المساهم معه، وحقه واضح وثابت فهذا يجب أن يجاب سؤاله وخاصة إذا سأل بالله عز وجل .

أما إذا كان المسئول ليس فيه حق للسائل، فإن أجابه فهذا تكرم منه ويؤجر على ذلك، وإن لم يجبه فليس له حق في هذا الأمر .

وقد ورد في الحديث (**من سألكم بالله فأعطوه**)[١] ، بأن الأمر هنا في الظاهر للوجوب، ولكن يصرف هذا الوجوب إذا كان المسئول ليس عنده حق للسائل، أو كان يتضرر بالإجابة .

الوقفة الثالثة:

إن النبي ﷺ أمر أن يعطى من سأل بالله، وهذا من باب تعظيمه لله سبحانه وتعالى؛ لأن هذا السائل ما سأل بالله عز وجل إلا ليعظمه ... وبالتالي ليعظم حاجته، ولذلك جاء في القصة المشهورة قصة الأبرص والأعمى والأقرع أنه لما أعطاهم حاجتهم، ثم تمثل الملك بصورة رجل واحد منهم فكان يقول لكل واحد منهم (أسألك بالذي أعطاك كذا وكذا[٢] فهذا السؤال من حيث هو جائز، فإذا سأل الإنسان إنساناً آخر فيجب على الآخر أن يجيب ما لم يكن مانع من موانع الإجابة التي ذكرت في الوقفات

---

(١) رواه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: الرجل يستعيذ من الرجل، برقم (٥١٠٩)، ورواه النسائي في كتاب: الزكاة، باب: من سأل بالله عز وجل برقم (٢٥٦٧)، وصححه الألباني في السلسلة، برقم (٢٥٤) .

(٢) القصة بتمامها رواها البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل برقم (٣٢٧٧)، ورواها مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٤) .

السابقة .

الوقفة الرابعة:

قوله ﷺ: **(ومن استعاذ بالله فأعيذوه)** .

والاستعاذة: هي الالتجاء والاعتصام بالله عز وجل، ولذلك أمر الإنسان أن يستعيذ بالله من شر الأشرار ومن الشيطان الرجيم، يستعيذ بالله دائماً وأبداً، ومن استعاذ بالله فأعيذوه.

مثل أن يقول إنسان لآخر: أعوذ بالله منك، فعليه أنْ يعيذه ويبتعد عنه، بحسب ما طلب بهذه الاستعاذة .

الوقفة الخامسة :

قال ﷺ : **(من دعاكم فأجيبوه)** يعني من دعاكم لوليمة فأجيبوه، وفي هذا فوائد:

الأولى: الدعاء للوليمة أنواع، إما أن تكون هذه الوليمة وليمة عرس فذكر أهل العلم أنه يجب إجابة دعاء الوليمة؛ وذلك لأن فيها جبراً للخاطر، وفيها تعاون على البر والتقوى، وزيادة في الأخوة والألفة، والمحبة وفيها مزيد من التضامن وغسل الأدران من القلوب، وفيها إزالة الحقد والحسد، وهي تمر مرات قليلة في العمر، فدعوة الوليمة مجابة إلا إذا كان في هذه الدعوة مانع مثل أن يكون هناك منكرات ولا يستطيع التغيير، والمنكرات كثيرة؛ مثل الإسراف الشديد والتباهي والتفاخر أو فيها مزامير منهي عنها، ولذلك قال

ﷺ: (شر الطعام طعام الوليمة، يدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء) [(١)] .

أما إذا كانت الدعوة ليست لوليمة عرس فهذه مستحبة؛ إن شاء أجاب الطلب ولبى الدعوة وحصل على الأجر والثواب، وإن لم يجب فلا حرج في ذلك .

وينبغي للمسلم عند إجابة الدعوات أن يقدم ما كان واجباً إجابته مثل دعوة الوالد ودعوة القريب، وأن يتنبه إلى أن هذه الدعوة ليس فيها منكر، أما إن كان فيها منكر واستطاع الإنكار فيذهب وينكر ويحصل على الأجرين: أجر إجابة الدعوة وأجر إنكار المنكر .

الثانية : إذا دعي لهذه الدعوة عليه أن يستفيد من حضورها.

الثالثة: أن هذه الدعوة قد تكون من غير مسلم، فلا بأس بإجابته إذا كان في إجابته خير كأن يؤلف قلبه ويدعوه لهذا الدين، أو أن يدفع بها شراً أو ضرراً عن الإسلام والمسلمين .

الرابعة : أن لا ترد هذه الدعوة عن واجب أو حق، ولا تزيد في بغضاء، ولا تسبب ضرراً عليه، أو على أولاده أو على أهله وماله، فإذا تسببت بضرر فلا يجب هذه الدعوة .

الوقفة السادسة :

إن المكافأة على المعروف من الوفاء في هذا الدين، ومن نشر

---

(١) رواه البخاري في كتاب : النكاح، باب : من ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله برقم (٤٨٨٢) . ورواه مسلم في كتاب: النكاح، باب : الأمر بإجابة الداعي إلى الدعوة ، برقم (١٤٣٢).

المعروف بين الناس، وفيه أن أجر صاحب المعروف يضاعف ويتشجع عندما يكافأ، وكذلك فيها سد منافذ الشيطان فلا يستطيع الشيطان أن يلج إلى قلب هذا الإنسان الذي صنع معروفاً فيتعالى على الآخرين ويصيبه الغرور، بينما أن الله تعالى هو الذي وفقه لعمل هذا المعروف، ولعمل هذا الخير فلأجل أن يكثر يكافأ بعمل المعروف الذي عمله .

وقد لا يستطيع هذا الإنسان الذي عمل له المعروف أن يكافئ فدلّه النبي ﷺ على السبيل فقال: (**فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعو له**)(١) والدعاء يملكه كل إنسان، فيدعو له حسب ما يظن الداعي أنه كافأ صانع هذا المعروف .

وإنه لمن الجحود والنكارة وسوء العاقبة للإنسان وعدم التوفيق له أن يجحد المعروف، وأن يرد بما هو أسوأ، وهذا يجري عند بعض الناس للأسف الشديد، وهو من قلة التوفيق لهذا الإنسان الذي صنع له المعروف .

ولا يعمل هذا العمل إلا شخص ضعيف النفس ضعيف الإيمان ضعيف الخلق لا يخشى الله سبحانه وتعالى ولا يتقيه فيما أعطاه الله سبحانه وتعالى وهيأ له .

لذلك أراد الإسلام من أبنائه أن يكونوا إيجابيين في مستوى الإيجابية الكاملة، وصاحب الخير الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى يجب أن يبادر

---

(١) رواه أبو داود في تاب : الزكاة ، باب عطية من سأل بالله عز وجل ، برقم (١٦٧٢) ، ورواه النسائي في كتاب الزكاة، باب: من سأل بالله عز وجل، برقم (٢٥٦٧)، وصححه الألباني في الترغيب برقم (٨٥٢) .

ويعمل المعروف، وجعل على ذلك أجراً عظيماً، فكل معروف صدقة ولو كان قليلاً .

فالله سبحانه وتعالى أعطاه ولم يمنعه ومنع ذلك ابتلاءً للجميع ، كذلك الذي يطلب عملاً من الأعمال فيه مصلحة له من شخص آخر عليه أن يطلبها وأن يضمر في نفسه أنه سيكافئ هذا الشخص، والأيام كما يقولون دول .

وينبغي على صاحب المعروف أن لا ينتظر الرد والمكافأة، بل يضع المعروف في مكانه وسيلقاه يوماً ما إن في الدنيا وإن في الآخرة .

والله سبحانه وتعالى نبه إلى هذا الأمر تنبيهاً عظيماً في كتابه، وجعل هذا من الأعمال الصالحة الكبيرة، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً**﴾ [(١)] لا نريد منك أيها المعطي جزاء بعطيتنا لك، ولا نريد منك الشكر على هذا الأمر .

الوقفة السابعة :

من الظواهر التي تزعج المؤمن كثيراً ذاك الطلب من المخلوقين، ويزيد هذا الأسف إذا تعود اللسان على هذا الطلب، ويزيد أيضاً إذا علق سؤاله بالله عز وجل، بأن يقول أسألك بالله ، وتجد حاجته حاجة قليلة، ربما المسئول أكثر منه حاجة لكنه كان كاتماً لسؤاله وجعله بينه وبين الله، وهذا مما يؤثر في عقيدة المسلم .

---

(١) سورة الإنسان ، الآية (٩).

والأمور بلا شك نسبية؛ صاحب المرتب القليل عندما ينظر إلى أعلى ينظر على أنه قليل، لكن عندما ينظر إلى ما هو أدنى يرى على أنه كثير، ولذا يجب أن يتنبه المسلم إلى مراعاة مثل هذا الأمر، فلا يتساهل في جانب من هذه الأمور، وعليه أن يتكل على الله سبحانه وتعالى وسيجد الخير العظيم .

ثم إن هذا المطلوب هو مكتوب لك عند الله سبحانه وتعالى، فلا تلح على المخلوق، فإذا كان طلبك حاصلاً ورزقك حاصلاً فإنه سينالك بإذن الله عز وجل .

*** *** ***

٥٥- بَابُ لا يُسْأَلُ بوَجْهِ اللّهِ إلاَّ الجَنَّةُ

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**لا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إلاَّ الجَنَّةُ**»(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

الوقفة الأولى :

في هذا الباب إثبات صفة الوجه لله سبحانه وتعالى، وهذا تكرر في كتاب الله عز وجل مثل قوله تعالى: ﴿**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ**﴾، فالمذهب الحق في هذا الباب أننا نثبت أن لله سبحانه وتعالى وجهاً من غير أن نعطل المعنى، لا نقول: الوجه المراد به كذا أو كذا... ومن غير تشبيه بأوجه المخلوقين؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا شبيه له ولا يجوز تشبيهه بأحد من خلقه جل وعلا .

فمن هذا الحديث الذي أورده المصنف نثبت الوجه لله سبحانه وتعالى كسائر الأسماء والصفات التي نثبتها لله عز وجل كما أثبتها لنفسه من غير تعطيل ولا تحريف، ومن غير تمثيل ولا تشبيه ولا تكييف؛ كما قال الإمام مالك رحمه الله لمن سأل عن المراد بالاستواء قال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة.

والسؤال عن هذا الكيف بدعة؛ لأنه لم يرد عن الله سبحانه وتعالى ولا عن

---

(١)أخرجه أبو داود (رقم ١٦١٧) والبيهقي في الكبرى (١٩٩/٤) .

رسوله ﷺ .

الوقفة الثانية:

إن السؤال بوجه الله سبحانه وتعالى يجب أن لا يكون إلا لأمر عظيم، ولذلك لا يسأل بوجه الله إلا الجنة، ومن هنا يجب على المسلم أن يتنبه لمثل هذا الأمر العظيم بأنه لا يسأل بوجه الله إلا الأشياء العظيمة الكبيرة وهي: الجنة .

٥٦- بَابُ ما جَاءَ فِي (اللَّوّ)

وقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤]

وقَوْلِهِ: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾ الآية [آل عمران:١٦٨].

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بِاللهِ ولا تَعْجِزَنَّ، وإِنْ أَصابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّني فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وكَذَا؛ ولَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ ومَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»(١).

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(من الأمر) : أي من التصرف، ولو كانت الولاية بأيدينا .

(لإخوانهم) : أي إخوانهم في النسب لا في الدين.

(الحرص) : بذل الجهد لنيل ما ينفع من أمر الدنيا والدين .

(الاستعانة): طلب العون بلسان المقال؛ كالدعاء بقوله: اللهم أعني اللهم يسر لي ، أو بلسان الحال؛ كأن تشعر بقلبك أنك محتاج إلى ربك أن

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٤).

يعينك على أمر معين.

(ولا تعجـز): المـراد التكاسـل وعـدم الحـزم والعزيمـة، فـلا تعجـز باختيارك .

الوقفة الثانية:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنه لما كان من معاني كلمة "لو" الاعتراض على القدر كان في ذلك قدح في التوحيد، فمن اعترض على القدر لم يرض بالله رباً ، ومن لم يرض بالله رباً لم يحقق توحيد الربوبية .

الوقفة الثالثة :

مع قوله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا**﴾ [1] وقوله: ﴿**الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا**﴾ [2] الآية .

لقد نزلت هاتان الآيتان في قصة المنافقين يوم أحد .

فالآية الأولى: في الذين قالوا للنبي ﷺ : لا تخرج من المدينة قاتلهم في داخلها، وأشار غيرهم بالخروج إلى مقاتلة المشركين خارج المدينة، ثم لما وقع ما وقع من القتلى قال المنافقون: لو كان لنا من الأمر شيء ، أي لو كان لنا شيء من التصرف أو الولاية لما قتل إخواننا.

رد الله على مقالتهم بقوله تعالى: ﴿**قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ**

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٥٤).

(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٦٨).

﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ (١) أي إن هذا أمر مكتوب ومقدر فلا يجوز الاعتراض على قدر الله .

والآية الثانية: بينت مقالة المنافقين: لو أنهم لم يخرجوا ما قُتلوا، فرد الله عليهم بقوله : ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢) أي ادفعوا عن أنفسكم الموت، فإنهم قتلوا بآجالهم وأنتم سيأتيكم أجلكم .

الوقفة الرابعة :

مع حديث الباب :

قال ﷺ : (**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا، لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**) (٣) .

احتوى الحديث على عدة فوائد هي :

١ - أن الإنسان في هذه الدنيا يحرص على ما ينفعه في دينه ودنياه بشرط أن يكون ما ينتفع به في دنياه متناسقاً مع الشرع وإلا فلا نفع فيه.

٢ - التحذير من العجز؛ لأنه منافٍ لما ينفع الإنسان .

٣ - الحث على الاستعانة بالله؛ لأن الحرص قد لا يؤدي إلى نتيجة فهو سبب، فلابد من التوكل والاستعانة بالله - عز وجل -؛

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٥٤).

(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٦٨).

(٣) رواه مسلم في كتاب القدر ، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله برقم (٤٨١٦)

فإنه لا مدبر ولا رازق ولا شافي إلا الله، فلا حول ولا قوة إلا به .

٤ - الموقف الصحيح عند حصول المصيبة:عدم الجزع ، واعلم أن ما أصابك إنما هو رفعة لدرجاتك وحط عن سيئاتك ، وأن المقادير قد كتبت قبل خلق الخليقة، فما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فلا تعترض على قدر الله بل قل : قدر الله وما شاء فعل.

٥ - قوله: "فإن لو تفتح عمل الشيطان" لما فيها من الاعتراض على القدر؛ ولما تسببه من أضرار لقائلها، وذلك من عدة وجوه.

١) أن اعتراضك على ما حصل اعتراض على قدر الله .

٢) أنها من باب التحسر والندم وهو لا يفيد .

٣) يعود هذا التحسر على نفسية المصاب بالاكتئاب والقلق والقنوط ويفتح باباً للشيطان.

٤) يسد قائلها على نفسه أبواباً من الخير عظيمة .

الوقفة الخامسة :

استعمالات "لو" :

١ - تستعمل في الاعتراض على الشرع، وحكمه محرم؛ مثل قوله تعالى: ﴿**لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا** ﴾ (١) .

٢ - تستعمل في الاعتراض على القدر، وحكمه محرم؛ مثل قوله

(١) سورة آل عمران ، آية (١٦٨).

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ (١) .

٣ - تستعمل للندم والتحسر، وحكمه محرم؛ مثاله حديث الباب .

٤ - تستعمل في الاحتجاج بالقدر على المعصية؛ كقول المشركين : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ (٢) وحكمه باطل .

٥ - تستعمل في التمني، وحكمه بحسب المتمني؛ إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر (٣) .

٦ - تستعمل في الخبر المحض، وهذا جائز مثال: قوله ﷺ : (لو استقبلت من أمري ما استدبرت، ما سقت الهدي ولأحللت معكم) (٤) .

---

(١) سورة آل عمران ، آية (١٥٦).

(٢) سورة الأنعام ، آية (١٤٨).

(٣) ينظر: القول المفيد لابن عثيمين - رحمه الله - ٣٦٢/٢ .

(٤) رواه البخاري في كتاب: اليقين، باب قول النبي ﷺ (لو استقبلت من أمري) برقم (٦٦٨٩) .

٥٧- بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

عَنْ أُبِيّ بنِ كَعْبٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، ونَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وشَرِّ مَا فِيهَا، وشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ»[1] صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

الوقفة الأولى:

الريح هي الهواء الذي يصرفه الله سبحانه وتعالى من جهة إلى أخرى، فإذا كان شديداً سمي ريحاً، وإذا كان خفيفاً سميت رياحاً، وهذه على عكس الأصل، والأصل إذا كان مفرداً أن يكون خفيفاً، والجمع يكون أشد، ولذلك جاء في الأثر أن الإنسان إذا رأى الريح دعا بالدعاء الوارد (**اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً**)[2] ؛ لأن الريح إذا جاءت شديدة فهي نوع من العذاب كما عذب بها بعض الأقوام السابقة وإذا جاءت خفيفة فهي قائدة للخير وللمطر، ولذلك يقول الإنسان هذا الدعاء الوارد .

الوقفة الثانية:

نهي المؤمن عن سب الريح كما أورد المصنف في الحديث الذي

---

(١)أخرجه الترمذي برقم (٢٢٥٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٣١٥).

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده عن ابن عباس مرفوعاً برقم (٢٤٥٦)، وضعفه الألباني في السلسلة برقم (٤٢١٧) .

رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه الترمذي قال: (**لا تسبوا الريح**) وذلك لأن من سب الريح كأنه يسب من قدّر هذه الريح، وأتى بهذه الريح، وهو الله سبحانه وتعالى .

ولكن إذا رأى الإنسان ما يكره من الريح وكانت الريح شديدة وقد تسبب أضراراً فيدعو(**اللهم إني أسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به**) هذا دعاء والدعاء، عند الله مستجاب إذا أتى بشروطه وخلا من موانعه .

(**ونعوذ بك من هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**) وهذا يدل على أن الأمور الكونية التي يقررها الله سبحانه وتعالى لها وجهان :

الأول: إما أن تكون فيها خير وهذا كثير، مثل الأمطار، فالأصل فيها أن تكون خيراً، لكن قد تنقلب إلى ضدها فبدل أن تكون رحمةً تكون عذاباً، وهذه الأمور الكونية لها وجهان، والمسلم هنا عليه أن يسأل الله سبحانه وتعالى الوجه الخير فيها .

والنبي ﷺ هنا حدد للمسلم أن يسأل من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به؛ لأنها مخلوقة من مخلوقات الله سبحانه وتعالى، فيها من الخير وفيها غير ذلك.

الوقفة الثالثة :

في هذا الحديث أن الإنسان **لا** يعترض على أقدار الله سبحانه وتعالى، إنما يطلب وجه الخير فيها مثل حادث أو مرض أو خسارة مالية ظاهر ذلك شر ولكن باطنه قد يكون خيرا؛ لأن العواقب بيد الله سبحانه وتعالى، فيسأل العبد ربه أن تكون العاقبة خيراً، ولذا وجه النبي ﷺ الإنسان لمن يرى الريح ألا يشتم ويسب الريح، وإنما يسأل الله خير هذه الريح.

٥٨- بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤]

وقَوْلِهِ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾ الآية [الفتح: ٦].

قَالَ ابنُ القَيِّمِ فِي الآيةِ الأُولَى: «فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وفُسِّرَ بأَنَّ مَا أَصَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللهِ وحِكْمَتِهِ، فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الحِكْمَةِ، وإِنْكَارِ القَدَرِ، وإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ ﷺ، وأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. وهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِي ظَنَّهُ المُنَافِقُونَ والمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الفَتْحِ، وإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ؛ لأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، ومَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وحَمْدِهِ ووَعْدِهِ الصَّادِقِ. فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَى الحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَرُهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الحَمْدُ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ، فذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار. وأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ وفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، ولا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلاَّ مَنْ عَرَفَ اللهَ وأَسْمَاءَهُ وصِفَاتِهِ وَمُوْجِبَ حِكْمَتِهِ وحَمْدِهِ.

فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ ولِيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ، ولَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتاً عَلَى القَدَرِ ومَلاَمَةً لَهُ، وأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وكَذَا، فَمُسْتَقِلٌّ ومُسْتَكْثِرٌ، وفَتِّشْ نَفْسَكَ: هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وإِلاَّ فَإِنِّي لا إِخَالُكَ نَاجِياً[(١)]

الوقفة الأولى :

شرح مفردات الباب:

(يظنون): الضمير يعود إلى المنافقين، والأصل في الظن: أنه الاحتمال الراجح، وقد يطلق على اليقين كما في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ**﴾[(٢)] .

(ظن الجاهلية): الجاهلية نسبة إلى الجهل، وإذا أطلقت يراد بها ما قبل الإسلام وهو المراد هنا .

(هل لنا من الأمر من شيء): يريدون أن ينزهوا أنفسهم ويرفعوا الملامة عنهم، ويريدون أيضاً أن يعترضوا على قدر الله .

(قل إن الأمر كله لله): ليس لكم ولا لغيركم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، فإن كان كذلك، فلا وجه لاحتجاجكم على قضاء الله وقدره .

---

(١) انتهى كلام ابن القيم باختصار. انظر: زاد المعاد (٣/٢٢٩ ـ ٢٣٥) .

(٢) سورة البقرة (الآية: ٤٦) .

(ظن السَّوء): أي يتهمون الله في حكمه، ويظنون بالرسول ﷺ والمؤمنين أنهم لا يُنصرون.

(دائرة السَّوء): دائرة العذاب والذل لازمة لهم لا تتخطاهم .

(سيضمحل): سيذهب ويتلاشى حتى لا يبقى له أثره .

(يديل الباطل): يجعل له الدولة والغلبة .

(تعنتاً على القدر): اعتراضاً عليه .

(إخالك ناجيا): أظنك ناجياً .

الوقفة الثانية:

هذا الباب يمكن أن تسميه (باب الظن بالله عز وجل)، فمن المعلوم أن الله سبحانه قدر الأمور كلها، ومن هذه المقادير ما ظاهره الخير ومنها ما ظاهره الشر، وتقدير الله سبحانه لحكمة بالغة لا يعلمها إلا هو سبحانه، فهل ما ظاهره خير هو دائماً خير؟ وهل ما ظاهره شر هو دائماً شر؟ وهل حال الإنسان دائماً على حال واحدة؟ لا شك أن الأحوال تختلف؛ فتمر على الإنسان حالات فرح وسرور، وحالات حزن وهمّ، وهنا يتميز موقف المؤمن الصادق، وهو أن يظن بالله خيراً في جميع الأحوال في الخير والشر، فهذه الحياة مبنية على الكبد والمشقة والإنسان فيها مبتلى، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[1] .

فأراد المصنف -رحمه الله- أن ينبه على وجوب حسن الظن بالله، وأنه من واجبات الإيمان، وأن سوء الظن بالله ينافي التوحيد .

---

(١) سورة البلد (الآية: ٤) .

الوقفة الثالثة :

خلاصة ما ذكره ابن القيم في تفسير ظن السوء ثلاثة أمور:

الأول: أن يظن أن الله يديل الباطل على الحق ويجعل له الغلبة الدائمة فيضمحل ويذهب معها الحق، فهذا ظن المشركين والمنافقين كما في سورة الفتح : ﴿**بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً**﴾(١) .

الثاني: أن ينكر أن يكون مجرى الأمور بقضاء الله وقدره، لأنه يتضمن أن في ملكه سبحانه ما لا يريد؛ مع أن كل ما يكون في ملكه فهو ما أراده وقضاه وقدّره .

الثالث: أن ينكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد؛ لأن هذا تضمن أن تكون تقديراته سبحانه وتعالى سدى وعبثاً وباطلاً : ﴿**ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾(٢)، تعالى الله عن ذلك، فكل ما قدره لحكمة بالغة.

الوقفة الرابعة:

يخطئ كثير من الناس في هذا الباب؛ فإذا سئل المريض عن حاله قال: حال سوء أو حال تعب، ويأتي بهذه التأففات المزعجة التي تنبئ عن اعتراض على قدر الله سبحانه، وقد يصرح بذلك فيقول: لماذا يصيبني ذلك وأنا لا أستحق، فهذا كأنه يشكو الله سبحانه وتعالى لخلقه، تعالى الله سبحانه، أما إذا أخبرت عن نفسك إخباراً لا شكاية ولا اعتراضاً، فإذا سئلت

---

(١) سورة الفتح (الآية: ١٢) .

(٢) سورة ص (الآية: ٢٧) .

عن حالك قل: الحمد لله، فإذا قيل هل فيك وجع؟ قلت: نعم؛ فأنت تخبر لا تعترض، والرسول ﷺ قيل له: إنك لتوعك قال: (**أجل إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم**)[١] . فأخبر ﷺ أنه يوعك، وليس في هذا اعتراض؛ لأنه عن باب الإخبار، أما إذا كان على سبيل الشكاية كأن تقول للإنسان: يومي أسود أو مصيبتي شديدة أو لم آكل منذ كذا؛ كأنك تشكو ربك إلى الناس فهذا أمر خطير، فأنت لا تعلم حكمة الخالق سبحانه، ولعل فيه خيراً لك، فإما أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يمحو سيئاتك أو أن يرفع درجاتك، ولذلك يقول بعض العلماء: حمى ليلة تمحو جميع السيئات، فإذا كان حمى ليلة تمحو جميع السيئات فكيف بالأمراض الشديدة المهلكة ؟!

فإذا ظن الإنسان بربه الظن الحسن كان لذلك آثارٌ عظيمة على حياته من الطمأنينة والاستقرار والراحة والسعادة . وعلى حياته الأخرى بالسعادة الأبدية.

(١) رواه البخاري في كتاب: المرضى، باب: أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، برقم (٥٣٢٤)، ورواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن ونحو ذلك، برقم (٢٥٧١) .

٥٩- بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ

وَقَالَ ابنُ عُمَرَ: وَالَّذِي نَفْسُ ابنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَباً، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ. ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**الإِيْمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ**»[(١)]. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ لابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيْمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، ومَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ، ومَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**» يَا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا، فَلَيْسَ مِنِّي**»[(٢)].

وفِي رِوَايَةٍ لأَحْمَدَ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»[(٣)].

وفِي رِوَايَةٍ لابنِ وَهْبٍ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اللهُ بِالنَّارِ**».

وفِي المُسْنَدِ والسُّنَنِ عَنِ ابنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ أُبَيَّ بنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ:

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨) وأبو داود برقم (٤٦٩٥) والترمذي برقم (٢٦١٣) والنسائي برقم (٤٩٨٧) وابن ماجه برقم (٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٧٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (٣١٧/٥). وحسنه الألباني في ظلال الجنة (٥٠/١).

فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ الله يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي، فَقَالَ: «**لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ، وتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، ومَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، ولَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»[1]. قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ بنَ مَسْعُودٍ، وحُذَيْفَةَ بنَ اليَمَانِ، وزَيْدَ بنَ ثَابِتٍ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ . حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ.

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(الإنكار): هو الجُحود بحيث يجحد أن تقدير الله سبحانه وتعالى لجميع الأمور .

(القدر): هو تقدير الله للكائنات، وهو سر الله في خلقه لا يعلمه إلا الله.

(أُحُد): هو جبل أحد الواقع شمال المدينة النبوية .

الوقفة الثانية:

سبب ورود الباب في كتاب التوحيد ؛ لأن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان الستة؛ كما دل عليه حديث جبريل المشهور لما سأل النبي ﷺ عن الإيمان قال ﷺ : (**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**). وقد ذكر المصنف تحت عنوان هذا الباب ما

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٢/٥) وأبو داود برقم (٤٦٩٩) وابن ماجه برقم (٧٧) وصححه الألباني في ظلال الجنة (٥٢/١، ١٠٩).

استدل به على أن منكري القدر ينسلخون من الإيمان .

الوقفة الثالثة:

مراتب القدر:

١ - **العلم** : بأن يؤمن الإنسان أن الله عز وجل علم كل شيء جملة وتفصيلاً، فالله يعلم ما كان وما سيكون ويعلم كل دقيق وجليل.

الدليل قوله تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ (١) .

٢ - **الكتابة**: فالله - عز وجل - كتب المقادير كما في الآية السابقة: ﴿ **وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ (٣) .

٣ - **المشيئة** : وهي عامة، وما من شيء في السماوات ولا في الأرض إلا هو كائن بإرادة الله ومشيئته؛ كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾(٤) وقال: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ** ﴾ (٥) وقال: ﴿**وَلَوْ شَاءَ**

---

(١) سورة الأنعام ، الآية (٥٩).

(٢) سورة الأنعام ، الآية (٥٩).

(٣) سورة الحج ، الآية (٧٠).

(٤) سورة يس ، الآية (٨٢).

(٥) سورة الأنعام ، الآية (١١٢).

اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ﴾[(١)].

٤ - **الخلق** : فما من شيء إلا والله خلقه وأوجده؛ قال تعالى: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [(٢)] و"شيء" نكرة تفيد العموم، فما من صغيرة ولا كبيرة إلا والله خالقها سبحانه، وجمعت هذه المراتب في بيت :

علمٌ كتابةُ مولانا مشيئةُ ... وخَلْقُه وهو إيجادٌ وتكوينُ

الوقفة الرابعة:

في أثر ابن عمر دليل على أن من أنكر القدر فهو كافر حابط عمله، فإن ابن عمر رضي الله عنهما يقسم بمن يملك نفسه وهو الله - عز وجل - بأن من أنكر القدر لا يكون مؤمناً حتى لو أنفق مثل جبل أُحُد ذهباً، ثم استدل بحديث جبريل الطويل بقول النبي ﷺ : (**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**) .

ويشهد لما قاله ابن عمر رضي الله عنهما الأثر الوارد عن ابن الديلمي حينما أكّد أبي ابن كعب ﷺ أن القدر ركن من أركان الإيمان ولو مات على إنكار القدر لكان من أهل النار.

وقال عبدالله بن مسعود ﷺ وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت كلهم كما قال أبي ابن كعب.فهذه الأحاديث فيها الوعيد الشديد لمن ينكر القدر.

الوقفة الخامسة:

المتأمل في حديث عبادة بن الصامت ﷺ يعلم علماً يقيناً أن المقادير

---

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٥٣).

(٢) سورة الزمر، الآية (٦٢).

قدرها الله - عز وجل - قبل خلق السماوات والأرض، وذلك لأن الله أول ما خلق القلم، فسبق خلقه خلق السماوات والأرض ، فإذا علم المسلم ذلك وأن سيقع له من تقدير الله، وسلم بذلك ورضي سيجد الراحة في نفسه والطمأنينة والسكينة في حياته، وسيجد طعم الإيمان الذي أخبر عنه عبادة ﵁ .

وفي المقابل سيجد من لم يؤمن بالقدر الوعيد الشديد وذلك بأن يعذبه الله بالنار ويذيقه العذاب الأليم الذي ينتظره فيها .

الوقفة السادسة :

يتساءل بعض الناس ويقول: هل يقدر الله الشر؛ والرسول ﷺ يقول في دعائه **(والشر ليس إليك)** [(١)] ؟

الجواب: أن الشر الذي نفاه الرسول ﷺ عن الله هو الشر المحض الذي لا خير فيه بوجه من الوجوه .

ولكن الشر الذي قدره الله يكون شراً في ظاهره ولكن في باطنه من الخير الذي نعلمه أو لا نعلمه، فإبليس هو شر فيما يظهر لنا، ولكن هناك خير، وهذا الخير هو تمحيص الله المؤمنين عن الكافرين والمنافقين بوسوسته لهم، فيظهر المؤمن الصادق عن غيره؛ كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾ [(٢)] .

وكذلك المصائب التي يصيب الله تعالى بها من يشاء من عباده حتى

---

(١) رواه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الدعاء في صلاة الليل وقيامه ، برقم (٧٧١).

(٢) سورة الحجر، الآية (٤٢).

يتميز المسلم الصابر الشاكر فيرتفع إيمانه وتُكفر عنه سيئاته، أو يكفر ويجزع فيضل ويخسر ، وقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال : (**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**) [(١)] .

الوقفة السابعة:

وقد يقول قائل: إذا كانت الأمور مقدرة على الإنسان فلماذا أعمل وأصلي وأذهب إلى وظيفتي، فما قُدر لي سيأتيني عملت أو لم أعمل؟

الجواب: نقول: صحيح أن الله عز وجل قدر الأشياء كلها، ولكنه أعطى الإنسان قدرة بأن يتحرك ويعمل وييسّر له الأسباب المعينة لذلك.

ولو ضربنا لهذا مثلاً نأتي بإنسان، نضع له أطيب الطعام وفي الجانب الآخر ونضع له جمر فماذا سيختار ؟ لا شك أنه سيختار أطيب الطعام، فدل هذا على أن له اختياراً.

وكذلك أمر العبادات والأعمال الصالحة، فأنت باختيارك تقوم تصلي أو لا ، تذهب وتعمل أو لا . فدلّ ذلك على أن للعبد اختياراً.

ولقد سئُل النبي ﷺ لما قال لصحابته: (**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار**) قالوا: يا رسول الله: أفلا ندع العمل ونتكل؟ قال: (**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**) [(٢)] .

---

(١) رواه مسلم في كتاب : الزهد والرقائق ، باب: المؤمن أمره كله خير برقم (٢٩٩٩).

(٢) سبق تخريجه في الباب رقم (٣١).

الوقفة الثامنة:

فإن قال قائل: كيف يمكن أن نفسر قول النبي ﷺ : **(لا يرد القضاء إلا الدعاء)**(١) .

الجواب عن هذا من وجهين :

الوجه الأول: أن القدر المكتوب على الإنسان مما يعلمه الملك الموكل بذلك، فقد يكون القدر على هذا الإنسان أمراً معيناً فيدعو الله فيُرد هذا الأمر بدعائه، فيعلم الملك الموكل بأن هذا الإنسان إنما رُد قدرة الأول بسبب دعائه .

الوجه الآخر : أن هذا الأمر سبق في علم الله سبحانه أن هذا الإنسان ستصيبه مصيبة مثلاً، ثم يقدر الله عليه أنه سيدعو الله فيرد الله هذه المصيبة بدعاء هذا الإنسان .

وهذا حافز لكل مسلم أن يدعو الله ويكثر اللجوء إليه فإن الأمر كله لله.

الوقفة التاسعة :

مقامات الناس في الإيمان بالقدر :

١ - الإيمان والجزم بالقدر بمراتبه الأربعة وهذا هو المؤمن الصادق .

٢ - إنكار ذلك وهذا هو الكافر.

٣ - الشك والتردد، وهذا يلحق النوع الثاني وهو الكفر، وهذا هو الظاهر من رواية ابن وهب : "فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله

---

(١) رواه الترمذي في كتاب : القدر، باب : لا يرد القدر إلا الدعاء، برقم (٢١٣٩) ، وحسنه الألباني في السلسلة ، برقم (١٥٤).

بالنار"[١] .

الوقفة العاشرة :

رواية ابن وهب وما بعدها كلها تفيد الوعيد الشديد لمن لم يؤمن بالقدر ولمن أنكر القدر، فيجب على الإنسان أن يؤمن بالقدر لئلا يقع في الوعيد الشديد، ولذلك قال: (**أحرقه الله بالنار**). وفي رواية : (**لم يقبل الله منه هذه الصدقات وهذا الإنفاق الذي ملء أحد ذهباً**)، ولذلك يجب على المسلم أن يؤمن بالقدر خيره وشره، وأن يعلم أن هذا من عند الله عز وجل.

وإذا تقرر هذا كما قرره النبي ﷺ وصحابته الكرام ، نوجه نداء إلى جميع المسلمين فيما يتصل بالقدر، وهذا النداء يتضمن جزءاً مما قلناه قبل قليل، وهو أن على الإنسان أن يتعلق بالله جل وعلا، فإن أصابه خير ارتاح واطمأن وحمد الله جل وعلا على ما قضاه له من أمور الخير، وهنا يأتي الشكر فإن أصابه سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابه شيء آخر مما ظاهره شر فموقفه أن يؤمن بالله سبحانه وتعالى بأنه قدر هذا الأمر، وما قدره إلا بأن تكون عاقبته خيراً إذا تعامل المسلم معه التعامل الشرعي المطلوب.

والتعامل الشرعي المطلوب تبدأ درجاته بالصبر على ما قضاه الله سبحانه وتعالى مما ظاهره شر، فالحياة مبنية على الكبد وخلق الإنسان كذلك كما ذكر ربنا سبحانه وتعالى، فإذا كان الأمر كذلك فلن تصفو لأحد، ولو كانت الدنيا تدوم للناس بالخير لدامت لرسول الله ﷺ، لكن أمر الدنيا متقلب بين أفراح وأتراح، فإذا أصيب الإنسان بما ظاهره شر من مرض ومن

---

(١) ينظر: القول المفيد (٢/٤٢٥).

فقر ومن عدم النجاح في بعض الأمور وبعض المشاريع ومن الخسارة المالية، فعلى المسلم أن يصبر على ما قدر عليه كما جاء عن النبي ﷺ .

ثاني الدرجات: مع هذا الصبر أن يرضى بقضاء الله سبحانه وتعالى، وهذا جاء في دعاء النبي ﷺ : (**وأسألك الرضا بعد القضاء**) (١) . وهذه درجة أعلى .

والدرجة العليا التي يصل إليها الموفقون هي درجة الشكر تعني أن يجعل المسلم ما أصابه من المحن منحة من الله سبحانه وتعالى، وكيف يكون ذلك؟!

يعلم الإنسان أن أعماله قد لا ترقى به إلى الدرجات العليا لكن يقدر الله سبحانه وتعالى عليه من بعض الأمور التي ظاهرها شر ، فيحمد العبد ربه على ذلك فتنقلب المحن منحاً، ومن هذا يجب أن نربط علاقتنا بالله على أي وجه كانت الأمور، ولا يعني هذا أن يكون الإنسان سبهللاً لا يعنيه الأمر من خير أو شر، ولكن المقصود أن يعلم أن هذه الأمور من الله سبحانه وتعالى فيتعامل معها التعامل الشرعي، رزقنا الله ذلك.

الوقفة الحادية عشر:

فوائد الإيمان بالقدر:

١ - أنه من تمام توحيد الربوبية .

٢ - أن من علم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وسلَّم لهذا، ذاق طعم الإيمان .

---

(١) رواه أحمد برقم (٢٠٦٧٨)، والنسائي برقم (١٢٨٨)، وذكره الألباني في صحيح النسائي (١٣٠٤).

٣ - أن الإيمان بالقدر يبعث الطمأنينة والأمان في قلب المؤمن .

٤ - أن الإيمان بالقدر يقوي علاقته بالله عز وجل ويبعده عن التحسر والندم على ما فات.

٥ - أن الإنسان يزداد من فعل الطاعات واجتناب المنكرات.

٦ - الإقدام على العمل وعدم الكسل، إذ أن الإيمان بالقدر دافع للمزيد من العمل فلا يعجز ويتكل.

٦٠- بَابُ مَا جَاءَ فِي المُصَوِّرِينَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»(١). أَخْرَجَاهُ.

ولَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللهِ»(٢).

ولَهُمَا عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ»(٣).

ولَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعاً: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، ولَيْسَ بِنَافِخٍ»(٤).

ولِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الهَيَّاجِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ أَلاَّ تَدَعَ صُورَةً إِلاَّ طَمَسْتَهَا، ولا قَبْراً مُشْرِفًا إِلاَّ سَوَّيْتَهُ(٥).

---

(١) أخرجه البخاري برقم(٥٩٥٣) ومسلم برقم(٢١١١).

(٢) أخرجه البخاري برقم(٥٩٥٤) ومسلم برقم(٢١٠٧) (٩٢).

في نسخ كتاب التوحيد: يضاهئون بالهمزة، بينما المثبت بلا همز كما في الصحيحين.

(٣) أخرجه البخاري برقم(٢٢٢٥) ومسلم برقم(٢١١٠) واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري برقم(٥٩٦٣) ومسلم برقم(٢١١٠).

(٥) أخرجه مسلم برقم(٩٦٩) وأبو داود برقم(٣٢١٨) والترمذي برقم(١٠٤٩) والنسائي برقم(٢٠٢٩).

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(ومن أظلم): أي لا أحد أظلم.

(يخلق كخلقي): لأن المصور لما صور الصور على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان أو بهيمة صار مضاهياً لخلق الله .

(فليخلقوا) : تعجيز لهم وتحدي.

(الذرة) : النملة الصغيرة.

(حبة) : حبة حنطة فيها طعم تؤكل وتزرع .

(يضاهئون بخلق الله): أي يشابهون بما يصنعون مخلوقات الله.

(مشرفاً) : أي عالياً.

(إلا سويته): أي جعلته مساوياً للأرض.

الوقفة الثانية:

قال المصنف - رحمه الله - "**باب ما جاء في المصورين**" ومقصوده ما جاء فيهم من الوعيد الشديد والتهديد الأكيد؛ لأنه نقل - رحمه الله - هذه النصوص والأحاديث التي تبين عقوبة المصورين.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد : لما كان التصوير وسيلة من وسائل الشرك وأن المصور يضاهي خلق الله تعالى، وهذا بلا شك خلل في التوحيد ناسب أن يعقد هذا الباب ليبين تحريمه وما جاء فيه من الوعيد الشديد .

الوقفة الثالثة:

نستفيد من هذه الأحاديث تحريم التصوير؛ لما فيه من مضاهاة لخلق الله سبحانه وتعالى، ولكن كلمة التصوير تحتاج إلى شيء من البيان، **فالتصوير المقصود فيه عدة أنواع:**

النوع الأول: ما يسمى بالتماثيل، وهي التماثيل المجسمة التي تكون كهيئة شخص أو حيوان وعملها.

النوع الثاني: الرسم باليد، فالذي يرسم شخصاً من الناس فهو مصور له .

النوع الثالث: آلات التصوير الحديثة، وهل هي من التصوير؟ سيأتي بيانه إن شاء الله، هذا من ناحية المقصود بالتصوير .

أما من ناحية حكمه فهو على أنواع:

النوع الأول: التصوير لما ليس له روح؛ مثل الأشجار والأنهار والبيوت والجبال وغير ذلك . فهذا لا خلاف في جوازه سواء كان هذا بالتمثيل أو بالرسم أو على صورة الآلات الحديثة.

النوع الثاني: ما كان التصوير لما فيه روح مثل بني آدم والحيوانات وغير ذلك، وهذا فيه تفصيل.

أولاً: التماثيل كأن يجعل تمثالاً على صورة رجل أو حيوان أو غير ذلك، فهذا لا خلاف بين أهل العلم على تحريمه، وتنطبق عليه النصوص الواردة في هذا الباب .

ثانياً: الرسم باليد كأن يرسم صورة إنسان أو حيوان، فهذا محرم أيضاً وتنطبق عليه النصوص الواردة في هذا الباب . لأن المصور حاول مضاهاة

خلق الله تعالى بيده.

ثالثاً: وهو التصوير بالآلات الحديثة؛ كالتصوير الفتوغرافي فهذا فيه خلاف بين العلماء المعاصرين : فمنهم من جعله صورة وطبق عليه النصوص الواردة فقال: إن حقيقة هذا الأمر هو الصورة ففيه الوعيد الشديد الذي جاء في التصوير، ولا يجوز إلا للضرورة.

ومنهم من قال: لا ينطبق معنى الصورة عليه وإنما هو انعكاس للحقيقة، فهذا التصوير الذي في الآلة إنما هو انعكاس لحقيقة الشخص، فلو أن إنساناً نظر إلى شخص في المرآة فهذا لا يقال: إنه نظر إلى صورة فلان وإنما يقال هذا فلان ، هذا مثل كاميرات التصوير الفوتوغرافية والفيديو وغيرها.

ومنهم من فرق بين ما هو متحرك وبين ما هو ثابت ، فما كان متحركاً لم يجعله صورة لأنه يقول : هذا الذي يتحرك هو فلان ليس صورته. أما غير المتحرك فيجعله صورة لأنه يقال هذه صورة فلان .

وبناءً على الخلاف في الحقيقة اختلفوا في الحكم :

فالذين قالوا : إنه صورة كما هي التسمية الشائعة قالوا: هي حرام، وتنطبق عليها النصوص كما سبق .

أما من ذهب إلى أن حقيقته ليست بصورة، إنما الحقيقة هو بذاته، وقاس ذلك على من يرى شخصاً في المرآة قال: إن حقيقته انعكاس وليست صورة فليس بحرام.

الوقفة الرابعة:

بعد التفصيل في حكم التصوير بالكاميرات الفوتوغرافية والفيديو يبقى أن نقول: إن العلماء اتفقوا سواء من قال بالتحريم أو بعدمه على:

أولاً: أنه إذا كان هذا التصوير للتعظيم فلا خلاف بينهم أنه محرم ، والتحريم هنا جاء من التعظيم؛ كما في قصة قوم نوح الذين طال عليهم الأمر حتى عبدوها .

ثانياً: إذا كان هناك حاجة للتصوير مثل صور البطاقات والجوازات وما يعرف به شخصية الإنسان فهذا لا خلاف في جوازه للحاجة.

ثالثاً: إذا اتخذت الصورة للإهانة مثل صورة حيوان وضعت في سجادة على الأرض فهذه تنتقل من الحرمة للكراهة لأنها صورة مهانة، كما قلت في الصورة المعظمة: إنها محرمة، فالصورة المهانة تجوز .

الوقفة الخامسة:

يشكل على كثير من الناس (لعب الأطفال) وهل هي داخلة في التصوير المحرم أو لا؟ فنقول هي أنواع:

أولاً: ما كان على شكل صورة مثل ما يعمل بالقطن صورة رأس لكن ليس فيه عين ولا أنف ولا فم فهذه جائزة .

ثانياً : ما يتخذ تمثالاً وإن كان من لعب الأطفال فهذه محرمة، لا لأنها صورة وجدت العلة فيها وهي المضاهاة والمشابهة لخلق الله، فتجد الطفل يعظمها ويجعلها في أفضل الأماكن ويكرمها فهذه محرمة. ومثله ما يوضع في المحلات التجارية ونحوها.

٦١- بابُ ما جاءَ في كَثْرَةِ الحَلِفِ

وقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة:٨٩].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ**»(١) أَخْرَجَاهُ.

وعَنْ سَلْمَانَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ولا يُزَكِّيهِمْ ولَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيمِطٌ زَانٍ، وعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، ورَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ، لا يَشْتَرِي إلاَّ بِيَمِينِهِ، ولا يَبِيعُ إلاَّ بِيَمِينِهِ**»(٢) رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**» قَالَ عِمْرَانُ: فَلا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً؟ «**ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْماً يَشْهَدُونَ ولا يُسْتَشْهَدُونَ، ويَخُونُونَ ولا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ ولا يُوفُونَ، ويَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ**»(٣).

وفِيهِ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثم الذين يلونهم، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ**

---

(١)أخرجه البخاري برقم(٢٠٨٧) ومسلم برقم(١٦٠٦).

(٢)أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٢٤٦/٦ رقم ٦١١١) والصغير برقم(٨٢٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨١/٤): رواه الطبراني في الثلاثة ... ورجاله رجال الصحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم(٣٠٧٢).

(٣) أخرجه البخاري برقم(٣٦٥٠) ومسلم برقم(٢٥٣٥).

أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، ويَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»[(١)]. وقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ والعَهْدِ ونَحْنُ صِغَارٌ»[(٢)].

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(الحلف) : بفتح الحاء وكسر اللام: اليمين والقسم، وهو توكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة بأحد حروف القسم وهي: الباء والواو والتاء.

(منفقة للسلعة): ترويج السلعة والمتاع.

(ممحقة للبركة): من المحق، وهو النقص والتلف، ويشمل الحسي والمعنوي.

(لا يزكيهم): لا يطهرهم من دنس الذنوب ولا يثني عليهم.

(أشيمط زان) : تصغير أشمط وهو الذي في شعره شيب، وصُغّر هنا للتحقير له لأن دواعي الزنا ليست لديه .

(عائل مستكبر) : العائل : هو الفقير وهو مع ذلك يتكبر، فمقومات الكبر ليست لديه.

(ولا يستشهدون) : أي لا يطلب منهم الشهادة .

---

(١) أخرجه البخاري برقم(٢٦٥٢) ومسلم برقم(٢٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري برقم(٢٦٥٢) ومسلم برقم(٢٥٣٣).ولفظه عند مسلم: كانوا ينهوننا ونحن غلمان عن العهد والشهادات.

(السِّمن) : كثرة الشحم واللحم، وذلك لتنعمهم وغفلتهم عن الآخرة.

الوقفة الثانية:

أراد المصنف - رحمه الله - بهذا الباب ذكر ما جاء في الحلف من الوعيد الشديد. ومناسبة ذلك للتوحيد أن من كمال التوحيد احترام اسم الله وعدم امتهانه بكثرة الحلف؛ لأن ذلك يدل على الاستخفاف به وعدم تعظيمه . وأصل الحلف جائز إذا احتيج إليه لكن ينبغي عدم التمادي في ذلك وعدم الإكثار منه، لما فيه من الاستهانة بالمحلوف به وهو الله سبحانه وتعالى، ولذا قال تعالى : ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُم﴾.

الوقفة الثالثة:

الحلف ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الحلف على أمر ماضٍ عامد وهو يعلم كذب نفسه ، فهذه هي التي تسمى اليمين الغموس، وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في الإثم ومن ثم في النار، والعياذ بالله.

وهذه لا كفارة لها إلا التوبة، وهي التي جاء فيها قول النبي ﷺ : (**الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب**) وهذا للأسف عند الباعة كثير، وقد قال النبي ﷺ : (**من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان**) [(١)] .

النوع الثاني: وهو الذي على الألسنة بغير قصد مثل من يقال له: كيف حالك فيقول: والله بخير، والأمثلة عليه كثيرة في حياتنا، فهذا هو الذي

---

(١) رواه البخاري في كتاب: الخصومات ، باب : كلام الخصوم بعضهم في بعض، برقم (٢٢٣٥).

يسمى لغو يمين، فهذه ينبغي عدم التهاون فيها، وهي معفو عنها لكثرة وقوعها ورفع الحرج عن الأمة، قال تعالى ﴿**لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٢٥] .

النوع الثالث: أن يحلف الإنسان على أمر مستقبل يعتقد فعله، ويتبين له خلاف ذلك؛ مثل من يقول : والله لن أذهب غداً لفلان، فهذه اليمين التي إذا نقضها عليه الكفارة ، وإذا رأى غيرها خيراً منها عليه أن يأتي بالذي هو خير ويكفر عن يمينه؛ مثل من قال: والله لا أدخل بيت فلان لخصومة بينهما ثم تصالحا فيدخل البيت ويكفر عن يمينه، **والكفارة**: إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة وهذا على سبيل التخيير، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام.

الوقفة الرابعة:

حفظ اليمين له ثلاثة معان:

١ - حفظها ابتداء، وذلك بعدم كثرة الحلف، ويصح أن كثرة الحلف تضعف الثقة بالشخص وتوجب الشك في أخباره.

٢ - حفظها وسطاً ، وذلك بعدم الحنث فيها، إلا ما استثني كما سبق.

٣ - حفظها انتهاء في إخراج الكفارة بعد الحنث .

٤ - حفظها بأن لا يحلف بغير الله سبحانه وتعالى [١] .

---

(١) ينظر: القول المفيد (٢/٤٥٧).

٦٢- بابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وذِمَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ

وقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [النحل: ٩١].

وعَنْ بُرَيْدَةَ قال: كان رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيراً عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللهِ ومَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ خَيْرَاً، فَقَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا، وَلاَ تُمَثِّلُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاثِ خِصَالٍ أو خِلالٍ فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ المُهَاجِرِينَ، وأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وعَلَيْهِمْ مَا عَلَى المُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُم يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ المُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ تعالى، وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِي الغَنِيمَةِ وَالفَيْءِ شَيْءٌ؛ إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ المُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْأَلْهُمُ الجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لهم ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ. وَإِذَا

حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ. فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي، أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لاَ»[1] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(الغلول): هو أن يأخذ شيئاً من الغنيمة ولا يخبر بذلك.

(الغدر): الخيانة.

(ولا تمثلوا): التمثيل التشويه إما بقطع الأعضاء كالأنف وفقع العين ونحو ذلك.

(وليدا): الطفل الذي لم يبلغ.

(الغنيمة) : التي تغنم من الكفار.

(الفيء): هو ما يصرفه إلى بيت المال.

الوقفة الثانية:

الذمة: المقصود بها : العهد؛ وسمي بذلك لأن الملتزم به يلتزم بهذا العهد كما يلتزم صاحب الدين بدينه الذي في ذمته. ولله جل وعلا عهد على الناس وهو عبادته سبحانه وتعالى كما جاء ذلك في آيات كثيرة، ويسمى بالذمة وبالعهد، ويسمى أيضاً تسميات أخرى. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا

---

(١)أخرجه مسلم برقم(١٧٣١).

بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [١] .

ولذلك قال جل وعلا : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ فالله سبحانه وتعالى له عهد على خلقه، أما العهد بين الناس فما يكون بين المتعاقدين في العهود، كما جرى في تاريخ النبي ﷺ في صلح الحديبية مع المشركين ومع غيره .

وعلاقة هذا الباب بكتاب التوحيد: أن عدم الوفاء بعهد الله جل وعلا لا شك أنه تنقص له . وهذا مخِلّ بالتوحيد بحسب نوع العهد الذي أخل به هذا الإنسان.

الوقفة الثالثة:

في حديث بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله، وهذه الجملة من أعظم الجمل التي ينبغي لكل موظف ومسئول أن يتنبه لها، ليس في الحرب فقط أو لقادة الحرب والسرايا فقط وإنما لكل مؤتمن، وكل موظف مؤتمن.

قال : (**أوصاه بتقوى الله**): وهذه من أهم عناصر نجاح الموظف في وظيفته أن يتقي الله سبحانه وتعالى في عمله الذي وكله إليه، وفيمن تحت يده فيتقي الله فيهم. قال: (**ومن معه من المسلمين خيرا**) فمعنى ذلك أن عليه أن يعدل بينهم ولا يظلمهم وأن لا يتعدى عليهم ولا يحملهم ما لا يطيقون، ولا يزيد عليهم في الأعمال وهي لم تطلب منهم، ولا يستغلهم لخدمة

(١) سورة البقرة، الآية (٤٠).

نفسه، إلى غير ذلك.

قال: (**فقال: اغزوا باسم الله**): هذا فيه إشارة إلى أن الغزو أو الجهاد يكون لله، أما إذا كان لأمر دنيوي فهذا خرج عن المعنى المراد إلى معنى دنيوي، و(في سبيل الله) تأكيد على مسألة النية أن تكون لله عز وجل، ثم قال: (قاتلوا من كفر بالله) : فالقتال لله عز وجل وليس لحمية ولا لعصيبة ولا لتفاضل في أمر دنيوي، إنما من كفر بالله..

يقول: (**اغزوا ولا تغلوا**) : الغلول: أن يأخذ شيئاً من الغنيمة ولا يخبر بذلك، وهذا من كبائر الذنوب؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ (١).

الوقفة الرابعة:

الخصال الواردة في حديث بريدة

(**وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيهم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام**) هنا انتقال من الوصايا العامة إلى التطبيق العملي.

الخصلة الأولى: إذا تقابل المسلمون مع المشركين فالدعوة تكون أولاً؛ لأنها هي المقصود من الجهاد، وليس المقصود تعذيب أولئك القوم أو تيتيم أطفالهم أو ترمل نسائهم، إنما المقصود هو الدعوة إلى هذا الدين، فإن استجابوا للدعوة إلى هذا الدين فهذا هو المطلوب وحصلت الغاية.

الخصلة الثانية: (فإن هم أبوا) : يعني امتنعوا عن الإسلام فاطلب منهم

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٦١).

الجزية.

والجزية : هي ما يكون مقابل الأمان وعدم الاعتداء عليهم والتعدي عليهم، فيدفعون هذا المال عوضاً عن حماية المسلمين لهم وإقامتهم في ديارهم. فإن هم بذلوا الجزية فلهم ذلك واقبل منهم وكُفَّ عنهم.

الخصلة الثالثة: إن امتنعوا عن الإسلام وعن دفع الجزية فاستعن بالله وقاتلهم لأنهم كانوا محاربين حينئذ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم أن تخفروا ذمتكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه؛ لأنه لا قدر الله لو حصل غدر لا يحصل بسبب عهد الله وعهد نبيه وإنما يكون العهد الشخصي الذي بين الناس. فكذلك إذا أرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله وإنما أنزلهم على ما تفهم أنت من حكم الله عز وجل؛ فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا.

هذا الكلام قبل أن ينقطع الوحي لكن لما انقطع الوحي فينزلون على حكم الله؛ لأن حكم الله استقر بعد انتهاء الوحي وبعد وفاة النبي ﷺ. فنفهم من هذا - وهذا الشاهد-: عظم أمر العهد والالتزام به وعدم نقضه .

٦٣- بَابُ مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللّهِ

عَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِ اللهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لاَ يَغْفِرُ اللهُ لِفُلاَنٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»[1] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»[2].

الوقفة الأولى:

(القسم): هو اليمين، والإقسام على الله وهو أن يحلف الحالف على الله سبحانه وتعالى أن يفعل كذا، والمقصود هنا باب ما جاء في الإقسام على الله وجعله منهجاً له، فهذا ينبغي أن لا يفعله المسلم، أما حكم الإقسام على الله فالأصل فيه الجواز؛ لقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم (رب **أشعث**مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه) لكن الإكثار منه والتهاون فيه فهذا مما لا ينبغي، وقد يخل وينقص من تعظيم الله سبحانه وتعالى .

الوقفة الثانية:

في حديث الباب أن رجلاً قال: (**والله لا يغفر الله لفلان فقال الله عز**

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٢١).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩٠١).

وجل : **من ذا الذي يتألّى عليّ أن لا أغفر لفلان**) وهذا للأسف يحصل بين بعض الناس، يرى إنسان إنساناً آخر عليه بعض المعاصي وعليه بعض الأخطاء فيقول: والله لا يغفر الله لفلان، سبحان الله هل أنت علمت سريرته؟ وهل علمت أحواله؟ وهل علمت عظم علاقته بربه؟ وهل علمت عظم خشيته لربه؟ وهل علمت ماذا يقول في السر بينه وبين ربه؟ وهل علمت جميع أعماله؟ هذا تألٍّ على الله، والتألي على الله يدل على عدم حسن الظن بالله سبحانه وتعالى، ولذا قال في الحديث القدسي : (**من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك**) . فالذي يتألى على الله يدل على أنه يعجب بعمله، ولا يدري عن حال هذا الشخص الذي قد يكون له عمل جليل غفر الله له بسببه، وربما كان بينه وبين الله سر عظيم إذا خلا مع ربه عز وجل، ربما أنه أصيب ببعض الأمراض والأسقام والمصائب ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى فصبر واحتسب فحصلت له المغفرة، وربما أنه يتذلل لله سبحانه وتعالى ويعظم حدود الله، فيجب على المسلم أن لا يتألّى على الله عز وجل فيحبط عمله بسبب إعجابه بنفسه وتطاوله على الله جل وعلا.

الوقفة الثالثة:

قال أبو هريرة : (**تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته**) .

(أوبقت): أهلكت دنياه لأنه من خسر أعماله فقد حبط هذا العمل، ومن ثم خسر الدنيا وخسر الآخرة، فيجب على المسلم أن يعظم الله ويترك عباد الله عز وجل ولا يتألى على الله سبحانه وتعالى، ويعمق إخلاصه لله جل وعلا ، ويصحح أعماله ويكثر منها .

٦٤- بَابُ لا يُسْتَشْفَعُ باللّهِ عَلَى خَلْقِهِ

عَنْ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: نُهِكَتِ الأَنْفُسُ، وجَاعَ العِيالُ، وهَلَكَتِ الأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ وبِكَ عَلَى اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**سُبْحَانَ اللهِ! سُبْحَانَ اللهِ!**» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ؛ ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**وَيْحَكَ، أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ**»(١) وذَكَرَ الحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

الوقفة الأولى:

قول المؤلف: (**باب لا يستشفع بالله على خلقه**).

أي : لا يطلب من الله أن يكون شفيعاً إلى أحد، فلا يجعل الله هو الشافع عند أحد، ومن هنا فلا يستشفع بالله على خلقه؛ لماذا؟!

لأن في هذا إهانة لله سبحانه وتعالى وتنقصاً له بأن تجعل الله يشفع عند فلان المخلوق، وقد أورد المصنف هذا الحديث العظيم عن جبير بن مطعم ﷺ؛ جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله هلكت الأنفس وجاع العيال وهلكت الأموال يعني من الجوع، والقحط الذي أصاب الناس في ذلك الوقت من قلة المطر (فاستسق لنا ربك) فعقب (فإنا نستشفع بالله عليك) فالنبي ﷺ يعلم عظم هذا الجرم فقال: (**سبحان الله سبحان الله**) فما

---

(١)أخرجه أبو داود برقم(٤٧٢٦) والطبراني في الكبير (١٢٨/٢رقم ١٥٤٧).

زال يكررها، وهذا يفيد أن الإنسان إذا غضب من شيء فلا يرد بالغضب إنما بهذا التسبيح، وهذا هو السنة في ذلك، فيكرر سبحان الله سبحان الله حتى يهدأ؛ لأن الشيطان ينفر حينئذ ثم قال: (**ويحك أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك؛ إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه**) فهذا الحديث فيه بيان لعظم حق الله سبحانه وتعالى ولوجوب تعظيمه جلّ وعلا، بل يجب على المسلم أن يسأل الله سبحانه وتعالى مباشرة، وأما السؤال بالله فهذا أمر آخر يعني لو قال لإنسان : أسألك بالله فهذا من باب تعظيم الله سبحانه وتعالى وسؤاله، وقد سبق معنا: (**من سأل بالله فأعطوه**).

الوقفة الثانية:

هل يجوز لنا أن نستخدم (وبك على الله)؟ وهل ذلك خاص في حياة النبي ﷺ أم أنه يجوز أن نستخدمها حتى بعد وفاته؟!

بالنسبة لرسول الله ﷺ في حياته فهذا جائز، وأما بعد مماته فقد مات عليه الصلاة والسلام ولا يكون هذا إلا على سبيل طلبّ الدعاء، يعني أن تأتي لشخص وتقول: ادعُ الله لي اسأل الله لي، فكأنك ترى أن فلاناً لصلاحه ولتقواه ولعلمه ولعبادته بأنه قد يكون مجاب الدعوة مما يرى من ظاهر حاله، فيقول هذا الإنسان لهذا الشخص: اسأل الله لي كذا أو ادعُ الله لي كذا كما يقول الولد لوالده، فهذا لا بأس به، وقد ورد في دعاء عمر رضي الله عنه : (لا تنسني يا أخيّ من دعائك) [1] وإن كان الحديث ليس بقوي وإنما يستأنس به، فطلب الدعاء لا بأس به.

---

(١) رواه أبو داود في كتاب : سجود القرآن ، باب الدعاء، برقم (١٤٩٨)، وضعفه الألباني في الجامع الصغير، برقم (١٤٤٢٥).

٦٥- بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ ﷺ، قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رسولِ اللهِ ﷺ فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «**السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**». قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً؛ فَقَالَ: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلاَ يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»[(١)] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ، أَنَّ نَاسَاً قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! يَا خَيْرَنَا، وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابنَ سَيِّدِنَا، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ، عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**»[(٢)]. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(السيد): من السيادة وهي السؤدد، والسيد هو الذي يسود الناس، والسؤدد من العظمة والشرف والفخر، وهي صفة مدح وثناء بأن هذا يسود قومه أو صاحب سيادة في قومه، فهو صاحب عظمة وفخامة فيه.

(يستجرينكم): استجراه بمعنى: جذبه وجعله يجري معه، أي: لا

---

(١) أخرجه أبو داود برقم(٤٨٠٦) وأحمد (٢٥/٤) والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم(٢٤٦).

(٢) أخرجه النسائي في سننه الكبرى برقم(١٠٠٧٨) وأحمد (١٥٣/٣ ، ٢٤١).

يستعلينكم الشيطان ويجركم إلى أن تقولوا قولاً منكرا .

الوقفة الثانية:

أراد المصنف أن يبين أن النبي ﷺ سد المنافذ الموصلة إلى هذا الشرك وإلى ما يناقض التوحيد؛ حمايةً لهذا التوحيد العظيم وتخويفاً من الوقوع في الشرك.

فهؤلاء قالوا للنبي ﷺ: أنت سيدنا، ونلاحظ جواب النبي ﷺ قال: **(السيد هو الله)**.

لم يقل سيدكم وإنما قال السيد هو الله سبحانه وتعالى، نبه عليه الصلاة والسلام إلى أن هذا اللفظ دقيق ولا ينبغي استعماله إلا في مقامات معينة .

الوقفة الثانية:

لماذا قال النبي ﷺ قولوا بقولكم أو بعض قولكم ؟ !

كل هذا من أجل ألا يتجاوز هذا الموصوف إلى حد أن يوصف بأوصاف الله سبحانه وتعالى ، ولذلك أراد النبي ﷺ أن يضع لنا منهجا في أمرين:

الأول: المحافظة فيما يحسن القول فيه .

الثاني: ألا يبالغ بحيث يُعطي الموصوف أكثر من وصفه الذي يستحقه.

وكما أشير إلى أن السيادة ينبغي أن تعطى لمن يستحقها، ولذلك لا ينبغي استعمال هذا اللفظ لكل شخص وإنما لمن يستحقها .

الوقفة الثالثة:

مما يستنبط من هذا الباب وهذا الحديث تجنب الوسائل الموقعة في المحذور، وهذا يؤيد قاعدة (سد الذرائع) فإذا كان هناك وسيلة تؤدي إلى محاذير كالشرك بالله سبحانه فلا يجوز العمل بهذه الوسائل .

وهنا يسد النبي ﷺ ما يتوصل إلى الغلو في الدين وإنزال الناس غير منازلهم، فيعترض على لفظ (السيد) خشية أن ينزل منزلة الله جل وعلا .

٦٦- بابُ ما جاء في قَوْلِ اللّهِ تَعالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٧].

عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، تَصْدِيقاً لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا اللهُ». وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِي: «يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ»(١) أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابنِ عُمَرَ مَرْفُوعاً: «يَطْوِي اللهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ السَّبْعَ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟»(٢). وَرُوِيَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «مَا السَّمَاوَاتُ

---

(١) أخرجه البخاري برقم(٤٨١١) ومسلم برقم(٢٧٨٦).

(٢) أخرجه مسلم برقم(٢٧٨٨).

السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلاَّ كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»(١).

وَقَالَ ابنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُس، أخبرنا ابنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلاَّ كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ» قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلاَّ كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ»(٢).

وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الكُرْسِيِّ وَالمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ»(٣). أَخْرَجَهُ ابنُ مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زِرٍّ عَنْ عَبْدِ اللهِ.

وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ المَسْعُودِيُّ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ. قَالَهُ الحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، قَالَ: وَلَهُ طُرُقٌ(٤).

وَعَنِ العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧/٢٧).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٨/٣) وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني (١/٢٢٣ـ٢٢٦).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير برقم(٨٩٨٧) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩١/١): رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

(٤) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة (٣٧٣/٢).

خَمْسِمائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرةُ خَمْسِمائَةِ سنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسُمائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالعَرْشِ بَحْرٌ، بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، واللهُ سبحانه وتعالى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ»[1]. أخرجه أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

الوقفة الأولى:

شرح مفردات الباب:

(ما قدروا): ما عظموا، والضمير عائد للكفار أي أنهم لم يعظموا حق الله سبحانه وتعالى.

(حبر): بفتح الحاء وسكون الباء، هو العالم كثير العلم.

(النواجذ): هي أقصى الأسنان، التي تظهر عند الضحك.

(كخردلة): الخردل من أنواع الشجر، وله حب صغير جداً.

(الكرسي): قال ابن عباس: هو موضع القدمين لله عز وجل بما يليق به سبحانه.

(العرش): هو المخلوق الذي استوى عليه الله سبحانه وتعالى استواء يليق به سبحانه وتعالى.

(تُرس): ما يحمله المقاتل من قطعة حديد ونحوه لاتقاء ضرب السيوف والرماح.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم(٤٧٢٣، ٤٧٢٥) والترمذي برقم(٣٢١٧) وابن ماجه برقم(١٩٣) وأحمد (١/٢٠٦ ـ ٢٠٧).

(فلاة): الفلاة هي الصحراء الواسعة.

الوقفة الثانية:

في هذا الباب ذكر المصنف - رحمه الله – أدلة كثيرة على عدم تعظيم الكفار لحق الله تبارك وتعالى وهو العظيم سبحانه، والقادر على كل شيء، والملك والمتصرف في الأمور، أمره بين الكاف والنون، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فما قدروه حق قدره، وذلك أنهم أشركوا معه غيره، وعبدوا سواه، ولم يخلصوا العبادة له سبحانه، وكفروا بنعمة الله وجحدوها.

ولهذا ذكر المصنف الآية الأولى التي تبين هذا المعنى، فذكر سبحانه أن المشركين ما عبدوه حق عبادته، والله سبحانه القادر الفعال لما يريد، ويوم القيامة يطوي السماء كما قال سبحانه في الآية الأخرى أيضاً: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾[(١)].

ويقبض الأرض كما جاء في الحديث الصحيح أيضاً: (**يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض**)[(٢)].

ومذهب أهل السنة والجماعة في مثل هذه النصوص إثباتها على ما جاء في صحيح السنة من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وأن لها معاني حقيقة، وكل ذلك على حد قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية (١٠٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب :التوحيد ، باب: قوله تعالى (ملك الناس) برقم (٦٨٣٤).

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾[1].

الوقفة الثالثة:

الأحاديث التي أوردها المصنف تدل دلالة واضحة على عظمة الباري سبحانه وتعالى وقدرته، وعظم مخلوقاته وعجائبها وأنه المتصرف بها كيف يشاء، وكذلك فيه ضعف عقول من ترك عبادته أو أشرك معه فكيف بهذا الخالق القادر سبحانه تُترك عبادته أو يتوجه إلى قبر أو ضريح ويدعى من دون الله، مع علم هؤلاء الناس أن المعبودين خلقٌ مثلهم، محتاجون لخالقهم تبارك وتعالى.

إن من تفكر بهذه الأحاديث وتعقل معانيها علم أنه لهذا الكون خالقاً ومدبراً له، ومصرفاً لشؤونه، وأنه وحده المستحق للعبادة، فهذه السموات السبع إذا قارناها بالكرسي كانت السموات مثل الدرهم الذي يلقى في ترس، فتكون النسبة بينهما كبيرة.

وهذا الكرسي الذي يضع الرب سبحانه وتقدس قدميه عليه على كبره إذا قارناه بالعرش كان هذا الكرسي مثل الحلقة من حديد إذا ألقيت في صحراء كبيرة واسعة الأطراف.

وما بين السموات وبين الكرسي أمر لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى.

فوجب على العبد أن يلجأ إلى الله سبحانه ويعبده حق عبادته ويقدره حق قدره.

---

(١) سورة الشورى، الآية (١١).

الوقفة الرابعة:

في أحاديث الباب إثبات عدد من الصفات لله عز وجل ومنها اليد:

كما قال أيضاً سبحانه وتعالى في الآية الأخرى عن اليهود: ﴿**وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ**﴾[1].

فأثبت له تبارك وتعالى لنفسه اليدين.

وقد جاءت بعض الألفاظ بوصف اليد باليمين والشمال كما في حديث ابن عمر الذي أورده المصنف، وكذا ما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (**المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين**)[2].

وقد يستشكل بعض الناس هذا الحديث مع سابقه، وجواباً على ذلك نقول:

إن البعض قد يتوهم من إطلاق الشمال على يد الله تبارك وتعالى أن فيه شيئاً من النقص أو الضعف كما يكون لبني آدم، فذكر ذلك النبي ﷺ لئلا يتوهم أحد من الناس هذا الضعف.

ومما جاء إثباته من الصفات لله عز وجل في هذه الأحاديث الأصابع، وهي أصابع لا يشبهها شيء من أصابع المخلوقين، وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: (**إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن**)[3].

---

(١) سورة المائدة، الآية (٦٤).

(٢) رواه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل، برقم: (٣٤٠٦).

(٣) رواه مسلم في كتاب: القدر. باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، برقم: (٤٧٩٨).

وإثبات الصفات لله عز وجل أمر واجب على المسلم كما جاءت بها النصوص الشرعية من غير تعطيل لها، ولا تأويل لمعناها، ولا تكييف لصفتها، ولا تشبه بأحد من المخلوقين كما قال تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١).

ومما جاء إثباته أيضاً في هذه الأحاديث علو الله سبحانه وتعالى واستواؤه على العرش، وقد جاءت آيات عديدة بهذا المعنى، منها ما جاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾(٢) وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾(٣) وقوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾(٤).

ومن تأمل ما سبق من النصوص الشرعية وما فيها من إثبات لصفات لله عز وجل تبين له وضوح دلالتها.

فكيف يأتي بعض الناس ويحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون: إن المعنى لهذا النصوص غير مراد متأولين ومحرفين لهذه الشواهد العظيمة.

في حين أن السلف رضوان الله عليهم لم يقل أحدهم بأن معنى هذه الصفات غير مراد، أو أنه يلزم من ذلك التشبيه، بل إن السلف أنكروا على من

---

(١) سورة الشورى، الآية (١١).

(٢) سورة آل عمران، الآية (٥٥).

(٣) سورة الرعد، الآية (٢).

(٤) سورة المعارج، الآية (٣).

قال بأن معنى الصفات غير مراد، وألف العلماء في ذلك الردود العديدة [١].

*** *** ***

وبهذا انتهى التعليق على كتاب التوحيد، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من الموحدين المخلصين، وأن يحيينا على ذلك ويميتنا على ذلك، ويبعثنا على ذلك، كما أسأله جل وعلا أن يثيب على ما ورد فيه من الشرح والبيان والتعليق، وأن يعفو عما زل به اللسان والقلم، وأن يجزي خيراً كل من أعان على إخراجه، إنه سميع قريب مجيب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) ينظر: تيسير العزيز الحميد، (٦٤١).

الفهرس